

عار العالم

د. فوزى فهمى



الأعمال الفكرية

عار العالم !!

عار العالم !!

أ. د. فوزى فهمى أحمد



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة الأعمال الفكرية)

عار العالم!!
أ. د. فوزى فهمى أحمد

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التربية والتعليم
وزارة التنمية المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د. سمير سرحان

الوثيقة الأمريكية

تولى **"الإسكندر"** الحكم وهو فى العشرين من عمره، فور اغتيال أبيه **"فليب"**، الذى مارس الغزو والقتال استجلابًا للمتعة والشهرة، فأخضع بلاد الشمال والشرق، واحتل بلاد اليونان، التى قاومته. وعندما اغتيل تصورت **"اليونان"** أنها قد استراحت من شره، واطمأنت إلى أن الوريث الشاب لا يمتلك دربة وخبرة أبيه. وعلى ما يبدو أن **"اليونان"** أرادت أن تتخلص من شبح الأب وولده، فانطلقت بين سكانها شائعة عن موت **"الإسكندر"**، وأعلنت مدينة طيبة -التى صدقت الشائعة -تمردها على السلطة المحتلة الغازية، فإذ **"بالإسكندر"** ينقض كالصاعقة بجيوشه فيجتاح المدينة، ويذبح كل سكانها، متجاوزاً حدود المحظورات. وتناسلت بعد ذلك حروب

"**الإسكندر**"، فعبر حدود "**اليونان**"، وهزم جيوش "**الفرس**"، واندفع إلى سوريا، ومنها إلى مصر، ثم عاود عائداً إلى بابل، وأمر بذبح كل سكان مدينة بأكملها؛ لأنهم من نسل الإغريق، الذين قاموا قبل مائة وخمسين عامًا بتسليم كنوز معبد "**أبوللو**" إلى ملك "**الفرس**"، وتعددت أوامره بذبح سكان مدن كثيرة حتى آخر امرأة وطفل، وقضى "**الإسكندر**" خمسة أعوام متجولاً فى أنحاء إمبراطوريته المترامية الأطراف، حتى توسل إليه قواده طلبا للعودة إلى الوطن، وعلى مضض منه استجاب لمطلبهم بالعودة، وراح يخطط لغزو إفريقيا، غير أنه قد أصابته حمى فمات وهو فى الثانية والثلاثين من عمره.

ويستوقفنا فى حكاية "**الإسكندر**" ما يروى عنه من أنه حين مات صديقه الحميم "**هيفستيون**" بلغ حزنه عليه مداه، فأمر بصلب الطبيب الذى كان منوطًا به الإشراف على علاج مرض صديقه ومتابعته، وأيضًا حين نشبت مشادة بينه وبين أخيه فى الرضاع "**كلايتوس**"؛ انتزع رمحًا من أحد حراسه، وطعنه به فمات على الفور، ولحظة أن أفاق حاول أن يطعن نفسه بذات

الرمح. وتبرر الدراسات التى أجريت عن **"الإسكندر"** وفقًا لمعطيات سلوكه أنه كان رجلاً متطرفًا، باعتباره واحداً ممن عرفهم التاريخ، ويطلق عليهم التسمية المعروفة بـ**"الرجل الصائب"** الذى يستنفد العنف كل طاقته، ويوقن أنه على صواب مطلق، ويفتقد الاتصال بمشاعر الآخرين واحترام تنوعهم، مع أن **"الإسكندر"** تربى وتعلم على يد الفيلسوف اليونانى الشهير **"أرسطو"**، والذى سأله يومًا **"الإسكندر"** عن النصيحة التى يقدمها له عندما يغزو مدينة، فأجابه **"أرسطو"** بأنه عندما يفتح مدينة؛ فإن عليه أن يبحث عن شاعرها، فهو حاكمها، والشاعر هنا كان يعنى -وقتها- النخبة المثقفة من المبدعين والمفكرين والحكماء، إذ هم صناع وجدان المدينة، ومن يجسدون ضميرها، لكننا لا نعلم -على وجه اليقين- ماذا فعل **"الإسكندر"** بنصيحة **"أرسطو"**! ربما كان المثقفون أول ضحايا أوامر الذبح، إقصاءً للتنوع والتعدد والخصوصية، إذ الثابت أن تاريخ **"الإسكندر"** من المذابح يؤكد أن منظوره إلى الشعوب والأمم الأخرى، كان يقوم على مركزية معايير جزئية

تخصه هو، وتستخدم الحرب كتجسيد لتفوق القوة المادية، وما يرافقها من مجازر رهيبة لتعميم منظورها، كما لو كانت تلك المعايير كونية، وذلك هو التطرف بعينه، والذى يقيس الحكم على الآخر بدرجة قربه أو بعده من معاييره الجزئية، فيولد ذلك إساءة فهم علاقة كل مجتمع بالآخر نتيجة إنكار نسبية القيم والمعايير، والتى يؤدى إنكارها إلى الفاشية والاستبداد، ويخول السيطرة على المجتمعات، ومحو القيم المغايرة، فيطغى مجتمع على المجتمعات الأخرى، وتقوم الحروب التى لا مسوغ لقيامها، وتعد جريمة فى حق البشرية، لأنها تنفى ثقافة وحرية المجتمعات، وهما شرطا وجود حضارتها وتجددها.

من هذا المنطلق جاءت الوثيقة التى صدرت، وتم تداولها عَبْر الإنترنت فى شهر فبراير من هذا العام (٢٠٠٢)، بعنوان **"ما الذى نحارب من أجله الآن"**، موقعًا عليها من ستين مثقفًا أمريكيًا، على رأسهم **"فرنسيس فوكوياما"** صاحب كتاب **"نهاية التاريخ"**، و**"صاموئيل هنتنجتون"** صاحب فكرة صدام الحضارات. هذه الوثيقة تحاول وضع مسوغ لقيام الحرب

الأمريكية، كتبرير لعدالة هذه الحرب، فى إطار إعادة طرح فكرة صدام الحضارات ضمنًا لا تصريحًا، وبخطاب حذر لا يعلن الإدانة مجاهرة للحضارة الإسلامية، لكنه -فى ذات الوقت- يباشر تنفيذ سيناريو الصدام الحضارى، ليس من منطلق نظرى؛ بل من منظور تداعيات أحداث الحادى عشر من سبتمبر ومناخها المتلبد، سعيًا إلى قبول وتحمل عدالة هذه الحرب الأمريكية بسائر مضامينها، والتى تصورها الوثيقة - بذكاء بالغ- على أنها شكل من أشكال العدالة التى تضمن السلام المدنى، حيث تورد الوثيقة خمس حقائق أساسية ترى أنها ترتبط بالناس كافة دون تمييز، فتطرحها دونما تعرية لفكرة الصدام الحضارى، لكن بتعويمها من خلال محاولة تدفع وتنفى بها عن نفسها شبهة الحكم على الحضارات الأخرى، وفق معايير الخصائص الجزئية للحضارة الأمريكية، بل تَدَّعى بها الانتصار للخصائص الكلية للقيم، كجملة من الحقائق والمبادئ الكونية التى تدافع عنها، حيث ترى الوثيقة أن الناس يأتلفون حولها كمرجعية تشكل إمكانات مفتوحة، يروضون بها

نوازعهم فى علاقاتهم، درءاً للجموح والتطرف. وتعدد الوثيقة المبادئ الخمسة الأساسية وفقًا لما يلى:-

* البشر كافة يولدون أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق.
* الشخصية الإنسانية هى الفاعل الأساسى فى المجتمع، والدور المشروع للحكومة هو توفير صيانة الشروط التى تكفل الازدهار الإنسانى.
* من طبيعة البشر الرغبة فى بلوغ حقيقة الحياة: الهدف منها، وغايتها النهائية.
* حرية الضمير والحرية الدينية حقوق مصونة للشخصية الإنسانية.
* القتل باسم الله يتناقض مع الإيمان بالله. وهو أكبر خيانة لكونية الإيمان الدينى.

هذه المبادئ الخمسة التى يراها المثقفون الأمريكيون مبررات لقيام واستمرار حربهم، يكشف رصدها عن أنها قاصرة وغير كافية لدرء الصراعات المتجددة، بل إنها -أيضًا- لا تخلو من

الدس الحضارى، إذ لم يرد ضمن هذه المبادئ ما يؤكد الإيمان بالمصالحة بين الحضارات بتواصلها بدلاً من صدامها، بشراكتها بدلاً من تحاربها، بإمكانية تعايشها بدلاً من نفورها، وصولاً إلى مصالحة أعم؛ وهى مصالحة الإنسان مع العالم، إذ أسقطت قائمة المبادئ المختزلة -عن عمد- الإقرار بقبول الثقافات، بتنوعها وتعددها وتمايزها، وهى أم القضايا. فالوثيقة تتستر على هذا المعنى، وتحجبه وتمتنع عنه، صناعة لذاتها دون الاعتراف بالآخر، استهدافًا إلى كونية ثقافية تُصَدِّرها الحضارة الأمريكية فى ظروف تاريخية مأزومة وحرجة ومعقدة، إذ الخطر الفعلى من مجافاة وإنكار التنوع الثقافى أنه يفرز تخطيطًا يفتح باب الرهان المؤكد لقطب العالم لنجاح محاولاته فى فرض الوصاية والاختراق والاستدراج، تكريسًا للقوة وإرادة الهيمنة والاستيلاء والاقتلاع، فى حين أن تاريخ تفاعل الحضارات يثبت أن الإقرار بالتنوع الثقافى وخصوصيته لا ينتج صدامًا أو إخفاقًا فى التواصل الإنسانى، ولا يمنع السلام والتعايش، وإنما الأنظمة السياسية التى تستهدف الاحتواء والوصاية هى

المسئولة عن تأجيج الصدامات؛ بإسقاط هواجسها على المجتمعات بتصنيفها وفقًا لمصالحها لاكتساحها، حيث يتفنن منظرو هذه الأنظمة السياسية فى استنباط الأفكار الموهومة وترويجها، للضغط بإجهاض تطور هذه المجتمعات، وتهميشها وحضها على عدم مجاوزة الحدود المرسومة. لذلك فإن وثيقة المثقفين الأمريكيين فى مبادئها الخمسة تكاشفنا أيضًا، عبر تفكيك أسرارها، بمبناها الذى يقوم على مقصد غير معلن، يستتر وينحصر -تحديداً- فى التغييب والإعراض عن الإقرار بتجريم استخدام القوة العسكرية كمرجعية لحل المشكلات، إذ ألح على الوثيقة هاجس منظرو سياسية الهيمنة، فأعلنت رفضها لممارسة القتل باسم الدين، كمؤشر يكشف سيطرة مشروع تصدير فكرة الصدام الحضارى القائم على نظرية "**هنتنجتون**" فى التناحر بين الكتل الحضارية، والتى تكرس للتناقض الأساسى بين حضارة الغرب وبقية الحضارات، وأخصها الحضارة الإسلامية. وقد توسلت الوثيقة بقراءتها لأحداث سبتمبر، للتدليل على المواجهة بين الإسلام والحضارة

الأمريكية فى ممارسة القتل المجانى لغير ما سبب سوى الرفض المؤسس على مفهوم حتمية الانسلاخ الحضارى، فتجاوزت القضية إرادة التقصى، وانعزلت عن صلتها بالواقع المعيش، وقفزت عليه لتنتج بذلك عائقًا معرفيًا، وهو ما تكشف عنه القراءة التى تطرحها الوثيقة؛ إذ ترى أن "**قتلة الحادى عشر من سبتمبر لم يعلنوا أية مطالب معينة، وبهذا المعنى على الأقل فقد وقع القتل لغرض القتل ذاته. لقد وصف زعيم القاعدة "الضربات المباركة" التى وقعت فى الحادى عشر من سبتمبر بأنها ضربات ضد أمريكا، رأس الكفر العالمى. الواضح -إذن- أن مهاجمينا لا يزدرون فقط حكومتنا، وإنما يزدرون مجتمعنا بأسره، وطريقتنا فى العيش برمتها. جوهر الأمر أن رفضهم لا يقتصر فقط على ما يفعله قادتنا، وإنما يمتد أيضًا إلى ما هيتنا نحن**". وبرغم أن الإسلام من الإرهاب براء، وأيضًا برغم إدانتنا ورفضنا الكامل لانتهاكات ذلك المخبول "**بن لادن**" للآمنين من الشعب الأمريكى، وعدم مصادقتنا على ممارسة الإرهاب ومباغتة الأبرياء، إلا أننا أمام ما تطرحه وثيقة

المثقفين الأمريكيين، لا نقر بتصورها الكلى المتعالى على الواقع والأوضاع والتشابكات، والغارق فى التهويمات، فالمجدى هو الخروج على عقلية النمذجة التى لا تحسن سوى أن تجعلنا نخسر ما نتطلع إلى المحافظة عليه.

إن الموقعين على الوثيقة من المثقفين الأمريكيين يعلنون فى نهايتها عن نداء، بأن كل رجائهم -بشكل خاص- هو **"التواصل مع إخوتنا وأخواتنا فى المجتمعات الإسلامية. كلمتنا إليكم بكل صراحة: إننا لسنا أعداء؛ بل أصدقاء، لا يجب أن نكون أعداء، فنحن نشترك فى أمور كثيرة جداً، وهناك الكثير الذى لا بد أن ننجزه معًا...إننا نعلم أن بعضًا منكم لا يثقون بنا على نحو بالغ، كما نعلم إننا -الأمريكيين- مسئولون جزئيًا عن انعدام الثقة على هذا النحو، لكننا لا يجب أن نتعادى. أملنا أن ننضم إليكم، ومعنا كل أصحاب النوايا الطيبة؛ كى نقيم سلامًا عادلاً ودائمًا"**. ومن ذات المنطلق نعاود التأكيد أن الإسلام فى سماحته يبرأ من الإرهاب، ويدعو إلى احترام تعدد الأديان والحرية فى المعتقدات، وهو ما شهد به

علماء الغرب من المستشرقين الدارسين. لقد تعهد نبى الإسلام محمد -صلى الله عليه وسلم- فى كتابه إلى أهل نجران من المسيحيين، وفقًا لما جاء فى مدونة المعاهدات: "لنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم، وأمثلتهم، لا يُغَيَّر ما كانوا عليه، ولا يُغَيَّر حق من حقوقهم، وأمثلتهم. لا يفتن أسقف عن أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا واقة من دقاهيته، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، وليس عليهم رهق ولا دم جاهلية، ولا يحشرون، ولا يعشرون، ولا يطأ أرضهم جيش". وقد جدد هذا العهد خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم. لكننا نتصدى للخطاب المكذوب، ولا نقبل الاستقالة من التفكير، أو القفز فوق المشكلات، فالأمر ليس صدام حضارات أو صراع أديان كخاتم تُصَكُّ به الوقائع والتصورات على أنها حتمية يتم بها تعجيز العقل عن سؤال الحق، كمحاولة لتطويع العرب والمسلمين، وإلزامهم بحياة دون حقهم، ليس لها بديل سوى الإبادة كمغلوبين، لا ينعمون بسلام.

عادل ودائم، ويواجهون اغتيال تاريخهم. إن المهمة المطروحة لا تكمن فى التخلص من الحق بتبرير الاختراقات والعدوان، وإنما بفك الارتباط بين حق الاختلاف الثقافى، والاختلاف فى الحق الذى يُسلَب من أصحابه، فيشكل اختلالاً فى حياة شعوبنا، ولا يحقق سلامًا عادلاً ودائمًا؛ وإنما اقصاء عن الحقوق.

لقد كشف "**أرسطو**" للغازى المتطرف "**الإسكندر**" عن فعالية دور المثقفين والمبدعين والحكماء باعتبارهم منتجى المعارف والأفكار والخيال، وصناع الوجدان، وحراس الضمير العام، ولهم فى مجتمعهم سلطة التأثير والاستنفار فى امتلاك الأذهان والأنفس، فأطلق عليهم مقولة "**الحكام**"، إقراراً بالقراءة الصحيحة لدورهم فى حساب توجهات الرأى العام، فكانوا بذلك -لدى "**الإسكندر**"- خارج دائرة شروطه. لكن المثقفين الأمريكيين بالنسبة إلينا داخل دائرة شروطنا، كمفهوم، وكآلية تحرك الناس لاستكشاف الحق والحقيقة ليواجهوا صاحب الأمر والقرار. لذا ففى تصورى أن وثيقة المثقفين الأمريكيين لا بد أن تقابلها وثيقة من المثقفين المصريين، تعيد طرح الأسئلة

العالقة، كجسر يمكن أن يصل بين الضفتين، فالعبور إلى الآخر يضع حداً لاستعصاء الحلول، ويشكل مقاومة تقتلع وتبدد الاستسلام للانجراف، وتطرح إمكان التمفصل مع المختلف، بدلاً من الانعزال واعتزال الآخرين، وخروجًا من الطوق لتأكيد الحضور.

رهـان الوثيقـة الأمريكية وأوهامها

يظل زخم الأساطير اليونانية مشعًا لا ينحسر، إذ تحكى إحدى هذه الأساطير عن عملاقٍ يدعى **"بروكروست"**، كان لديه سرير حديدى يجبر كل البشر من المارة على الرقاد عليه، فإن كانوا أقصر من السرير راح يمد أجسادهم مهما تخلعت، حتى يصيروا بطوله، وإن كانوا أطول منه قطع سيقانهم حتى يتساوى طولهم بمقاس السرير. ومدلول هذه الأسطورة يكشف عن موقف الخصام المبيت من العملاق تجاه فصائل البشر، ورغبته فى الهيمنة بضرورة انقياد واندحار البشر له تحت ضغط إجراءات التماثل والمطابقة بالقوة والعنف والتشويه، وذلك بحشرهم فى **"سريره"**، باعتباره القالب الذى يتصوره للبشر، كل البشر، مهما تعارضت خصوصياتهم، وتنوعت كياناتهم وتباينت، إذ

نوازع التسلط والاستبداد والخصام والهيمنة لدى العملاق تنكر خصائص البشر، بل أيضًا لا يهمه ما ينتج من حشرهم وتقطيع أوصالهم، إذ المهم أن يصبحوا وفقًا لمقاس "سريره"، الذى عليه تتفكك تمفصلات البشر، ويفقدون وجودهم دفعة واحدة، من قبل إرادة القوة التى لا تريد غير ذاتها وتصوراتها، كقطب يمارس تعجيز البشر وفق تصور معاودة تشكيلهم كى يتطابقوا على مثال قالبه. وكان العملاق اليونانى القديم ممتنعًا عن تبرير ما فعل، غير أن "بروكروست" القرن الحادى والعشرين صدرت له وثيقة تبريرية، وضعها ووقع عليها ستون مثقفًا أمريكيًا، وترتكز على أحداث الحادى عشر من سبتمبر المؤسفة، والتى لا تختلف على إدانة فاعليها باعتبارها جريمة بشعة ضد أبرياء، كما لا نختلف أيضًا على تصنيفها إرهابًا يستوجب مطاردة مرتكبيها ومعاقبتهم، لكن لعل الحكمة كانت تقتضى أن يفتح واضعو الوثيقة حدود انغلاق خارطة الحقيقة، كشرط إمكان لمعرفة الأصول والأسباب لهذا الحدث، خاصة أن الوثيقة تعترف -وفق نصها- "إننا لا نزعم معرفة كاملة بدوافع من هاجمونا

ومن تعاطفوا معهم"، ثم على الفور يقفز خطاب الوثيقة مستدركًا لتغطية هذا التجهيل، ويعود ليؤكد "إلا أن ما نعلمه يقينًا يوحي بأن ما يتشكى منه هؤلاء يتجاوز بكثير سياسة واحدة أو مجموعة سياسات". ويخدع واضعو الوثيقة أنفسهم، أو يخدعوننا، بنفي التساؤل، ورفض قراءة الحدث في ضوء وعي مدار التحري عن مدى علاقة أصحاب الحدث وصانعيه بالولايات المتحدة، وتاريخ وأسرار هذه العلاقة، وهي أسرار لم تعد خافية، فقد تناولتها مراجع منشورة متعددة، كشفت عن شراكة أجهزة المخابرات الأمريكية الضالعة ومسئوليتها والتزاماتها ودعمها وتخطيطها وتأسيسها لجماعات الجهاد الإسلامي ومراحل تطورها المتعددة، حتى استقرارها في أفغانستان كجيش بالوكالة يواجه الاتحاد السوفيتي منذ أيام الحرب الباردة، ثم متى ولِمَ رفعت الولايات المتحدة عنهم دعمها. لكن لأن الوثيقة محكومة بهواجس التبريرات والتأييدات وشواغل ظرفية جامحة، كما أنها أيضًا محكومة بذات منطق القولبة "**البروكروستية**"، لذا فإنها لم تسهم إلا

بدفع الحدث وتصنيفه فى إطار الفكرة السابقة الصنع والتجهيز؛ أى صدام الحضارات، إذ أقرت الوثيقة: **"أن قتلة الحادى عشر من سبتمبر لم يعلنوا أية مطالب معينة، وبهذا المعنى على الأقل فقد وقع القتل لغرض القتل ذاته"**. عندئذ يعاود خطاب الوثيقة الاصطناع والتبرير ليسوق ويدعم عبر توظيف الحدث هواجس فكرة الصدام الحضارى، والتى تحولت إلى معضلة واقع حاصل، وذلك استهدافًا إلى دفع واستدراج الأذهان كى تستجيب للفرضية المطروحة، اعتماداً على قرينة وأمارة الحدث الإرهابى الخالى من أية مطالب، والصادر عن القتلة وفقًا **"ليقين"** أصحاب الوثيقة، الذى يؤكد أن ما يتشكى منه هؤلاء القتلة يتجاوز بكثير سياسة واحدة أو مجموعة سياسات، فيصادر هذا **"اليقين"** أية أسباب للهجوم نتيجة لتعارضات سياسية -مع اعتراضنا على أسلوب القتلة ضد الأبرياء- ويؤسس له أسبابًا دينية نافرة وحضارية متعارضة، اعتماداً على مقولة **"بن لادن"** التى وصف بها أحداث التدمير بأنها ضربات مباركة ضد أمريكا رأس الكفر العالمى؛ فتصبح

هذه المقولة -فى اعتقاد أصحاب الوثيقة- قرينة الاستدلال على التناحر الدينى والحضارى. وتصطفى الوثيقة طريقها للوصول إلى ما قد تم ترتيبه بحسابات دقيقة، ويقتضى ضرورة القبول؛ لأنه استوفى مقدماته واستدلالاته، فإذ بموقعى الوثيقة يدفعون بقناعتهم المفخخة بأنه أصبح "**من الواضح -إذن- أن مهاجمينا لا يزدرون فقط حكومتنا، وإنما يزدرون مجتمعنا بأسره، وطريقتنا فى العيش برمتها. جوهر الأمر أن رفضهم لا يقتصر على ما يفعله قادتنا، وإنما يمتد أيضًا إلى ماهيتنا نحن**". وهو ما يستدعى محاربتهم بما أسمته "**الحرب العادلة**".

بهذا الطرح يتكشف الإصرار على الاعتقاد بأن الإسلام خصم حضارى لهم، تدفعه إلى استمرار صراعه ضدهم محركات تتخطى أية أسباب آنية، بل تنحصر هذه الأسباب فى القطيعة الإسلامية الكلية الرافضة للغرب بإطلاقه، وهو تصور يخالف ركائز الإسلام الذى يلزم المسلمين بالدفاع ضد المعتدى، ولا يرفض إمكانية العلاقات مع غير المسلمين، وذلك وفقًا لنص الآيتين الكريمتين: "**لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى**

الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم. ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون". لكن ما تلصقه الوثيقة بالإسلام هو الطرح الرائج فى دهاليز السياسية الأمريكية، ولدى منظريها وواضعى استراتيجية أمنها وهيمنتها، وهو ما رصده **"زبجنيو بريجنسكى"** مستشار الأمن القومى الأمريكى السابق، والمسئول الأول الذى أسس وخطط لتجنيد وتحريض جماعات الجهاد الإسلامى وفصائلها، وأقام لها جسور شبكة الإمدادات والتدريب والتمويل، ليستحدث جغرافيًا فى مواجهة الاتحاد السوفيتى أيام الحرب الباردة فيتنام أخرى فى أفغانستان، الأمر الذى تفصح عنه تفصيلاً المراجع التى أزاحت الستار عن تلك الأسرار والأدوار. يؤكد **"بريجنسكى"** فى كتابه **"الفوضى - الاضطراب العالمى على مشارف القرن الحادى والعشرين"**، فى مجال تشخيصه لأوضاع مجموعة البلاد الإسلامية **"أن العالم الإسلامى يتمتع بتوجه دينى أكثر ترابطًا**

وتوكيداً، يولد نظرة دفاعية تهدف إلى إبعاد التأثير الفاسد للغرب..، ويرفض الإسلام حالة السيادة التى تتربع عليها حضارة الغرب، ويعتبرها -فى الوقت ذاته- فاسدة فلسفيًا ومستغلة اقتصاديًا، واستعمارية سياسيًا. ويدرك العالم الإسلامى -على نحو عميق- الهجمة الهائلة على قيمه وتقاليده، وخاصة فى أمريكا". ومن الواضح أن الوثيقة يسكنها هذا التعميم الذى أورده **"بريجنسكى"** من معاينة حاكمة على مجمل وكلية التوجة العام للبلاد الإسلامية فى عدائها للغرب، لذلك كان رهان الوثيقة على اتباع منهج مناورة، يطمس ويحجب الهدف السياسى للهيمنة الأمريكية، ويرتكز على نفى تعارضات قيم المجتمع الأمريكى مع أية قيم إنسانية عامة، إذ نصت الوثيقة **"على أن هناك قيمًا أمريكية هى بمثابة المثل التى يتأسس عليها مجتمعنا، والتى تحدد أكثر من غيرها طريقتنا فى الحياة.. فهى أكثر جذبًا ليس فقط للأمريكيين، وإنما لأناس غيرهم فى كل مكان من العالم. ودعونا نشر إيجازاً إلى أربع من هذه القيم:**

* أولى هذه القيم : هو الإيمان بأن كل الأفراد يتمتعون بكرامة إنسانية متأصلة، وهى حق يحصلون عليه بالميلاد ، ومن ثم فمن الضرورى أن يعامل كل فرد بوصفه غاية، وألا يتعرض للاستغلال بوصفه وسيلة.

* ثانية هذه القيم : والتى تنبنى بشكل وثيق على الأولى، هى القناعة بأن الحقائق الأخلاقية الكونية موجودة ومعروفة لدى البشر جميعًا.

* ثالثة هذه القيم : هى قناعتنا بأن مقاربة الفرد والجماعة للحقيقة تتسم بعدم الكمال، ومن ثم فإن عدم الاتفاق حول القيم يدعونا إلى المدنية والانفتاح على الرؤى الأخرى، كما يدعونا إلى الجدل المقبول فى سعينا وراء الحقيقة.

* رابعة هذه القيم : هى حرية الضمير وحرية الدين. وهذه الحريات المتواشجة يراها الكثيرون شرطًا سابقًا على حريات فردية أخرى".

برأت الوثيقة -إذن- المجتمع الأمريكى مما رصده **"بريجنسكى"** -نتيجة استطلاعه- من اتهامات بالفساد الفلسفى، والاستغلال الاقتصادى، والاستعمار السياسى، وأوردت مجموعة قيم إنسانية حاكمة ملزمة كمرجعيات لكل مجتمع إنسانى، إذ تصدر عن دولة **"كوزموبوليتانية"** تجابه مشكلات الإنسان فى كل مكان. لكن السؤال المطروح راهنًا: أليس من الضرورى أن تتلازم القيم مع السياسة؟ إن المسكوت عنه فى الوثيقة، وفق لعبة الخداع بالتغييب والحجب، والمبحوث عنه بالنسبة إلينا، تصرح به الأفعال المرصودة للسياسة الأمريكية تجاه مأزق السلام ومشروع التسوية للصراع العربى الإسرائيلى، ومناوراتها الصامتة تجاه عدوان إسرائيل وإرهابها المفضوح، وعبثها بكل القيم تحت غطاء دعم أمريكى ومظلة حمايته، وهو ما يكشف عن تناقض السياسية الأمريكية مع مجموعة منظومة القيم. ألا يعنى غياب فعالية هذه القيم أن الوثيقة تحاول الإقناع بالصورة المفارقة لما يحدث فى واقع الممارسة؟ ترى لِمَ، وكيف أفلتت السياسة الأمريكية من قبضة قيم مجتمعها، مجتمع الديمقراطية والمساءلة؟!

ولأن أصحاب الوثيقة الأمريكية يضعون لنا قيمًا يرونها عادلة، ويطرحونها علينا كي تصبح في مسلماتنا الجماعية، استهدافًا إلى سلام عادل ودائم بيننا، فإنه يتعين علينا أن نستجلي امتدادات هذه القيم في ممارسات دوائر القرار السياسي الأمريكي، اختباراً لثوابت التحالف الفكري -الذي ينتظره منا أصحاب الوثيقة عبر جسور الثقافة- وذلك بحساب قدر تجليات استجابات الإدارة الأمريكية لمنظومة القيم الكونية العادلة، حين تستنزل سياستها على قضايانا المصيرية، إذا كان لنا أن نتمتع بالحق الكوني العام الذي ما انفكت الوثيقة تصدح به. ينص خطاب الوثيقة في توصيفه **"للحرب العادلة"** على أنه **"لا يمكن للحرب أن تكون مشروعة لمجرد كسب مجد وطني، أو الثأر من أخطاء الماضي، أو الحصول على مكاسب من الأرض، أو لأية أغراض أخرى غير دفاعية"**، وتكشف هذه المقولة مضيق الحرج حين نتساءل: وفق أية معايير يمكن أن يصنف الجبروت العسكري الإسرائيلي بصنائعه المخربة والمهلكة، وبربريته ووحشيته وعنجهيته على الأراضي الفلسطينية؟ ترى هل امتلكت تلك القيم،

ضمانات توفر لها التأثير فى قرارات صناع السياسة الأمريكية، أم أن الحقائق الساطعة للموقف المأزوم غير كافية؟!!

تجاهر الوثيقة الأمريكية بأنه **"لا شرعية لحروب تخاض ضد مخاطر صغيرة وغير محققة أو غير واضحة العواقب أو ضد مخاطر يمكن إزالتها خلال وسائل لا تتسم بالعنف، أما إذا كان الخطر الذى يتهدد الأبرياء حقيقيًا ومحققًا، خصوصًا لو كان المعتدى يتحرك بدافع من عداوة سافرة، وإن كان غرضه النهائى هو تدميرك، لا أن يلتقى مع رغبتك فى التفاوض أو التسوية، ففى هذه الحالة يصبح اللجوء إلى القوة المحسوبة له ما يبرره من الناحية الأخلاقية"**. ترى هل تصنف مبادرة السلام العربية التى طرحتها قمة بيروت على أنها عداوة سافرة؟! هل الفلسطينيون هم من يسعون إلى تدمير إسرائيل؟! هل هم من أوقفوا التفاوض ورفضوا التسوية؟! أم أن الواقع قد أثبت أن القيم التى تطرحها الوثيقة لا تبدل سياسة، ولا تزحزح مشكلة، وأن هدفها تبرير استخدام القوة، وتسويق الأوهام المخدرة، كى تمارس بآلتها العسكرية تمديد الشعب الفلسطينى بالقمع

والجبروت للرقاد على **"سرير بروكروست"** القرن الحادى والعشرين، ليتطابق وجوده وفقًا لتصورات الإسرائيليين، الذين يمارسون الإرهاب بدعوى الاحتماء من الإرهاب، فى حين أن الوثيقة الأمريكية لا تنفك تردد مواعظها عن الحق الكونى العام، ويقف موقِّعوها من المثقفين يتفرجون صامتين على إرهاب الدولة الإسرائيلية كجرم متحقق وفى حالة تلبس، وكأن ملف استرجاع الحق الفلسطينى قد أغلق تحت مظلة أوهام الوثيقة الأمريكية عن الحرب العادلة وأخلاقياتها.

الوثيقة الأمريكية والمنشور المضاد

تم العثور على نسخة طبق الأصل من منشور مكتوب بخط اليد عند بوابة الكاتدرائية، ينص على تعليمات محددة تكشف عن أفظع أشكال الوحشية والتعذيب والمهانة، ،التي يجب تنفيذها فوراً على جميع أفراد الحاشية، من مدنيين وعسكريين، الذين يحيطون بالحاكم المسمى "**الأعلى**". غير أن المثير للدهشة في هذا المنشور أمران؛ أولهما: أن المنشور مذيل بتوقيع "**الأعلى**" نفسه، وثانيهما: أنه لا يعفي الحاكم "**الأعلى**" ذاته من الخضوع لتلك التعليمات، بمعنى أنه يتحتم أن يجري تنفيذ كل ما جاء في المنشور من أشكال التعذيب والمهانة بجثمان "**الأعلى**" فور قتله، وقبل حرقه.

صحيح أن "**الأعلى**" الدكتاتور حاكم البلاد، اعتاد أن يملي بنفسه التعليمات والأوامر، التي يجب أن تنفذها دوائر دولته

كافة، فى شكل منشور يذيل بتوقيعه، إلا أن المنشور المضاد عند قراءته -وفقًا لمنطق أولويات الفهم للمقروء- يثير معضلة، من حيث إنه موقع من **"الأعلى"** كسلطة، و-فى الوقت نفسه- موجه ضد **"الأعلى"** كسلطة، أى أن العين العجلى تدرك أنه من غير المعقول أن يصدر **"الأعلى"** طواعية ذلك المنشور المضاد. والذى لا شك فيه أن لهذا المنشور المضاد علاقة وصلة بمغزى سياسى يعبر عن تراث مكتوم من الإدانة والاعتراض والاحتجاج، يصوره حجم عنف أشكال التعذيب الواردة فيه ضد **"الأعلى"** وحاشيته، كشكل من المقاومة التى تتخذ من صيغة **"قلب الأوضاع"** وطرح المعكوسات، أسلوبًا لإحداث صدمة بالمجاهرة والاختراق، وبتحدٍ مكشوف تنقلب فيه طبيعة العلاقات رأسًا على عقب كتحريض ضد السلطة.

زَيَّفَ المنشور المضاد -إذن- صوت **"الأعلى"** الدكتاتور، فانفرطت بذلك أعلى مستويات السلطة، وأصبحت هدفًا للهجوم، حيث استنطقت بما لا يمكن أن تقول، وهو أقصى صور التمرد والانتهاك، وكان لا بد من البحث عن الموقع الذى أُنْتِجَ فيه المنشور. ولأن السمة

العامة للمنشور تشى بخبرة الكتابة وسلامة التعبير، كان قرار الاتهام -دون إمهال- منحصراً فى أن محرره الحقيقى المجهول واحد من الكتاب المثقفين فى البلاد، الذين يبلغ عددهم ثمانية آلاف، وعلى الفور تم اعتقال سبعة آلاف ومائتين وأربعة وثلاثين منهم، أى ممن يمارسون التفكير والنقاش، ولا يصمتون، ويرفضون أن يتحولوا إلى أدوات ضخ لمصفوفات الألفاظ، بخضوعهم لفعل **"الإملاء"** عليهم من **"الأعلى"** الدكتاتور، حيث يختزل وجودهم فى أنهم محض **"مدونين"**، ولهذا أقصاهم **"الأعلى"** باعتبارهم غير موالين، واستعاض عنهم بمجموعة من **"الوراقين"** ممن قبلوا أن يملى عليهم تعليماته وأوامره وإبلاغاته، فيدونونها ويجملونها كصياغات، بامتثال دون إبطاء أو نقاش، إذ احتكر **"الأعلى"** وحده ولنفسه الوصاية على الجميع.

كان تأثير المنشور المضاد على **"الأعلى"** كوقع الزلزال، فأحدث فى أعماقه شروخات للفعل المعتاد والمحمول على الثبات، وهو ممارسته الدائمة لفعل **"الإملاء"**، فهو لا يصدق أن يفك ارتباطه بفعل الهيمنة على المعتقدات، والذاكرة، والسلوك لكل الناس.

لا شك أن ما طرحه **"أوجستو روا باستوس"**، كاتب **"بارجواى"** الشهير فى روايته الرائعة **"أنا الأعلى"**، بفضحه عملية صهر الناس

والهيمنة عليهم بفعل **"الإملاء"**، يتماس مع ما تفصح عنه ملابسات ظهور الوثيقة الأمريكية التى وَقَّعَهَا ستون مثقفًا أمريكيًا، والذين يتماثل موقفهم مع ذات موقف **"المدونين"**، مَن استخدمهم **"الأعلى"** كأداة ليرسخ الاكتساح والإكراه والهيمنة على الناس، فالمثقفون الأمريكيون الموقعون على الوثيقة قد خضعوا لذات فعل **"الإملاء"** من جانب واضعى الاستراتيجية السياسية الأمريكية، بقصد تبطين الفعل السياسى الأمريكى بآليات التغليف لأهداف الإكراه والسيطرة، عبر وثيقة تبدو كخطاب ثقافى يرتكز على سياق التبشير والإغراء، بتأسيس قاعدة حقوق إنسانية كونية عامة، يجرى تسويتها كمرجعية ضد الشر، أى الإرهاب.

لكن الوثيقة الأمريكية فى حقيقتها تتلبسها السياسة، ويتوارى خلفها إذكاء الصدام الحضارى، وهو ما تعريه القراءة التى تفكك أسرارها، وتفضح دوافع مشمولاتها من المقولات، وتعين خطوط وصلها بواضعى السياسة الأمريكية، برغم مناوراتها، وغطاء المهادنة، وألاعيب الخداع التى تتقنع بها. فمعطيات الوثيقة -بإعادة التدقيق- تكشف عن اقترانها

الوثيق بصناع السياسة الأمريكية، إذ عندما أعلن **"زبجنيو بريجنسكى"** مستشار الأمن القومى الأمريكى الأسبق، تشخيصه لمنفرات العالم الإسلامى من الغرب عام ١٩٩٣، تزامن إعلانه مع رواج فكرة صدام الحضارات التى نَظَّرَ لها فى ذات العام مقال شهير نشره **"صاموئيل هنتنجتون"**، و-تلمسًا للقرائن- هو أحد المثقفين الموقعين على وثيقة التبريرات الأمريكية. لقد ربط **"بريجنسكى"** فى تشخيصه منفرات العالم الإسلامى من الغرب -بمكر بادٍ- بالمعتقد الدينى؛ كى يستوفى اكتمال شروط حتمية الصدام الحضارى بين المسلمين والغرب، وساق تشخيصه بأن **"على الغرب أن يتفهم أن المليار مسلم لن يتأثروا بغرب يرونه مبشراً بقيم استهلاكية، وفضائل لا أخلاقية، وبركات الإلحاد، فرسالة الغرب -لا سيما أمريكا- مرفوضة لدى كثير من المسلمين"**. ولا شك أن بناء المعنى فى هذا التشخيص يلصق -افتراءً- بالمسلمين تقويضهم وتنكرهم لرؤية القرآن الكريم التعددية للكون، وفق الآية الكريمة **"ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة"**. لقد كان رهان الوثيقة الجديدة عام ٢٠٠٢

فى ضوء المستجدات -فيما يختص بتلك القيم التى أشار إليها التشخيص- يرتكز على طلب الإمهال، وعدم المكابرة، وامتطاء خديعة النقد الذاتى، مغازلةً ومجاذبةً للأغرار، وذلك باتهام وإدانة تلك القيم التى وردت فى تشخيص "بريجنسكى"، إذ نصت الوثيقة على أنه **"يرى كثير من الناس، ومنهم كثير من الأمريكيين، وعدد من الموقعين على هذا الخطاب، أن بعض القيم التى تظهر أحيانًا فى أمريكا، منفرة ومؤذية، منها تلك النزعة الاستهلاكية التى تتخذ كطريقة للحياة، ومفهوم الحرية التى تفتقر إلى ضوابط، ومفهوم الفرد بوصفه صانعًا لذاته، ومتمتعًا بالسيادة على نحو مطلق غير مدين بشىء يذكر للآخرين والمجتمع. ومن هذه القيم إضعاف الزواج والحياة العائلية، هذا فضلاً عن أجهزة الترفيه والاتصالات الهائلة التى لا تألو جهداً فى تمجيدها لهذه الأفكار والترويج لها فى بقاع الأرض كافة تقريبًا، بغض النظر عما إذا كانت هذه الأفكار موضع ترحيب أم لا"**. وتعاود الوثيقة بدهاء، استهدافا إلى المهادنة، واستدراجًا لاستهواء الآجل فى سياق طرحها للتحالف

الفكرى بينها وبين المثقفين فى العالم الإسلامى، فتطرح موضوعًا يتعذر فيه الاستدراك الآنى، ويتطلب الإمهال، فتغيير القيم في المجتمعات يتخطى البريق الجذاب لنيات التغيير، إذ يحكمة امتداد زمنى يرتبط بالاشتغال على نسيج ثقافة المجتمع عبر تراكمات تأثير مؤسسات صياغة الوجدان، فتعلن الوثيقة ما نصه: **"إن المهمة الرئيسة التى تواجهنا كأمريكيين، والتى تفوق فى أهميتها أحداث الحادى عشر من سبتمبر، هى أن نواجه -بأمانة- هذه الجوانب المنفرة التى تسم مجتمعنا، وأن نبذل ما بوسعنا حتى نُغَيِّرها إلى الأفضل. إننا ننذر أنفسنا لهذه المهمة"**. إذن نحن أمام دعوة صريحة للمراجعة من جانب المثقفين الموقعين على الوثيقة لمجموعة قيم يرونها تشكل مخاطر على مجتمعهم، وهذا شأنهم. أما شأننا فليس يقع فيما ينتشر بينهم من قيم، وإنما موطن الجدة فى تحالفهم المطروح معنا، لا بد أن يرتكز على بذل طاقة الممانعة من قبلهم للسياسة الأمريكية لتوقف استباحة أرضنا وثرواتنا لإحكام سيطرتها على مقدراتنا باستخدام القوة المتعاظمة، وهو ما تغفله

الوثيقة عن وعى وقصد، إذ تبدو وكأنها لا تدرك الأسباب الحاملة على أية مقاومة فى أية مواجهة بين البشر، والتى فى ضوئها تمتنع وتستعصى معها علاقة المصاحبة!!

تناور الوثيقة إذ تَدَّعِى أنها تستقدم موضوع مواجهة القيم الخطرة التى انبثقت فى مجتمعها، على تبرير موضوع "**الحرب العادلة**" ضد من تعتبره السياسة الأمريكية على شاكلة قتلة الحادى عشر من سبتمبر، فذاك هو جوهر الرهان لصناع الوثيقة، والذى يغلفونه باحتراز، فى إطار تبرير تشخيصات السياسيين الذين يقودون الولايات المتحدة، ويحولون سياساتهم إلى واقع حى يتطلب التنظير والتبرير ورصد الحيثيات، لتغطية سيناريو السيطرة الذى تنفذه السياسة الأمريكية على مواقع النفوذ الاستراتيجية. ولأن الوثيقة استهدفت هذه التغطية، فقد طرحت سؤالها العام الجوهرى: "**ما الذى يمكن أن يقلل من حالات عدم الثقة والكراهية والعنف، التى تنطلق من أساس دينى فى القرن الحادى والعشرين؟**" والسؤال المطروح، بطبيعته وصيغته المحددة، يكشف عن أنه مستولد من فكرة صدام الحضارات، كمرجعية حدية

قاطعة وثابتة حيال العالم الإسلامى، والتى تلغى من قناعاتها وتقديراتها مبدأ التسامح فى الإسلام وتنكره، بل ترى حتمية استمرار هذا الصدام الحضارى الخالى من أية أسباب، سوى التناحر الدينى، بدفع من طبيعة العقيدة الإسلامية المسيطرة فى رؤيتها للعالم، وهى النظرية التى أسست عليها السياسة الأمريكية استراتيجيتها ونظرتها إلى العالم الإسلامى، كذريعة للتصدى باستخدام حقها فى حماية مصالحها، بممارسة الوسائل الممكنة كافة، وهو ما يكشف عنه رصد **"بريجنسكى"** حين شخص العالم الإسلامى وفق ما أسماه بـ**"هلال إسلامى متبعثر"**، إذ يؤكد أن هذا الهلال الإسلامى تتشاطره كثير من الطموحات والكراهات، وخاصة ضد الغرب، ويشكل الصراع واللا استقرار حقيقته المميزة، إذ بعض بلدانه المتعصبة دينيًا، مثل إيران، ما برحت متأثرة بالتقاليد الإمبراطورية القوية، فى حين أنه ما زالت أخرى تفتقر إلى التلاحم الحقيقى، وأن هناك مخاطر تواجهها الولايات المتحدة تكمن فى الانقسام الثقافى والفلسفى مع العالم الإسلامى، الذى يخشاه الغرب تمامًا فى توجهاته الثيوقراطية والمتطرفة، كما أن استمرار

الفُرْقَة العربية، التى ينبغى أن يبقى عليها الغرب بدافع الحفاظ على مصالحه وسيطرته على منابع النفط العربية، سوف تسهم أيضًا فى عدم استقرار المنطقة.

ولا -يخفى بالطبع- أن المصب المبتغى من الرصد هو تأكيد أن تبعثر المنطقة وحضارتها ذات المعتقد الدينى المعادى للغرب، هما ما يشكل المعضلة، لذا فإن تبريرات إجراءات السياسة الأمريكية فى فرضها الهيمنة، تأتى كوقاية وحماية لمصالحها ووجودها، وهو ما يؤكده **"بريجينسكى"** فى تحديده لأفق الصراع الاستراتيجى فى المنطقة؛ بأن **"الدور السياسى الأمريكى فى الهلال الإسلامى المتبعثر سيظل على نحو شبه أكيد، الحكم المركزى فى سياسات القوة داخل منطقة الخليج والشرق الأوسط"**، بمعنى أن وجود الولايات المتحدة بقوتها وعتادها معلق على **"شرط واقف"**، أى أنها لن تخرج، ولن توقف إجراءاتها فى استخدامها للقوة، إلا إذا تخلصت المنطقة من كراهيتها وعدائها للغرب، وأيضا إذا استطاعت بلدانها التى تفتقر إلى التلاحم أن تحققه، مستهدية بمعايير الولايات المتحدة، مرتضية حكمها على ما تنجزه، وهو ما تتضمنه الوثيقة عندما نتأمل إجابتها

عن سؤالها العام الذى طرحته، إذ نجدها تنحى كل الخيارات، وتنتقى معياراً وتقرره، معلنة بأن "**هناك -بطبيعة الحال- إجابات عديدة مهمة، ولكن فيما يلى أحد هذه الحلول على ما نرجو، ألا وهو تعميق وتجديد تقديرنا للدين، وذلك من خلال تقبل الحرية الدينية بوصفها حقًا أساسيًا لكل البشر فى كل أمة**". وبذلك غلف الحل المقترح فى الوثيقة "**الشرط الواقف**" بنداء ظاهره التسامح، وباطنه الإقرار باستمرار نيات السيطرة، لحين ضمان تحقيق التسامح وحلوله واقعًا، كما يسند الحل المقترح دوافع "**الحرب العادلة**" ضد من تتصور الإدارة الأمريكية أنهم على شاكلة قتلة الحادى عشر من سبتمبر، يسنده إلى أسباب فرضتها وحتمتها طبيعة السلوك المتطرف لبعض المسلمين أنفسهم، وليس إلى أية أسباب أخرى، ولها وحدها أن تقرر توصيفاتها وتعييناتها لهم.

وكما حدث فى رواية "**أنا الأعلى**"، حيث ظهر منشور مضاد للدكتاتور، كذلك نُشِرَ فى الولايات المتحدة كتاب صدر عن كاتبين من الذين يرفضون "**الإملاء**". والاختلاف هذه المرة أنهما وَقَّعَا عليه باسميهما، وهما الكاتب الأمريكى "**مايكل هاردت**"، وكاتب من أصل إيطالى هو "**أنطونيو نيجرى**". والكتاب يحمل عنوان "**الإمبراطورية**"، يعلن عن قلقه

من هذا التركيز المتجدد على مفهوم "**الحرب العادلة**"، ويفضح تبريراتها، ويكشف أنها أحد أعراض ميلاد الإمبراطورية الجديدة، التى لا تعرف معنى للقيود أو الحدود، إذ "**صار العدو مطلقًا، ويجرى تصوير عمليات نشر القوات بوصفها تحركا بوليسيًا، تفرضه -أحاديًا- الولايات المتحدة، ثم تبادر لاحقًا إلى مطالبة حلفائها بتحريك عملية احتواء وقمع مسلحة لعدو الإمبراطورية الراهن، هذا العدو الذى يطلق عليه -فى معظم الأحيان- الإرهاب**".

ترى كيف ستكون خاتمة أحداث رواية العالم الواقعى؟ هل ستحددها نظرية صدام الحضارات، وجبروت القوة المتعاظمة الحد، والتى تسوغ غزوها واحتلالها لأراضى الغير بمحاربة الإرهاب، وهو ما يفسر موقف الولايات المتحدة المخزى والمتواطئ من الاكتساح الإسرائيلى البربرى للأراضى الفلسطينية، حيث يتجلى وفاء الولايات المتحدة لقيم الرقى الإنسانى، بأن ترسل خيامًا لمن شردتهم ودمرتهم آلتها العسكرية والمعارة إلى إسرائيل، لتؤكد يقظة ضميرها الحى؟!!

الوثيقة الأمريكية ودموع الصياد

روى الأقدمون أن صياداً كان إذا اصطاد عصفوراً اكتفى بقصف جناحيه وتركه أسيراً له. والمدهش فى حكاية هذا الصياد أنه فى أثناء الصيد اعتاد أن يذرف دموعه، ويتركها تسيل على خديه كالنهر، استشفاقًا وأسفًا، كتبرير واعتذار عما يفعله، حيث يزدوج ويتوازى الحدثان معًا: البكاء المستمر، ومزاولة قصفه لأجنحة العصافير اتقان ومهارة فائقين. ونتيجة الحدثين المزدوجين برغم تناقضهما، فإنها يورثا العصافير عجزاً عن الطيران، إذ تنحسر عنها بذلك حريتها باتحسار قدرتها على امتلاك فضاء الكون، وبالطبع لا تفيدها الدموع فى شىء، إذ لا يصبح أمامها بعد خسارتها تمكن سوى الركض فى مجال مساحة أرض تمتلكها هيمنة يد الصياد. وحدث فى يوم صيد،

والصياد على حالته المزدوجة بين الفعلين، أن قال العصفور الأبله الذى لا يعى ما افتقده، وهو يئن من نزف الدم، منبهًا زميله حينما شاهد دموع الصياد على خديه: انظر إلى وجه الصياد، ترى الدموع فى عينيه. إنه يبكى من أجلنا. ما أرقه!! تعجب العصفور الأكثر وعيًا، والذى لا تخدعه الظواهر أو تضلله، ويدرك توازى الحدثين، بل يعى معنى كل حدث على وجوده، وما يسلبه منه، أى أنه يمتلك قدرة محاكمة الواقع الحى، فاندفع مجيبًا زميله الأبله لينتشله من الوهم قائلاً: انتبه، ولا تنخدع بدموع عينيه، بل انظر أيضًا إلى صنع يديه!!

يبدو أن صناع وثيقة التبريرات الأمريكية أرادوا -كما فعل الصياد- أن يغيبوا عنا الوعى والتبصر كأدوات للفهم والتشخيص كى لا ننظر -مثل العصفور الأبله- إلى ما تشكله أفعال وسياسات قادتهم من اعتداءات وإهدار للحريات، واستنزاف للطاقات فى مجرى الواقع اليومى، بل علينا أن نستمع إليهم وهم يمارسون على العالم وعلينا وكالتهم الأخلاقية وتهويماتهم التبريرية، فنقتنع بها -مثل العصفور

الأبله- ونتـقـبل بكل الرضـا -ونحن نئن- تشـخـيـصـاتـهم وتصوراتهم، وهم يستدرجوننا بآليات لعبة الخطاب المزدوج التى يتأسس عليها مشروع هيمنتهم على كل شيء بما يسمى **"الحرب العادلة"**.

إن دموع الصياد المصاحبة لقصفه أجنحة العصافير، جاءت في الوثيقة، على المجاز، بأشكال متعددة؛ فمرة فى شكل إقرار اعترافات بأخطاء السياسة الأمريكية، وهذه الاعترافات قصد بها أن تكون -تمامًا- مثل دموع الصياد لا تأثير لها، بمعنى أنها لن تغير فى مسارها من نتائج الفعل المستهدف، فصناع الوثيقة يعترفون: **"إننا ندرك أن أمتنا قد تصرفت -فى بعض الأحيان- بغطرسة وجهل إزاء المجتمعات الأخرى، كما اتبعت أمتنا سياسات غير حكيمة وغير عادلة فى أحيان أخرى، وفى أغلب الأحيان أخفقنا كأمة فى أن نسمو إلى المثل التى ارتضيناها لأنفسنا"**. ولا شك أن الاعتراف بأخطاء السياسة الأمريكية من جهة -وهذا ما يهمنا- وكذلك الاعتراف بانسداد شرايين المجتمع الأمريكى عن التمثل والالتزام بمبادئه الأخلاقية من

جهة أخرى، وبالطبع هذا شأنهم، هذا الاعتراف كان لا بد أن يذهب إلى أبعد من مجرد تدوين ملاحظات بالأخطاء، بل ينبغى أن يذهب إلى حد بناء تصورات فاعلة بديلة، تتخطى التدوين الإجمالى المعمم لهذه الأخطاء، إلى الكشف عن نتائجها والجهر بها فى وجه مجتمعهم، ومواجهة صناع السياسة الأمريكية بها، باعتبارهم المسئولين بسياساتهم عما يحدث لمجتمعهم. لكن لأن هذا الاعتراف غايته محددة، فقد صاغوه فى وثيقتهم المحبوكة مفرغًا لفكرة الاعتراف بالخطأ من مضمونها الصحيح، وفى سياق لعبة الخطاب الخادع المزدوج، الذى يستهدف فى العلن إدراج الأخطاء استدراجًا واتقاء، وكواجهة تجسد حضور ضميرهم الثقافى، وفعالية ممارسته لمسئوليته، انفلاتًا من حسابات الحرج أمام مجتمعهم بتسترهم على تجاوزات حكوماتهم، وليسبغوا الحد الضرورى من توافر المصداقية على خطابهم، ثم بالمخالفة على الجانب الآخر، وبمهارة متخفية، يتوسلون بآليات المناورة والحجب، حتى لا يجنح الاعتراف بالأخطاء إلى التنديد والإدانة لحكوماتهم، لذا فهم يحسمون

موقف الرفض بأن تكون تلك الأخطاء غطاء كافيًا لما حدث، بتنحيتهم لهذه الأخطاء جانبًا، وتكوين حزام عازل حولها، رفضًا لإمكانية الأخذ بتأثيرها، وإسقاطا للدعاوى التى ترى أنها تعد أسبابًا لما حدث أو تبريراً له. ولكى لا تصبح هناك فرصة للمجادلة، فإنه على الفور، وبقفزة واحدة -فى صياغة الخطاب- تنتقل الوثيقة متجاوزة هذه الأخطاء، وأية إشكالات للسياسة الخارجية، لتفك ارتباطها بما حدث، إذ يعلن صناع الوثيقة: **"إننا لمجتمع على قناعة نثق أن الناس جميعًا من أصحاب النيات الطيبة يشاركوننا فيها، ألا وهى أن الارتكان إلى سياسات خارجية معينة، بما تشتمل عليه من مزايا أو مساوئ، لا يمكن أن يبرر، أو حتى يضفى معقولية على الذبح الجماعى لأناس أبرياء"**. ونسائل صناع الوثيقة عن تلك المعقولية التى يمكن أن تبرر المذبحة الجماعية لأبرياء ضحايا حادث تفجير المركز التجارى فى أكلاهوما عام ١٩٩٥، والذى راح ضحيته ١٦٨ قتيلاً، وبلغ عدد جرحاه ٦٧٤ جريحًا أمريكيًا من المدنيين الأبرياء، ألم تكشف المحاكمة أن مرتكبه

"تيموى ماكفاى"، قد نفذ مذبحته انتقاماً لمقتل ثمانين متطرفاً أمريكياً بمعرفة شرطة تاكساس قبل سنتين من وقوع المذبحة؟ ألا يعنى ذلك أن المنقب دوماً لا بد أن يجد لكل المسالك أسباباً، وأن الوصول إلى الحقيقة لا يتوقف على مدى مطابقتها لتصوراتنا عن معقوليتها؛ وإنما يتوقف على موضوعية البحث عنها. لكن لأن صناع الوثيقة يستهدفون الإيهام بأن سياسات حكوماتهم لا تعد سبباً كافياً لتبرير ما حدث؛ لذا نراهم يناورون فى إطار لعبة الخطاب المزدوج، فيسارعون -بالاستدراك- إلى النفى عن حكوماتهم اتهام الاستفراد برسم سياساتها بعيداً عما تقتضيه قيم مجتمعهم، بما يعنى أن سياسات حكوماتهم -وإن تقاطعت وتخاصمت مع البلدان التى ينتمى إليها هؤلاء القتلة- لا تخرج بذلك عن مرجعياتها. وتبريراتهم تستند إلى ما تستوجبه الديمقراطية الأمريكية كقاعدة مرجعية حاكمة، تعد -وفقا لسلطات مؤسساتها- قيداً على سياسات حكوماتهم، حيث إن هذه السياسات محمولة على الثبات والاقتران والارتباط بإرادة المحكومين، وما ارتضوه من قيم، فعلى الوثيقة يعلنون تبريرهم

بأنه "**فى ديمقراطية مثل ديمقراطيتنا -حيث تستقى الحكومة سلطتها من قبول المحكومين- تصدر السياسة على الأقل جزئيًا عن الثقافة، أى عن القيم والأولويات التى يتبناها المجتمع ككل**"، وكأنهم بذلك يرممون ذاكرة مجتمعهم لتدرك أن حكوماتهم لا إثم عليها، ولا إدانة فيما تفعله وتمارسه من سياسات خارجية.

مع أن الوثيقة فى البداية صادرت -بوضوح- مبدأ الأخذ بالأسباب السياسية كتبرير للأحداث، وذلك فى مساق تبطين مقصود يستهدف تحديد وتشخيص العلة والدوافع فى عقل القتلة ذاته، والمشحون بالرفض المطلق -وفق مرجعيات مغلقة- لأسلوب حياة ووجود وماهية الأمريكيين، من حيث مغايرتهم وعدم مماثلتهم للنموذج المرتجى، ثم تحت مظلة تقنيات التبرير، استندت الوثيقة إلى مشروعية صدور السياسة الأمريكية عن قيم مجتمعها، والتى تصاغ صوغًا معياريًا وفقًا للأولويات التى يتبناها المجتمع الأمريكى فى إطار توجهات مصالحه، وهكذا تكون الوثيقة قد حققت دفع تشخيصها للمشكلة إلى

الغاية النهائية المستهدفة، فتبدى الأمر على أنه مواجهة بين تصورين للحياة متعارضين، عندئذ تَوَلَّدَ من السياق الذى فرضته الوثيقة من حيث بناؤها، سؤال باحث عن إجابة تفسر تلك المعضلة، هذا السؤال الحائر كان قد تجسد وشاع فى الشارع الأمريكى عقب الأحداث بصيغة "**لماذا يكرهوننا؟**"، وقد فرض سياق الوثيقة على السؤال إجابته، إذ الإجابة التى يطرحها السياق تفسيراً لجوهر المعضلة، أن المشكلة ترتهن بالمفاهيم والرؤى وتضادتها، بمعنى أن الأسباب تكمن فى صدام رؤيتين للعالم، وهى الإجابة المستبطنة لنظرية صدام الحضارات والكاشفة لأسباب واقع أحداث العنف المدمر، التى تتحدى أساسًا معتقدات الغرب، وتسعى إلى تدمير حضارته، ثم تبسط الوثيقة أطروحتها المتبناة، بأن هذه "**الحركة لا تناهض فقط بعض السياسات الأمريكية والغربية، ولكنها تناهض -علاوة على ذلك- مبدأ تأسيسيًا يقوم عليه العالم الحديث؛ ألا وهو التسامح الدينى**". ولكى تشحذ الوثيقة إرادة مجتمعها، وتقوى شعوره بالخطر؛ تمارس طرح رصدها لقدرة المجاوزة لكل ما يكون

حداً مانعًا لهذه الحركة عن تحقيق أهدافها، فتعلن أن **"الأمر الأخطر من ذلك كله أن جرائم القتل الجماعى التى وقعت فى الحادى عشر من سبتمبر كشفت -لأول مرة- على ما نزعم أن ما تملكه هذه الحركة ليس فقط مجرد الرغبة الصريحة المعلنة، وإنما أيضًا القدرة والخبرة، بما فى ذلك احتمال حصولهم واستعدادهم لاستخدام أسلحة كيميائية وبيولوجية ونووية، تمكنها من القيام بعمليات تدمير واسعة ومفزعة على أهدافها المحددة"**.

وتأتى دموع الصياد على المجاز بالوثيقة فى خطابها المزدوج مرة ثانية، وتتمثل فى الحديث المعدوم التأثير عن الفصل بين الإسلام الحقيقى وحركة التطرف، فتعلن الوثيقة أن **"هذه الحركة المتطرفة تزعم أنها تتحدث نيابة عن الإسلام، ولكنها تخون مبادئ الإسلام الأساسية؛ ذلك أن الإسلام يعارض الفظائع الأخلاقية. إننا ندرك أن الحركات التى تتخفى فى مسوح الدين تنطوى على أبعاد سياسية واجتماعية وديموغرافية معقدة يجب الالتفات إليها بعناية. إنها تنظر إلى العالم بوصفه صراع**

حياة أو موت بين المؤمنين وغير المؤمنين، وهى بذلك كله تنكر -بشكل واضح- كرامة الأشخاص كافة بشكل متساوٍ، وهى بذلك أيضًا تحيد عن الدين، وترفض الأساس ذاته الذى تقوم عليه الحياة المتحضرة، كما تنكر إمكانية إحلال السلام بين الأمم". لكن يظل الفعل المساوى لقصف الصياد لأجنحة العصافير على المجاز حاضراً، مستهدفًا بالوثيقة فى خطابها الذى ينطوى على تداخلات تتواصل بالإلحاح الضمنى على الإيهام الذى يسعى إلى الممازجة بين هذه الحركة، وبين كيان جمعى ينحاز إليها ويدعمها ويؤازرها ويتحالف معها، فتورد الوثيقة إحصاء لهذا الكيان تحدده بأربعين دولة، دون أن تسمى أسماءها. والعدد الوارد بالوثيقة يقل عن عدد دول العالم الإسلامى الخمس والخمسين دولة، باستثناء خمس عشرة دولة، إذ تعلن الوثيقة أن "الذين ارتكبوا أعمال الحرب تلك لم يتصرفوا من تلقاء أنفسهم، أو دون دعم من أحد، كما لم يفعلوا ذلك لأسباب غير معلومة؛ لقد كان هؤلاء الأفراد أعضاء فى شبكة متأسلمة دولية، تمارس نشاطها فيما يقرب

من أربعين دولة، وهى الشبكة المعروفة الآن فى العالم باسم "القاعدة"، وهذه الجماعة لا تشكل سوى أحد فروع أذرع حركة متأسلمة كبيرة راديكالية، ظلت تتنامى لعقود، وتحظى بقبول، بل بتأييد حكومات معنية". هكذا تبرر الوثيقة التى وَقَّعَهَا ستون مثقفًا أمريكيًا ما يسمى **"بالحرب العادلة"** ضد الإرهاب، وتحدد هدفها ومداها، ومساحة ميادين معاركها التى تصل إلى أربعين دولة!!

صحيح أن القيم الإنسانية والأخلاقية تبرأ من الذبح الجماعى لأناس أبرياء ولا تبرره، ولكنها أيضًا تبرأ ممن يتخلون عن مسئوليتهم الثقافية، ويتسمرون على عتبات التبريرات، ويغيبون ضمائرهم خانعين ويمارسون ازدواجية المعايير. أين كان هؤلاء المثقفون الأمريكيون الموقعون على وثيقة التبريرات الأمريكية، عندما وافقت الأمم المتحدة عام ١٩٨٧ على إصدار قرار حصيف بإدانة الإرهاب، وتمت الموافقة عليه بالإجماع، وامتنعت دولة **"هندوراس"** عن التصويت، فى حين وقفت الولايات المتحدة وإسرائيل ضد هذا القرار؟! لماذا لم يراجع

هؤلاء المثقفون الأمريكيون موقف حكومتهم من القرار بإصدار وثيقة تعلن موقفهم؟ أليس السبب، كما يقول المثقف والمفكر الأمريكي اليهودي **"نعوم تشومسكى"** لأن هذا القرار كان به فقرة تنص على أنه فى أيٍّ من تفاصيله لا يفتئت على حقوق أولئك الذين يكافحون ضد الحكومات العنصرية أو الاستعمارية، أو ضد احتلال عسكرى أجنبى بما يكفل لهم مواصلة مقاومتهم بدعم من حكومات أخرى فى قضيتهم العادلة! بالطبع لا يمكن للولايات المتحدة وإسرائيل أن تقبلا ذلك؛ أولاً: لتحالفهما مع نظام جنوب إفريقيا العنصرى، ثانيًا: لاحتلال إسرائيل العسكرى لأراضٍ عربية، ورفضها الخروج منها منذ عام ١٩٦٧، ثم أيضًا لاحتلالها جنوب لبنان، كل ذلك تحت مظلة الدعم الأمريكى الكامل.

ترى، ألم يدرك المثقفون الأمريكيون الموقعون علي الوثيقة، أن موقف حكومتهم من قرار الأمم المتحدة -وقتذاك- يعنى أمرين:

* عرقلة الجهود الدولية لمواجهة الإرهاب باستخدامها حق النقض (الفيتو).

* الدعم الكامل الأمريكى للعنصرية والاحتلال العسكرى؟!

ترى، ألم يدرك المثقفون الأمريكيون الموقعون على الوثيقة أن الأمرين معًا لا علاقة لهما بقيم التسامح والعدل والسلام والديمقراطية، وكل القيم الكونية التى يدافعون عنها فى وثيقتهم؟!

لكننا فى الحقيقة لا نُدهَش؛ فإن أحد الموقعين على الوثيقة "**صاموئيل هنتنجتون**" صاحب نظرية "**صدام الحضارات**"، التى تستبطنها الوثيقة، هو نفسه الذى كتب من قبل، مقالاً دافع فيه عن النظم الدكتاتورية في أمريكا اللاتينية إبّان تحالف واشنطن مع هذه الدكتاتوريات، وها هو اليوم علي الوثيقة يذرف دموعه حسرة على فقدان التسامح وغياب العدل والسلام والديمقراطية، ترى هل نصدق مثل الصياد دموع عينيه؟!!

إلى أين سيمضى العالم؟!

تكمن تراجيديا حياة "**ويللى ستارك**" فى ارتكازه الشديد على القوة المادية، إذ غذته هذه القوة بالتعالى والثقة والتفرد، وبوعى سقيم اختزل الدنيا كلها ومن فيها باعتبار كونها فريسة للسيطرة، فعطل هذا الوعى السقيم فهمه لذاته وللآخرين، فأدار الوجود من حوله معتمداً على قوته المادية، وامتلك إمكانات من الحرية مفتوحة على الآخرين سوغت له ممارسة الإرهاب عليهم والكبت والعنف والقمع، وأنتجت أفعاله قدراً من الفظائع والمظالم، فخاصمه الامتلاء الروحى، إذ افتقد فى ممارساته كل ما هو إنسانى، وأهدر كل ما هو نبيل، وصاحبه الخواء الروحى فى كل مساراته.

والمفارقة التى جسدت مأساته، وشكلت محنته، يتشابك حداها ويتناقضان، بل ينسخ أحدهما الآخر ويقصيه، فالحد الأول يتمثل

فى ثقته المطلقة فى ذاته، وتشبثه بقناعته الصارمة فى قدرته على السيطرة على الآخرين، والحد الثانى يعرى الحد الأول ويعاكسه ويفضحه، إذ يكشف أن **"ويللى ستارك"** لم يستطع يومًا أن يحجب أو يُرجئ أو يكبت أو يمتنع أو يسيطر على جموح ذاته.

لقد كانت سلطة **"صنع العالم"** عند **"ويللى ستارك"** ترتكز على تصنيفٍ يؤكد سيطرة القوة المادية، فتشكلت بذلك رؤيته للعالم وإدراكه لمعناه استناداً إلى رهان القوة. وعلى الجانب الآخر كان موازيًا لهذه السيطرة بالقوة المادية على الآخرين، حقيقة تكشف تناقضًا صارخًا، يتمثل فى ضعف **"ويللى ستارك"**، وعدم قدرته على السيطرة على جموح ذاته. وباشتداد ضغوط التناقض بين الجانبين، وصعوبة الإفلات من قبضة أيٍ منهما، غدا التصالح بينهما فى أعلى درجات الاستحالة، عندئذ تولد سؤال الرؤية التراجيدية فى صيغته العامة: ترى إلى أين -إذن- سيمضى العالم؟ والسؤال المستنزل على أحداث حياة وعالم **"ويللى ستارك"**، يحمل معنى الاتهام والإدانة، إذ يكشف عن عالمه الذى تتبدى فيه المعاناة نتيجة تكريس وجوده لمهمة الشطب الكامل لوجود

الآخرين، بالسيطرة عليهم بالقوة، فيصبح وجودهم إلحاقًا على وجوده، حيث يعانى وجوده -أساسًا- فشل السيطرة على جموح ذاته. ولا شك أن اجتياحه لوجود الآخرين، وانتهاكاته لحقوقهم بعماء، هو ما يشكل خلل هذا العالم، لذا فإن سؤال الرؤية التراجيدية يأتى اعتراضًا على امتدادات هذه السيطرة، كاشفًا عن المعاناة الإنسانية التى لا تمحو ذكراها من النفس أية نهاية، مستهدفًا تصحيح الارتباك الحاصل فى الضمير الإنسانى، بتعرية وفضح الاستبداد الأعمى والهيمنة.

إن سؤال الرؤية التراجيدية -عمومًا- بالغ الدلالة، وهو دائمًا ما يعبر عن صرخة التعاسة الإنسانية وهى تنادى الجواب المباشر كى يسترد عافيته، مهما تكن درجة الاستحالة التى يمكن أن يكون عليها العالم فى زمنه التاريخى والحضارى، إذ ينبثق السؤال من سياق بناء أحداثه، أيًا ما كانت صياغته، إلا أنه عند تفكيك تضميناته يسفر عن مسعاه الذى يطرحه: كيف يمكن أن نغير وجه العالم؟ فسؤال الرؤية التراجيدية يقف على أنقاض أحداث المعاناة، وعند بوابة عالم المستقبل، إذ جوهر التراجيديا أنها استبصار فى

المستقبل، استبصار يباعد عنا، ويمنع تخلينا عن المستقبل بإدراكنا الحكمة التى تولد من المعاناة.

تجلت شخصية **"ويللى ستارك"** مرتين، بذات أبعادها ومواصفاتها، فى عملين من إبداع كاتب واحد، هذا وإن اختلفت صيغة كل من العملين عن الأخرى، من حيث التصنيف الأدبى، إذ نشر الكاتب الأمريكى **"روبرت بن وارين"**، مسرحيته **"كبرياء الجسد"** عام ١٩٤٠، والتى تجلت فيها شخصية **"ويللى ستارك"** لأول مرة، ثم قام **"وارين"**، بنفسه بعد ذلك، بتحويل مسرحيته إلى رواية تحت اسم **"كل رجال الملك"**، حيث تجسدت فيها -أيضًا- شخصية **"ويللى ستارك"** للمرة الثانية، بذات تناقضاتها، وجملة منظوراتها، وممارسات مواقفها، فقد كان **"روبرت بن وارين"** مهمومًا بالكشف عن فخ القوة التى لا يستصحبها الامتلاء الروحى، إذ استوحى موضوعه من تأملاته لأحداث حياة **"هيوى لونج"**، الذى كان حاكمًا لولاية **"لويزيانا"** وتم اغتياله على سلم مجلس الولاية فى أعقاب إعلانه ترشيح نفسه لمنصب الرئاسة للولايات المتحدة، وجاء

اغتياله حصاداً لتوجهاته وممارساته الدكتاتورية التسلطية المهيمنة بالقوة على الآخرين. ومثلما تأمل وتدارس **"وارين"** أحداث حياة **"هيوى لونج"**، كانت أحداث الحادى عشر من سبتمبر، هى موضوع تأمل ودراسة مجموعة من المسرحيين فى منتدى بعنوان **"حول المسرح والتراجيديا وأحداث ١١سبتمبر"**، دعت إليه مجلة المسرح الأمريكية، شارك فيه عدد كبير من كبار المسرحيين من جامعات الولايات المتحدة، بالإضافة إلى بعض الشخصيات من ذات التخصص من جامعات المكسيك والقدس وألمانيا وأيرلندا، وذلك للتجاوب مع مفهوم التراجيديا فى سياق هذه الأحداث التى تغير وجه العالم، ولمخاطبة الوقائع التراجيدية التى يجب عليهم مواجهتها.

ترى هل يمكن أن يكشف هذا المنتدى عن ممارسات **"ويللى ستارك"** فى العالم بقوته المادية وخوائه الروحى؟ هل يمكن أن يعين ويحدد مسار مطارداته وطرده لكل القيم الإنسانية ليفرض وجوده وسيطرته بالقوة المادية؟ بمعنى، هل يمكن أن يكشف هذا المنتدى عن معاناة تراجيدية بين الثقافة كامتلاء روحى، وبين السياسة المتحالفة مع الخواء الروحي والاجتياح بالقوة المادية؟ ولأن

هذا المنتدى يغاير ويخالف وثيقة التبريرات الأمريكية التى وقعها ستون مثقفًا أمريكيًا، بداية من ناحية الشكل على الأقل، إذ وقع كل مشارك فى المنتدى على مداخلته التى تحمل وجهة نظره، ولم يوقع على بيان أعده غيره، لذا فإن الأسئلة التى نطرحها تحاصرها إجابات متعددة.

ونتصفح وثائق هذا المنتدى التى تضم ستًا وعشرين مداخلة موقعة من أصحابها، فتباغتنا "**أونا تشودرى**" من جامعة نيويورك، حيث تؤكد "**أن الوهم المتغطرس بالسيادة المجردة والبعيدة والمرئية، هو أهم عنصر فى التراجيديا التى ألمت بالبرجين، وآمل أن نكون قد خرجنا بعبرة وعظة من سقوط البرجين سقوطًا عنيفًا، وهى عبرة وعظة تعرف فى التراجيديا الكلاسيكية بمبدأ سقوط العظماء**". بالطبع أصابت "**أونا تشودرى**" فى رصدها الذى يحمل -على المجاز- معنى أن "**ويللى ستارك**" بثقته المطلقة بقوته وبغطرسته وتعاليه وسيطرته، كان أهم عنصر فى صنع الحدث التراجيدى، وأصابت كذلك فى توقفها أمام "**مبدأ السقوط**"، فلم تروج لامتدادات واحتدامات وإجراءات ومواجهات لصنع نهاية لما

بعد الحدث التراجيدى، إذ إن سقوط البرجين هو قمة المعاناة، ومن فوق أنقاضهما انطرح سؤال الرؤية التراجيدية: ترى إلى أين سيمضى العالم من قلب هذه الأحداث؟ فشرط التراجيديا ليس نهايتها؛ وإنما شرطها الصحيح هو مساحة وقدر وكثافة المعاناة التى تعرضها، وتبلغ حداً من الزخم والحدة، حتى إنه ما من نهاية يمكن أن تمحو انطباع هذه المعاناة الهائلة من الأذهان، فإذا ما تساءلنا: ترى هل يمكن أن يُمْحَى حدث البرجين من الذاكرة؟ فلا يمكن أن تكون الإجابة أن قتل **"بن لادن"** و**"الملا عمر"** وغيرهما يساوى، أو باستطاعته أن يرفع المعاناة التراجيدية التى تشقى باستمرارها المرعب الذاكرة، فعلى القياس لا يمكن أن يمحو فقأ **"أوديب"** لعينيه معاناة الفعل التراجيدى، بقتله لأبيه ومضاجعته لأمه!! إن تعظيم تأثيم الخطأ التراجيدى يعنى أنه لا يعدله عقاب، إذ ما ينتج منه من معاناة هائلة، وعذابات مذهلة لا يبررها قصاص، ولا تلغيها أية أحكام. ولأن التراجيديا تبنى أفعالها وأحداثها على استحالة المراجعة، ولا تعرف المصالحة، وأيضًا لا تقبل المساومة، وذلك لأن قيمتها أنها محنة نستبصر من خلالها

المستقبل بقدر إدراكنا للحكمة من معايشة أحداثها، لذا فإن **"أونا تشودرى"** على حق حين أعلنت عن أملها فى إدراك العظمة والحكمة من معاناة **"السقوط"**، وذلك دفعًا لمستوى الوعى، ليمتلك فى المستقبل أدوات القطيعة الحقيقية مع العماء.

أما **"ديانا تيلور"** فإنها فى مداخلتها تحاول القبض على الواقع، بإعادة ترتيب الأحداث على نحو يتيح فهم ما لم يفهم، فتتخذ من البناء التقليدى للتراجيديا إطاراً لهذا الترتيب، من حيث البداية والوسط والنهاية، فالبداية للحدث التراجيدى – كما ترى **"ديانا تيلور"**– ليست على النحو الذى بدأ به الحدث، فهى تتساءل: **"هل يبدأ الحدث التراجيدى –حقًا– من الحادى عشر من سبتمبر؟ قد يقول بعضهم إنه تم اختطافنا قبل وقت طويل من ذلك التاريخ، ربما مع بداية الخريف السابق عليه، عندما خرجت الانتخابات عن مسارها الطبيعى"**. إن **"ديانا تيلور"** تحفر لتقرأ وقائع وممارسات أحداث مفتوحة وصارخة على خارطة المجتمع الأمريكى، تراها على صلة بامتدادات الحدث التراجيدية، كإشارتها إلى الخلخلة التى أحدثتها

الممارسة السياسية لمصداقية إجراءات فحص بطاقات الانتخابات الأمريكية لمنصب الرئاسة. ومن الواضح أن "**ديانا تيلور**" ترتكز في بنائها للأحداث على الكشف عن ممارسات مشخصة في المجتمع الأمريكي، تستجيب لما يعرف في بناء التراجيديا بالاعتداء الجائر أو الانتهاك أو الاغتصاب لحقوق الآخرين، والذي يشكل أحد عناصر المعاناة. وتتوالد إشارات "**ديانا تيلور**" لإخفاقات ممارسات في المجتمع الأمريكي تعريها في امتداداتها ماضيًا وحاضراً، "**فالبنود المهمة على الأجندة الوطنية، مثل تحسين التعليم وغيره، قد تبخرت، والضحايا ظلوا دون حصر، مع أنه تم التعرف عليهم، وسوف يزداد الضحايا عدداً كل يوم مع صدور تشريعات مناهضة للإرهاب والعواطف المعادية للمهاجرين، وقد يوضح آخرون أننا كنا في طريقنا إلى صدام حتمي منذ عقود مع الدول الإسلامية المنتجة للنفط، هل المواطن المدني من بين الضحايا المستهدفين؟**".
فـ"**ديانا تيلور**" في رصدها تعترف -على المجاز- باستمرار، وامتداد سلوك "**ويللي ستارك**" الذي يغلف كل هذه الممارسات،

والتى يغيب عنها مفهوم حقوق الآخرين، وتفتقد القيم الإنسانية، ومعنى حياة الناس وموتهم على السواء، ولا شك أنها تحدد هذه الممارسات التى تختزل الحق لإنارة تشابكية المعاناة. بل تكاد تتفق "**ديانا تيلور**" مع "**أونا تشودرى**" فى أن فهم العظة، وإدراك الحكمة لن يأتيا من "**النهاية**"؛ وإنما من فعل "**السقوط ذاته**"، إذ تؤكد "**ديانا تيلور**" أنه "**بالنسبة إلى النهاية، يبدو أن لا شيء مؤكد، إلا أن النهاية لن تكون سريعة، ولا معنى لها، ولن تطهرنا**". لكنها فى سياق رفضها تطرح بديلاً يخالف حتى عنوان المنتدى الذى تتم فى إطاره المناقشات، إذ ترى: "**ربما كانت اللغة العربية، لا التراجيديا، هى اللغة التى نحن فى حاجة إلى فهمها، حتى نفهم القضايا والمخاطر**". وبهذا المعنى فإن "**ديانا تيلور**" ترفض مبدأ الصدام الحضارى، وتؤيد فكرة الحوار الحضارى، فدعوتها إلى ضرورة فهم اللغة العربية تعنى محاولة فهم حصيلة ما يمارسه أو يتداوله أو ينتجه أو يفعله أصحاب هذه اللغة، أى حصيلة مفاهيمهم ومناهجهم ووسائلهم وعلاقاتهم بقيمهم، أى فك

الحصار عن مساحات الفهم والاستيعاب، ورفض الإقصاء، وتغذية الخلافات. إنها دعوة إلى التواصل والتداول، تتطلب الاعتراف بحقوق الآخرين دون الاعتداء الجائر بالقوة المادية استهدافًا إلى الاستتباع، إنها دعوة تتطلب رحيل نموذج **"ويللى ستارك"** بوعيه السقيم، الذى يختزل العالم كله ومن فيه على أنه فريسه للقهر والسيطرة، وبأن السيطرة والاستتباع هما آلية إدارة الوجود، عندئذ لن تكون ثمة حاجة لسؤال الرؤية التراجيدية: ترى إلى أين سيمضى العالم فى ظل هذا الوعى السقيم؟!!

المسرحيون الأمريكيون واستعادة الحرية

قال "**بن**" شقيق "**ويللى لومان**" لابن أخيه "**بيف**" : "**هيا، جرب أن تلاكمنى. هذا بطنى. اضرب بأقصى قوة**"، وعندما اعتذر الفتى "**بيف**" خجلاً من ضرب عمه، أمره أبوه "**ويللى لومان**" أن يلاكم عمه، وفور أن تأهب "**بيف**" للملاكمة، سرعان ما وجد نفسه طريحًا على الأرض إثر ضربات عمه القوية، وكانت تلك هى ساحة المران التى أراد العم "**بن**" أن يؤسس عليها رسالته لابن أخيه: "**هذا درس لك يابنى، لا تكن رياضيًا أبداً، ولطيفًا مع الغريب، وإلا لما خرجت قط من غابة الحياة**".
وإذا كان لهذا الكلام من معنى، فإنه يطرح مفهومًا للحياة يتأسس على الاستباحة ونفى الآخر بالعنف والقوة، ولا يتحقق هذا النفى إلا عند استكمال شرطه، وآليته هى شرطه، إذ القوة تفرض صاحبها على الآخر، وتمكنه من أن يحصل منه على ما يتصور أنه استحقاقه. وإلا

شك أن هذا المفهوم للحياة يكرس لاستبداد غرائز الهيمنة بالإنسانية، ويخلع على الحياة معنى الغابة، فيصبح فيها الأقدر والأحق هو الأقوى، ويسود عنف القوة كآلية لممارسة الفرد لوجوده، وكحارس لكل انتهاكاته فى غابة، مناخ علاقات سكانها يفرض الاستباحة التى تحسم وتنفى كل ما عداها. إنه ذات المفهوم الذى سمعه **"ويللى لومان"** من أبيه منذ أعوام عديدة، وأيضًا هو ذات المفهوم الذى يمارسه العم **"بن"** عندما دخل غابة الحياة وهو فى السابعة عشرة من عمره خاوى الوفاض، وخرج منها فى الحادية والعشرين وقد صار غنيًا، وذاك ما يهيمن على **"ويللى لومان"**، ويسعى ويحلم أن يتعلمه ولداه **"تلك هى بالضبط الروح التى أريد أن أشربهما إياها، أن يمشيا فى الغابة. كنت محقًا "يابن". كنت محقًا. كنت محقًا"**.

هذا التفكير المهيمن على **"ويللى لومان"**، والذى يطمح إلى تحقيقه، ويشكل هاجسًا مسيطراً، ويتخذ طابع اليقين والثبوت، قد فرض عليه من قبل المجتمع، كأنه تفكير موروث، يتناقل من جيل إلى جيل عن آلية النجاح فى الحياة، والتى تتأسس على علاقة منتجة للقوة، وتمارس بمنطق العنف،

وفى ظلها تتغير خارطة وجود الفرد. ومأزق **"ويللى لومان"** أنه فشل فى أن يكون مثل أخيه **"بن"**، إذ تراجعت كل محاولاته، وأصبح مهزومًا فى ظل قناعاته ويقينه، فهو لا يفهم قوى الحياة، ولا يملك حسًا بالقيم التى توصله إلى ذلك الفهم، لذا فهو يدور منحشراً فى زنزانة أسره يحاصره فشله، ويحاصره أيضًا **"بن"** بنجاحه، ويحاصره كذلك المفهوم المهيمن الذى جعله لا يدرك إمكانات التحسس بوجود مساحات أخرى خارج زنزانة أسره، فتعطلت فعالية فكره، وبدده عدم نضجه الإنسانى، فأصبح **"ويللى لومان"** فاشلاً محترفًا، لكن فشله استدرجه صوب التحدى بفرض هيمنة مفهومه عن الحياة على ولديه، فراح يعذبهما بحلمه المجهض، انفكاكًا من فشله الخانق، ساعيًا، ضاغطًا أن يصبحا النموذج الذى فشل فى أن يكونه، ويعانى افتقاده. ولأنه صار متكلسًا على مفهومه المهيمن والذى أصبح أسيره، عاند فشله بمصادرة حرية ولديه فى أن يكونا ما ينشدانه، فارضًا عليهما حدهما الإنسانى الذى يراه ولا يرى غيره، محتكراً هويتيهما، مستنهضًا فهميهما للنجاح

لإنجاز مستقبليهما وفق مفهومه، وتحددت مساحة محنته ومعاناته بين ستار يُسدل على فشله فى تحقيق نجاحه، وستار يُرفع أملاً فى أن يحقق ولداه ذلك النجاح، والمسافة بينهما تجسد تراجيديا حياته، ودماره الانفعالى والروحى، والتى انتهت بخسارته العظمى، إذ عندما ازدراه ولداه لهيمنته، وثار الابن الأكبر "**بيف**" معلنًا رفضه لذلك المستقبل الإكراهى، مؤكداً حقه فى استعاده حريته فى ممارسة حياته، كان ذلك هو الدافع لانتحاره، إذ برغم النجاح الذى يصدح به العم "**بن**" نتيجة ممارسته لذات المفهوم المهيمن، والذى وفر له العيش فى غابة الحياة بمأمن، جاءت ثورة "**بيف**"، وموقفه المعلن بالرفض لخيار أبيه وعمه، وليبحث لنفسه عن موقع بخيار يفضله هو نفسه، غير عابئ بنجاح عمه، أو فشل أبيه، وكأنه بذلك قد طرح أمام "**ويللى لومان**" لحظة التعرف، لحظة الاستضاءة التى تكشف عن حل للمعضلة الأولى التى واجهته منذ مطلع عمره، وكانت سببًا فى معاناته، ولم يستطع لها حلاً فى مواجهة جبروت هيمنة مفهومه المطلق عن الحياة، فكان موقف "**بيف**" هو

المجهر الذى وسع دائرة الإبصار بطرحه حقه فى ألا يقيد، وتخطيه المعضلة بإرادة استعادة حريته، واستعادة الحرية ممارسة استكشافية لم يقوَ عليها **"ويللى لومان"**، وهى سبب عذاباته، إذ لا يتم اكتساب استعادة الحرية أبداً إلا بالسعى إليها، ويفوز بها الإنسان بقوام استقلاله، ورهانها الأكبر ألا يتعلق مصير الإنسان على كل ما ليس إنسانيًا، بمواجهة كل ما يعطل أهم ما اكتسبه الإنسان، أى قدرته على التفكير والتبصر، فعماء **"ويللى لومان"**، وانغلاق رؤيته للحياة، كانا سبب محنته ووجوده المعذب، حيث لم يقوَ على السعى إلى استعاده حريته، وراح يتجبر بحرمان ولديه من استعادتهما لتلك الحرية، وانتحاره هو قمة التراجيديا، حين تعرف واكتشف عماءه وعدم نضجه برغم السنوات الطويلة من عمره، حيث تجسد خطؤه فى أنه لم يعبر عتبة بوابة حريته، وأضاع حياته سدى، فاستحق المعاناة من جراء فشله واعتدائه الجائر على ذاته، وعلى ذاتيْ ولديه، وأصبح وجوده لا يساوى ولا يتجاوز قدر معرفته، أى قدر خطئه.

هكذا بنى الكاتب الأمريكى "**أرثر ميللر**" فى مسرحيته "**وفاة بائع جوال**" عام ١٩٥٧، مأساة "**ويللى لومان**" كبطل مهزوم سلفًا بمصيره المغدور بفعل ذاته قبل الآخرين، وبانخذاله عن مقاومة الضغوط التى تكرس لفقدان الحرية، وتدمر العلاقات الإنسانية وتشوهها، حين تحيل الحياة إلى موضوع عنف مضاعف بلا حدود، ودون تمييز بين أن يكون المرء حراً فى ذاته، وألا يكون حراً إلا فى سلب حريات الآخرين، أو استعارتهم، أو مصادرتهم إراديًا أو قسريًا، فمأساة "**ويللى لومان**" أنه أغلق دون ذاته بوابة استعادة الحرية، لذا فإن سؤال الرؤية التراجيدية هو: ترى، هل ينجح "**ويللى لومان**" فى الوثوب خارج زنزانة مفهومه المهيمن لاستعادة حريته؟

وانبثق معنى ذات السؤال مجدداً كمحاولة لفهم ما يحدث فى العالم، وذلك فى وثائق المنتدى الذى دعت إليه مجلة المسرح الأمريكية، تحت عنوان "**حول المسرح والتراجيديا وأحداث الحادى عشر من سبتمبر**"، فجاءت مداخلة "**إليشيا أريزون**"، من جامعة كاليفورنيا، لترصد وتحلل أحداث الفاجعة

وتداعياتها، فتلتقط من المعاناة "الحكمة" التي تقود السعي إلى "استعادة الحرية"، والتي شرطها الأول ألا يمارس المرء ما يجعل مصيره يتعلق على كل ما ليس إنسانيًا، فتكشف المداخلة عن العماء وانغلاق الرؤية، إذ عندما "استعدت أمريكا لمحاربة الإرهاب في كل دول العالم، من خلال عملية أطلقت عليها اسم "استعادة الحرية" زاد الإرهاب الداخلي، فأثر في جميع من بدوا مثل "الإرهابيين"، حتى أبناء أمريكا اللاتينية، الذين يبدون مثل العرب، أصبحوا أهدافًا للممارسات العنصرية والعنف في كاليفورنيا، وقد تمخض الإحساس بالرعب عن إحساس بالتراجيديا، وأصبح واضحًا -على الفور- أن "استعادة الحرية" قصد بها بعضهم لا الجميع، ومن الممكن أن يتلاشى الإحساس بالتراجيديا فقط إذا حاربنا -نحن كأمة- التحيز والعنصرية والظلم الداخلي، يجب أن تكون الحرية مظلة لكل الأمريكيين. وكي نفعل ذلك، فإن على الولايات المتحدة أن تحارب لا مبالاتها هي، وعدم إحساسها بالآخرين، فمثلاً عندما قاطعت الولايات المتحدة مؤتمر الأمم المتحدة ضد

العنصرية فى جنوب إفريقيا، **أظهرت لبقية دول العالم عدم اهتمامها بإمكانية التغيير والحوار**". وما تطرحه مداخلة "**إليشيا أريزون**" يكاد يشابه مأساة "**ويللى لومان**" فى حصاره الذى سَبَّبَ عماءه، فهى تكشف أن الولايات المتحدة حاصرها الإهمال السياسى والأخلاقى، فحاصرت هى بدورها ساحات الحرية، فكانت القطيعة التى فصلتها عن التواصل الحقيقى مع العالم، حين مارست التعسف، وصارت لا تستوعب سوى مفهومها المهيمن، والذى يكرس للانغلاق، والعماء، ونفى الآخر. وخلاصها من معاناتها التراجيدية يتأسس على قدرة العقل السياسى الأمريكى على الوثوب، وانفتاح رؤيته للعالم، عبر إنتاج أساليب التعامل بمنطق الحوار، وليس بمنطق الاستلاب والتجاهل والقوة. ومثلما التقطت مداخلة "**إليشيا أريزون**"، الحكمة من المعاناة بالكشف عن العماء والانغلاق، وطالبت بضرورة أن تحارب الولايات المتحدة لا مبالاتها، وعدم إحساسها بالآخرين، فإن "**و.ب.ورثن**"، من جامعة كاليفورنيا، يجيب عن سؤال الرؤية التراجيدية بإمكانية الوثوب خارج زنزانة المفهوم المهيمن فى السياسة الأمريكية -قياسًا على

موقف "ويللي لومان" حال انغلاقه عندما هزته ثورة "بيف"، فأضاءت له ذاته، وتعرّف خطأه -فيؤكد "و.ب.ورثن" أن الوثوب يتطلب السعى "للتعرف على ذواتنا من خلال التراجيديا، إذ تبدو بعض الحقائق مثل الأكاذيب، وشهيتنا للانغلاق قد تجعل الأكاذيب الجذابة تبدو مثل الحقيقة أيضًا. إن هذا الاعتراف يستوجب علينا فحص مكاننا ووسائلنا التى أسهمت فى وقوع الحدث. إننا -حقًا- نعلم الكثير عن أنفسنا من خلال الانعكاسات الغريبة لذلك اليوم، فقد تم ضرب رجال ونساء وأطفال فى الشرق الأوسط، وبُصِقَ عليهم، وطُرِدوا من الطائرات، وقُتِلوا، وأُغلقت المدارس، وجرى الاعتداء على أماكن إسلامية للعبادة، ورأينا أعمالاً بطولية فردية، وتضحيات وتبرعات بالدم خففت من آلام الثكالى، وكان هناك أيضًا بحث عن المذنبين. إن الاكتئاب الذى أصاب الناس بعيداً عن نيويورك وواشنطن له معنى أيضًا. واليوم تبدو هذه الأحداث مرعبة، لكن التفكير فى الأمر على أنه تراجيديا يجبرنا على التساؤل عن دورنا فى هذا المشهد".

إن المداخلتين تتفقان على الربط بين المعاناة التى سببتها أحداث سبتمبر، وبين أفعال ومواقف السياسة الأمريكية، فالمعاناة من جراء الكارثة، إنما هى نتيجة مباشرة لأسباب ما، فهذا الصدام التراجيدى الذى تم بفعل قوى لا يمكن فهمها بصورة كاملة، وتلك المعاناة التراجيدية التى لا يمكن التغلب عليها، وتستعصى على الإصلاح، إنما يطرحان -بالضرورة- موقف الكشف والتعرف، لإضاءة تلك اللحظة الملتبسة فى مسيرة بلد يقود العالم فيؤخذ غدراً وهو فى قمة قوته. وتأتى مداخلة **"هارى إيلام"**، من جامعة **"ستانفورد"**، لتكشف بعداً آخر من تداعيات ما بعد أحداث سبتمبر من إجراءات سياسية، فيرى **"أن السياسة تخاطر بإفراز وتوليد جو من الاستبداد الأمريكى المطلق، لأنها تستخدم اللونين الأبيض والأسود، ولا مكان للون الرمادى. هناك تهديد باسم الأمن القومى للحريات التى حصلنا عليها. والأمريكيون العرب، أو أولئك الذين يبدو على ملامحهم أنهم قادمون من الشرق الأوسط، يخافون على حياتهم، ويعانون العنف العنصرى. إن ما تفعله أمريكا -الآن-**

يشبه، بل يماثل سياسة الفصل العنصرى، التى انتهت فى جنوب إفريقيا ، إنها تفاخر بأنها بلد الإجراءات الأمنية، وتعيد النظر فى بطاقات الهوية القومية. ومع أننا نقذف أفغانستان بالقنابل والصواريخ فى حملة سموها -فى البداية- "العدالة المطلقة"، كى تستعيد أمريكا -رمزيًا- قدرتها المفقودة، فإن كل قنبلة جديدة تساوى فقدان الرأى العالمى، خاصة عندما تضرب القنابل -بشكل متكرر- مبانى الصليب الأحمر فى أفغانستان. إننا كمشاهدين للتراجيديا ، وكباحثين، وكمواطنين، فى حاجة إلى النظر داخل التراجيديا ، ليس فقط لنرى أنفسنا فى الخوف والضياع، ولكن لنرى قدرة الروح الإنسانية على تجاوز الموقف والتسامى عليه. إننا نتعلم من طرح أسئلة لم يتم طرحها من قبل، ولا شك فى أننا قد تأثرنا وتغيرنا ، لكن هل من الممكن أن نكون أفضل؟ هذا هو السؤال الذى يطرح نفسه من تحت الأنقاض".

إن "**هارى إيلام**" يطرح فى مداخلته معنى التعامل مع الحدث التراجيدى، بوصفه "**محنة**" تبلغ فيها المعاناة الإنسانية حداً صارخًا ، لكنها تكشف عن قصد مدرك هو "**التعرف**"؛ بمعنى

السعى إلى فهم غموض مستغلق، يتطلب البحث عن الأسباب يطرح أسئلة تشع إجاباتها استضاءة للغامض والمستغلق، فتقود إلى **"التحول"**. والمعيار كيف احتملت الروح الإنسانية تلك **"المحنة"**، واجتازتها، واستوعبت **"الحكمة"**، لتصنع مستقبل ما بعد **"المحنة"** بوعى **"الاستنارة"** الكاشفة للعماء، لذا فإن **"هارى إيلام"** يؤكد ضرورة تجاوز **"المحنة"**، والتسامى عليها، فجاء سؤاله -وفقًا لمبدأ التراجيديا، أى فى لحظة السقوط- من تحت الأنقاض، سؤالاً يتسم بالتفكير النقدى، يعكس استخلاص **"الحكمة"**. ترى، هل يقبل العقل السياسى الأمريكى وصناع القرار ما يطرحه **"هارى إيلام"** وغيره لمواجهة أسباب **"المحنة"** لاستعادة الحرية بالوثوب خارج دائرة المفهوم المهيمن، مفهوم العم **"بن"** الذى يرى الحياة غابة قانونها هو الاستباحة ونفى الآخر، وفيها الأقدر والأحق هو الأقوى؟!! هل يدرك العقل السياسى الأمريكى أن **"استعادة الحرية"** شرطها الأول ألا يمارس المرء ما يجعل مصيره يتعلق على كل ما ليس إنسانيًا ؟!!

رحلة أمريكية فى جوف الليل!

تايرون: انسى الماضى يا مارى!

مــارى: لماذا؟ كيف أستطيع؟ إن الماضى هو الحاضر، أليس كذلك؟ وهو المستقبل أيضًا، نحن جميعًا نحاول أن نهرب من ذلك بالكذب، إلا أن الحياة لا تسمح لنا.

إن أسرة **"تايرون"** التى تتكون من الزوجة **"مارى"**، والابن الأكبر **"جيمى"**، والابن الأصغر **"إدموند"**، دمرت حياتها لعنة متمادية حلت بالشخصيات الأربع فشكلت تراجيديا أيامها، التى سكنها البؤس والتوتر والأوهام والآمال الخائبة. ولم يكن مصدر هذه اللعنة مصدراً غيبيًا عصيًا على كل الأسئلة، كما فى التراجيديا اليونانية؛ بل كان مصدرها الزوج **"تايرون"**، الذى استعمره رعب مجمد بذاكرته، لم يستطع تجاوزه، فولد

حياة تداهمها حالة ازدواج دائمة وطاغية، يسيرها ويدفعها فقدان الثقة، إذ أصابه عماء وحد بين ماضيه وحاضره، وأصبحت حياته مزدوجة ذات خطين متوازين برغم تناقضهما، فهو وإن كان واقعه يشهد أنه جمع أموالاً طائلة، إلا أنه ما زال يعتصم بالاستحواذ والامتلاك، مستثمراً -بلا حدود- كل ما يملكه دون الرغبة فى أن ينفق شيئًا إشباعًا للاحتياجات الحيوية له ولأسرته، فالرعب المجمد بذاكرته، والذى يرتبط بنشأته التى افترسه فيها الفقر والعوز، ما فتئ يفتح بوابة مستودع فواجع حياته الماضية، ويعكس بمرايا مقعرة صور معاناته السابقة، حتى أصبح يقينه وكأن هذا التاريخ من عمره لم ينته، فحجب هذا الإحساس واقعه، وصار ماضيه توءم حاضره، واعتصره التحدى المستحيل بين ماضيه ونقيضه، أى واقعه، ولم يستطع أن يضع حداً لحياة الازدواج تلك ليتحرر من الرعب المجمد فى الذاكرة، فقد ضلله عماؤه عن طرح الأسئلة التى تفتح الأبواب المؤصدة، فتلقى مساحة ضوء تحقق الاستنارة التى تتحرره من أوهامه المسيطرة، عندئذ تسيده ماضيه، بكل فواجعه، ملتبسًا مع حاضره، فحرمه الاستمتاع بواقعه هو وأسرته، والذى يشهد

بوفرة أمواله الطائلة، وممتلكاته الشاسعة، فأصبح يمتلك أموالاً لا وظيفة لها سوى التوالد بلا نهاية، وبلا حد تبلغه، وفى ذات الوقت تنكمش هذه الأموال عن أن تُنْفَق أو تُوظَف فيما هو ضرورى، ويتطلبه حاضر أسرته، فهول ماضيه أفقده الطمأنينة، واستحضر له خوفًا لا حد له، امتنع معه إمكان طرح السؤال: ماذا ينبغى أن يفعل بكنوزه وأمواله الطائلة؟ لم يخترق السؤال حصار خوفه غير المبرر فى إطار واقعه، فالسؤال المفروض طرحه كان سيزيح حالة الازدواج، ويكسبه حاضراً بديلاً لماضيه الذى انتهى. لكن لأن منطقة الالتباس بين الماضى والحاضر مجمدة وثابتة، لم يستطع **"تايرون"** أن يتحرر؛ بل عجز عن أن ينفصل عن ماضيه، ويعايش زمانه وواقعه، فعذبته أمواله، إذ أصبح لاهثًا مرتحلاً وراء جمعها، وكيفية توالدها، وتكاثرها، والحفاظ عليها، وافتقد كل كفاءة فى ممارسة أية عواطف إنسانية، فاعتلت مشاعره تجاه الآخرين، وتلك كانت هزيمته، والتى غشت أسرته بليلٍ حالكٍ طويلٍ حين ضن على أفراد أسرته بكل ما ينبغى لهم فى حياة جديرة بهم، تسمح بها أمواله الطائلة، فمات طفله لغياب رعايته، ومرضت زوجته فاستحضر لها

طبيبًا غير كفء كان معيار اختياره له أنه لا يكلفه أموالاً، فراح الطبيب يحقنها بالمورفين المخدر بجرعات غير محسوبة حتى أدمنته، وفقدت سيطرتها على حياتها. وبذات المنطق ترك ابنه "**إدموند**" من دون رعاية طبية مستوجبة حتى لا ينفق ما ينتقص من رصيده، فأصيب الابن بذات الرئة. أما ابنه الأكبر "**جيمي**" ، فقد حوّله سلوك أبيه إلى عدو له، وزلزلت كيانه صورة أمه المدمنة، ففقد الثقة فى كل شىء، واندحر، وتهتك، وتداعى، وفشل، وتشرد، وأصيبت الأسرة جميعها بكل أنواع الإدمان والعقوق، وأصبح أفرادها ضحايا لا مستقبل ولا حاضر لهم، و"**تايرون**" ما زال لا يؤمن سوى بقيمة واحدة؛ وهى أن يكسب حتى وإن أصبح قاتلاً لأسرته. ثم يطلب هذا "**القاتل**" من زوجته نسيان الماضى، وهو مطلب كاذب منه، وهو غير قادر عليه، ويجسد صورة الأزمة، وسبب الابتلاء والفاجعة، لذا جاء اعتراف "**مارى**" زوجته، والذى أدلت به إليه حول الأهمية الصريحة للماضى بوصفه خاصية مغروسة فى علاقات هذه الأسرة تحديداً، والذى دمر علاقاتها باعتباره سببا وعلة لجميع

ما واجهته من فواجع مؤلمة تلتصق وتستبد بعلاقات الأسرة فى حاضرها ومستقبلها. هذه المسرحية الرائعة للكاتب الأمريكى **"يوجين أونيل"**، والتى تحمل عنوان **"رحلة النهار الطويل فى جوف الليل"**، جوهرها هو الكشف عن العلاقة الوظيفية بين الوعى والعلاقات الإنسانية، فصياغة المسرحية تضىء، بمقتضى بناء الأحداث، أن الوعى الإنسانى هو الذى يصنع العلاقات الإنسانية، وليست العلاقات هى صانعة الوعى. فالمحن والفواجع التى عصفت بعلاقات الأسرة كلها انطلقت من علاقة **"تايرون"** الأب بأسرته، نتيجة عمائه، وافتقاده الوعى. لذا، فإن سؤال الرؤية التراجيدية المطروح هو: ترى، هل يمكن أن يعى ويدرك **"تايرون"** أنه هو نفسه السبب فى فاجعة أسرته لعمائه؟ هل يستطيع أن يمتلك مسافة التنفس فى مواجهة رعبه المجمد فى ذاكرته، فيقوى على المراجعة لينجو بنفسه، وتنجو معه أسرته من فخ رعبه الذى يحاصره محتكراً حاضر ومستقبل علاقاته بأسرته، لحساب وهم ليس له رصيد فى واقعه، فيعدل من سلوكه ليسترد عافيته، ويبرأ من اعتلال مشاعره تجاه الآخرين؟

إن المعاناة التراجيدية لـ "**تايرون**" وأسرته لم تأتِ مصادفة، والبحث عن الأسباب رهانه الوعى والمراجعة، وهو ذات ما طرحته مداخلة "**إيلين دايموند**"، من جامعة "**روتجرز**"، فى منتدى المسرحيين الأمريكيين "**حول المسرح والتراجيديا وأحداث الحادى عشر من سبتمبر**"، إذ تحذر المداخلة من عدم القدرة على التساؤل عن مسببات المعاناة التراجيدية أو نتائجها فى أحداث سبتمبر، لذا فإن مداخلتها تربط بين الوعى المعرفى والوعى الثقافى المنصف للقيم الإنسانية. وفى بحثها عن الأسباب، تميط اللثام عن الماضى لتتبع "**أحد خيوط القصة إذ إن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية انضمت إلى قوات جهاز المخابرات الباكستانى لشن "حرب مقدسة" ضد الاتحاد السوفيتى بعد غزو أفغانستان عام ١٩٧٩ . وباسم زعزعة الاستقرار فى صفوف عدونا خلال الحرب الباردة دعمنا باكستان في تدريبها وتسليحها وتمويلها لجنود حركة طالبان. وبوضع الوجه الأمريكى فى العولمة أثرنا الغضب والحنق المتطرف في واحدة من أفقر مناطق العالم، و-بعبارة بسيطة- ساعدنا على خلق ظروف للرعب أدت إلى ذبح ما يزيد على خمسة آلاف من أبنائنا**

وإخواننا وآباتنا يوم الحادى عشر من سبتمبر، والآن تقوم قواتنا العسكرية بنشر الخراب فى أفغانستان، مع أن المقصود ليس هو الشعب الأفغاني، الذى تضور خمسة ملايين منه جوعًا، وهرب الشعب من قنابلنا إلى الحدود المغلقة. هل سيسعدهم أكثر الموت من قنبلة أمريكية طائشة عن أن يموتوا برصاصة طالبانية؟ باسم هزيمة الإرهاب، ألم نخلق مزيداً من الرعب، ومزيداً من حلقات الانتقام؟"

وإذا كانت "**إيلين دايموند**" قد حفرت في مداخلتها معرفيًا، بحثًا عن الأسباب لتزيح الغموض عن الحدث، وهو ما يعد -بالتأكيد- ضرورة استحقاق للوعى المعرفى، فإنها كشفت بذلك عن عماء السياسة الأمريكية التى صنعت بنفسها محنتها ومعاناتها المفزعة، إذ باستخدامها الأفغان كمطايا فى معركتها المقنعة للحرب بالوكالة ضد الاتحاد السوفيتى أيام الحرب الباردة، وضد بعض القوى بالمنطقة، قد مارست -عندئذ- تصنيع اللعنة التى تلاحقها وتستبد بها، فبدت -تمامًا- مثل الأب "**تايرون**" قاتل أسرته، والذى كان مصدر اللعنة،

وصانع الفواجع المؤسية بعمائه. والفارق بينهما أن **"تايرون"** لم ينفق سنتًا واحداً، في حين أن المخابرات المركزية الأمريكية قد دفعت لدعم المجاهدين في أفغانستان ٣,٢ مليار دولار، وهو ما يعد -تاريخيًا- أكبر تكلفة لإحدى عملياتها السرية، أنفقتها لتجهيز وتدريب ميليشيات وفصائل المجاهدين في أفغانستان، بل استمرت في دعمهم، خرقًا لاتفاقية جنيف عام ١٩٨٨ التي أقر فيها الاتحاد السوفيتي الانسحاب من أفغانستان بشرط أن يكف الغرب وباكستان عن تسليح المجاهدين، فاستحدثت الولايات المتحدة -بذلك- ودعمت كيانات غير نظامية وسائبة راحت تدير فوضى من المعارك انتهت عام ١٩٩٦ بانتصار **"حركة طالبان"**، وهو ما فتح الباب، ورسخ لظهور الكيان المتأسلم فوق القومي، الذي أصبح نموذجًا للعنف المنفلت، يتمطى طليقًا ناشراً ثقافة العنف، ممارسًا ومصدراً للإرهاب إلى دول المنطقة وغيرها، مجهزاً بأسلحة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية من مصنعها الذي أقامته في بلدة (دراً) شمال غربي باكستان، والتي كانت مركزاً لتوزيع الأسلحة على كل الفصائل والميليشيات الوافدة إلى

أفغانستان. بالإضافة إلى أنه عقب انفراط عقد منظومة الاتحاد السوفيتى، وتشظى وحدته، أصبحت ترسانة ميراثه من الأسلحة بأنواعها إرثًا مكشوفًا دون غطاء مركزى منضبط، فشكلت مصدراً خطراً للاختراق أمام هذه الميليشيات والفصائل للحصول على الأسلحة. والمفارقة الفاضحة أن آلة الإعلام الأمريكية كانت قد صدرت إلى الرأى العام صورة إيجابية عن هذه الميليشيات بأنهم **"مقاتلو الحرية الذين خاضوا قتالاً وطنيًا شديداً حتي الموت من أجل الوطن والبيت، وأنه إذا كان قد تلاشى من أنحاء العالم الإيمان بأن الحق يوجد القوة، فإن هذا الإيمان فى أفغانستان ما زال حيًا باقيًا، وفى أحسن حال، ويكيل الضرب للسوفيت"**.

صحيح أن مداخلة **"إيلين دايموند"** تتهم استراتيجية السياسة الأمريكية، وتحملها مسئولية المشاركة فى صنع ما حدث؛ بكشفها عن الدور السلبى الذى لعبته الولايات المتحدة فى أفغانستان، لكنها لم تفتح مزيداً من ملفات وثائق المعلومات، بحثًا عن إدراك المقاصد لقراءة الحقائق، وامتحانها على معايير

القيم، حتى تحول المعلومات إلى وعى معرفى متكامل. فمثلما عرفنا بمتابعتنا لتوالى الأحداث وتعاقب المشاهد فى مسرحية "**يوجين أونيل**" أن الأب "**تايرون**"، بسلوكه وعمائه، كان مصدراً وسببًا فى إدمانَ زوجته، وتفشى الإدمان في أسرته، نعرف كذلك، ونكتشف من خلال متابعتنا للوثائق التى تفضح نتائج استراتيجية السياسة الأمريكية فى أفغانستان، أنها تتماثل مع موقف "**تايرون**" فى مسئولية هذه الاستراتيجية أيضًا بإجراءاتها عن الدمار الاجتماعى الذى تجسد فى ارتفاع عدد المدمنين في الولايات المتحدة للهروين، وزيادة عدد الوفيات إلى نسبة ٧٧٪ بسبب الإدمان نتيجة تدفق الأفيون الأفغانى، حيث استولى المجاهدون فى أفغانستان بتجارتهم فى الأفيون عام ١٩٨١ على ما يزيد على نصف سوق الهروين فى غرب أوروبا والولايات المتحدة، بل أصبحوا عام ١٩٩٤ المورد الأول للأفيون فى العالم، وقد كشف تقرير الوكالة الأمريكية لمكافحة المخدرات عام ١٩٨١ عن تورطهم وانخراطهم فى زراعة الأفيون وتجارته، إذ الفصائل المتحاربة فى أفغانستان قد بلغ عددها سبع فصائل تقاتلت فيما بينها للسيطرة على المزارع وتجارة

الأفيون، موظفة السلاح الذى قدمته لها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ضد بعضها بعضًا وأيضًا لرفع كفاءة عمليات التهريب التى تقوم بها. أما عائدات تجارة الأفيون فكانت تستقر فى حسابات بالخارج، وتحديداً فى بنك **"حبيب"** وبنك **"بى . سى . سى . آى"**، وهو ما كان معلومًا لدى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، حيث يتبدى دورها الضالع فى التستر على نشاطهم، والذى تفضحه التحذيرات المتعددة والتى منها -تمثيلاً لا حصراً- تحذير عضو المجلس الاستراتيجى بالبيت الأبيض **"ديفيد موستو"**، الذى حذر الحكومة بقوله **"إننا ندخل أفغانستان لدعم زراع الأفيون، ألا ينبغى أن نتحاشى ما فعلناه؟ ألا ينبغى أن نحاول دفع المال للزراع إن هم قضوا على إنتاجهم من الأفيون؟."** وتعامت وزارة الخارجية، ووكالة المخابرات المركزية عن هذا التحذير، فانضم إلى **"ديفيد موستو"** زميله عضو المجلس الاستراتيجي **"جويس لوينصن،"** ونشرا معًا فى صحيفة **"نيويورك تايمز"** في مايو ١٩٨٠ تحذيرهما الذى جاء فيه: **"نحن نشعر بالقلق من زراعة رجال القبائل للأفيون**

فى أفغانستان، فهل نحن مخططون في مصادقتنا لهذه القبائل؟". والإجابة عن السؤال تأتى عبر ما نشر في صحيفة "**الواشنطن بوست**" على لسان أحد رجال وكالة مكافحة المخدرات "**بأن ضباط المخابرات المركزية الأمريكية كانوا يأمرونهم بسحب عملياتهم من أفغانستان من أجل استمرار الحرب**"، إذ كانت الوكالة الأمركية لمكافحة المخدرات ترصد عمليات التهريب وجسورها، وكشفت أن أحد هذه الجسور كان شركة "**شكرجى**"، التي تستخدمها المخابرات المركزية الأمريكية فى توصيل الأموال إلى المجاهدين فى أفغانستان، وقد تم القبض على أحد عملاء هذه الشركة فى أثناء تسليمه شحنة وزنها ٥,٨ طن من الأفيون الأفغانى إلى أحد أفراد عصابة "**جامبينو**" فى مدينة نيويورك! هى -إذن- ذات حيرة الضمير الإنسانى التى يستشعرها أمام الأب "**تايرون**"، الذى بسبب عمائه كان مصدراً وسبباً فى تدمير أسرته!!

ترى، هل صحيح -على حد تعبير "**إيلين دايموند**" فى مداخلتها- أنه بعد كل ما حدث فإن نيويورك "**المدينة العملاقة**

قد تحولت إلى ضوء ملهم، كشيء نراه ونرى به" بمعنى أنها بعد الحدث أصبحت تضيء وعي المراجعة !! أم يا ترى أنه -وفق منطق التراجيديا- ليس بوسع أحد أن يوقف برمجة المدار المكتسح لاستمرار استراتيجية السياسة الأمريكية كلعنة ملاحقة، مها كشف وعري وفضح المستور والمحتجب، وأيضًا مها كان وجع هذا الفضح، وتلك التعرية، تمامًا مثلما لم تنفع مواجهات أفراد أسرة "**تايرون**" وانتقاداتهم لسلوكه الذى سبب لهم الفواجع المؤسية! أم يا ترى أن صناع القرار السياسى يمكن أن يفعلوا كما فعلت "**إيلين دايموند**" -وفقًا لما جاء فى مداخلتها- بأن ترى "**هذا العالم الأفضل في الصورة التي يحتاج إلى أن يؤول إليها**"، فيغيروا استراتيجيتهم وإجراءاتهم حتى تتحول صورة العالم، وذلك باعتبار أن اللعنة الملاحقة لا تتوقف إلا إذا امتلك صانعها قدرة الوعى والمراجعة، فالوعى هو صانع العلاقات الإنسانية وليس غيره، والوعى المعطل عن قدرة المراجعة يعمي صاحبه، فيظل فى رحلته موغلاً فى جوف الليل؟!

الألمان يحذرون الأمريكان !!

كانت إرادة العماء مسيطرة، ولا بد من الانعتاق للخروج من سجن الإرادة العمياء، التي تحول البشر إلى أرقاء وممتلكات، فطلب الناس إلى الرجل أن يشمر عن ساعديه، وينزل إلى حلبة النضال ضد أصحاب الإرادة العمياء، لكن الرجل مع أنه ضد الاستعباد كان أيضًا ضد الحرب، وتلك هى إشكاليته، وعليه أن يتبنى خياراً **"فالناس خلقوا متساوين، ووهبوا حقوقًا لا انتزاع لها منهم، وإن من هذه الحقوق حق الحياة، والحرية، والسعى إلى السعادة"**. غير أن تشخيص الواقع يؤكد أن هناك من مواطنيه أرقاء وعبيداً، وفى الوقت نفسه وعلى الجانب الآخر، فإن عشرة نجوم من العلم المرتفع للولايات المتحدة، تمثل عشر ولايات مستعدة لهدم كيان الاتحاد إذا حيل بينها وبين

حق المتاجرة بدماء ولحوم هؤلاء الأرقاء، وجموح الصراع يشير إلى تعرض الاتحاد الفيدرالى للانهيار والتفتت، بل إنه سيصبح مهدداً على الدوام لقيامه على الشرط المعلق، أى إذا لم يخضع الاتحاد لتنفيذ ما تراه مجموعة من الولايات دون نقاش، وبالمخالفة لحماية الدستور، فسيتم الإكراه على التنفيذ بالقوة أو التهديد بالانفصال، وهو ما يولد الحرب أيضًا. وكان السؤال: ماذا عليه أن يفعل لإنقاذ العلم والاتحاد من السقوط ممزقين إلى الحضيض، وبشرط أن يستعيد البشر الأرقاء حقوقهم المغدورة بسلطة العماء، ودون خراب الحرب؟ بهذا المعنى كان على الرجل أن يقيم علاقة خلاقة ومنتجة وفعالة مع الراهن، لا تغيب فيها قيمة وحقوق الإنسان، ولا ينفى من الوجود، أو يسقط الاتحاد، وإن لم يفعل ذلك فإنه ينتهك قناعاته ويطعنها، فاتخذ قراره بمقاومة العماء؛ بالدخول من بوابة العمل السياسى العام، فى محاولة لطرح الفهم كمقاومة لتبديد العماء، فرشح نفسه عضواً عن ولاية **"ألينوى"** فى مجلس الشيوخ، ووقف قبالة الجماهير فى مناظرة مفتوحة

لمواجهة خصوم الحرية والديمقراطية يعلن: "**إننى أحذركم وأحذركم، فأنتم حين تستعبدون أيًا من إخوانكم فى البشرية، وتجردونه من إنسانيته، عندئذ كيف -إذن- تكفلون أن العفريت الذى خلقتموه لا يرتد عليكم ويمزقكم؟ إنكم إذ تضعون شروطًا للحرية تتحملون -أنتم وحدكم- عاقبتها الوخيمة، إننى لا أبشر بالحرب، لكن كل ما أفعله هو أننى أصر على ذكر الفضائل الأساسية التى تتحلى بها ديمقراطيتنا التى جعلتنا كباراً، وسوف تجعلنا أكبر، هذه الفضائل هى اليوم فى خطر؛ إذ ليس هذا المبدأ إلا دليل اللا مبالاة إزاء الشر والفساد، ويسلب جمهوريتنا نفوذها الحق فى العالم، ويسمح لأعداء المؤسسات الحرة فى كل مكان أن يتهمونا بالدجل والمراءاة، ويجعل أصدقاء الحرية الحقيقيين أن يشكوا فى إخلاصنا، ويدفع الأخيار منا إلى الحرب ضد الأسس التى تقوم عليها حريتنا**".

كشف الرجل -إذن- للعقول والأذهان عن عورة مأزق التناقض بين الراهن المؤسى المنتج للضلال والشرور، وبين

مفهوم حق الإنسان المفتوح على الشمول، من دون استعباد أو استثناء لعرف أو دين؛ **"لأن جميع الناس خلقوا متساوين، وليس في وثيقة الاستقلال أى استثناء لهذا المبدأ، فإذا ما استثنينا الزنوج اليوم، فقد نستثنى الأجانب غداً، والكاثوليك واليهود"**. ولا شك أن التصدى لهذا الحمق والجنون والغطرسة، أمر ضرورة لرفع الغشاوات التى تحجب الأذهان عن رؤية **"أن التمييز فى تعريف الحرية بين طبقة وأخرى، أو عرق وآخر، لا يصح البتة، وما من دولة يمكن أن تدوم إلى الأبد"** يحكمها الإقرار بحق أن يمتلك البشر البشر كما تمتلك الأنعام.

تأسس منطق الرجل في تصديه للاستعباد أيًا كان نوعه، على أن الديمقراطية نجحت فى إثبات أن حرية النقاش، الذى يوسع إمكانات الفهم تخصب السماح بالاتفاق، بل المهم أن الديمقراطية أيضًا هى صمام أمان كإجراء للحفاظ على السلام، وتحت وقع هذه الأسباب لم تعد تتجاذب الرجل أو تتنازعه إشكالية طرفاها يتناقضان، طرفها الأول أنه ضد الاستعباد والنزعة اللا إنسانية التى تخترق حق الحرية للبشر كافة، وطرفها الثانى أنه أيضًا ضد الحرب التى تعود بالخراب والدمار

كوسيلة لإقرار حق الحرية. وكان خوفه أن الطرف الأول قد يستدعي الطرف الثاني بالاحتمال أو الرجحان، لكن إيمانه بالديمقراطية في تداول الآراء بين الاتجاهات المتعارضة عمّق لدية إمكانية رفع التناقض، وشكل له حلاً لصراعه الداخلي المتوتر، واستوفى لديه شروط النضال، يعضده عقل ضابط، قناعته بالعدالة والمساواة والإنصاف والسلام لا تعاني عجزاً أو استعصاء، ونجح الرجل -بجدارته ومصداقيته- في أن يلتف حوله المؤيدون، وصارت شعبيته محط الأنظار. على الفور تسلل إليه قناصة العمل السياسي وتجار المصائر، فتوسلوا بآليات التأثيم لنزعة الاستعباد وبيع البشر، ثم بدهاء راحوا يحاولون استمالته إلى مصالحهم بالتواطؤ للاندراج معهم بإطلاق أيديهم في أعمالهم على حساب حقوق مشروعة للآخرين إذا فاز في الانتخابات، أي أنهم يطرحون مشروع اتفاق ومقايضة يتم بين مسوقين، حصاده الاكتساب والتحصيل لكلا الجانبين، وهو في حقيقته مشروع إقرار بعبودية الأفكار والمواقف والآراء. وبمعنى أوضح، إن إبرام الاتفاق يعني تجريد الرجل من مسئوليته المعلنة، وفصم إيمانه

بالديمقراطية، وامتصاص دوره فى لعبة الكذب السياسى بالابتزاز أو الإغراء لاختزال مساحة حريته وخضوعه لعبودية خفية، حدها يقوم على استعباد الرأى والموقف والتوجه، وتكريسها لمصلحة فئة مهما تكن شرعية حقوق الآخرين، وذاك هو الإجهاض بعينه الذى يصادر فى الخفاء، ويدمر مشروعه القائم على حد الحرية التى لا تتجزأ جسداً وعقلاً وسلوكًا. ولأن الرجل كان يدرك آليات الفساد السياسى، وألاعيب المفسدين للديمقراطية، فقد رفض ببساطة مفتوحة على النسيان ما عرضوه، معلنًا **"أنه ضد كل أنواع الرق والاستعباد، مؤمنًا بالنظام الديمقراطى، كنظام يفسح المجال أمام الجميع، ويعطيهم الأمل، ويبعث فيهم النشاط والتقدم دون تمييز"**، لكن قراصنة الفساد السياسى لم يفقدوا الأمل فى أن الرجل يمكن، تحت وسائل الإغراء والمجاذبة وتشابك الأزمات، أن يقع فى شباكهم وينصاع، فكان رهانهم على انتخابه لشعبيته، انتظاراً لتأثير المجاذبة، حيث يصبح الصياد فريسة للقناص.

نجح الرجل عبر صناديق الانتخاب، وتعاظم شأنه بعيداً عن كل مسارات امتدادات آليات الاستهواء، متخطيًا كل طرق

الألغام التى تسعى إلى تحويل دفة إدارته للأمور وفقًا لقناعاته، وأصبح رئيسًا للولايات المتحدة. عندئذ أدرك أنه على عتبة العبور إلى معركة الانتكاس التى يقودها المناوئون والمتربصون، قراصنة العمل السياسى الذين يفككون الديمقراطية لتفسد وتنهار، وتصبح غير قابلة للبقاء، وذلك بالتسلل والتسلط عليها، ومحاصراتها بآليات الحقن لتوليد عبودية الأفكار والآراء بدلاً من عبودية الأجساد. وعشية ذهابه إلى مقر الرئاسة، وقف فى محطة القطار يلقى خطابه للناس: **"لقد كسبنا الديمقراطية، وبقى الآن أن نسأل أنفسنا ما إذا كانت صالحة للبقاء. لقد أصبح علينا أن نواجه يوم اليقظة المخيف إذ تبددت الأحلام. علينا أن نسلم أن مثلنا العليا فى الحرية والمساواة بدأت تتحلل، وفسدت وآلت إلى الهلاك"**.

وتعنى هذه الكلمات استكمال رحلة النضال للمحرر العظيم **"إبراهام لنكولن"**، فى صورة على المجاز الفنى صاغها الكاتب الأمريكى **"روبرت شيروود"** عام ١٩٣٨ فى مسرحية بعنوان **"إبراهام لنكولن فى ألينوى"**، حيث تشكل خارطة أحداثها أن

بمفهوم الدفاع عن حقوق الزنوج فى الحرية، إنما هو فى الأساس دفاع عن مفهوم الديمقراطية ، ليس فقط كنظام لاختيار الحكام، ولكن لأن هدف الحكم الديمقراطى تعزيز الحرية لمجتمع يحمل مواطنوه حقوقًا متساوية، ويؤمّن لهم نظامهم الديمقراطى هذه الحقوق من الانتهاك ترسيخًا للسلام، كما تفصح خارطة الأحداث أن عماد مفهوم الديمقراطية أنها تلتزم بمرجعيات فى مواجهة القضايا الخلافية والأزمات، بأن تناقش بلغة ديمقراطية نظيفة، عن طريق مناظرات ديمقراطية مفتوحة وكاشفة، من دون فرض لرأى بالقوة، أو تهديد باستخدامها ، وأن عدم الالتزام بمرجعيات الديمقراطية يسمح بانتهاك الديمقراطية من جانب جماعات تكرس أنفسها بتصميم على سوء استعمال حقوق الآخرين، انقلابًا على الديمقراطية، لترسيخ التميزات والتعصبات لحساب مصالح فئة أو مجموعة هدفها الافتئات على الحقوق المشروعة للآخرين، فيخترقون الديمقراطية بعبودية الأفكار والمواقف والآراء، فتنطفئ شعلة الديمقراطية والعدالة والمساواة.

هذه العبودية للأفكار والآراء التى واجهت المحرر العظيم "**إبراهام لنكولن**" عام ١٨٦٠، وأدرك خطورتها على الشأن السياسى العام، كانت أحد محاور انتقاد الوثيقة الألمانية التى وقعها مائة من المثقفين الألمان، ونشرت فى صحيفة "**فرانكفورت اليومية**" فى الثانى من مايو عام ٢٠٠٢، تحت عنوان "**عالم العدالة والسلام سوف يكون مختلفًا**"، كرد على وثيقة المثقفين الأمريكيين الستين، حيث نددت وثيقة المثقفين الألمان بعبودية الأفكار والآراء وآليات الحقن التى تمارسها السلطات الأمريكية على كل المستويات، فتخاطب الوثيقة الألمانية الأمريكيين، ويعلن موقعوها: "**إننا يعترينا الإحساس بالقلق عندما نرى شخصيات بارزة فى حاشية رئيس دولتكم تطالبنا، فى عدوانية متزايدة –نحن الأوربيين– بالخضوع والطاعة التامة لأمريكا؛ بل إن هذه الشخصيات البارزة تحاول أن تخنق الأصوات الناقدة التى تنبعث من أوروبا عن طريق الابتزاز الرخيص. إن كثيراً منا –هنا فى أوروبا– ينظرون إلى ذلك على أنه حرمان لنا من حقنا المشروع فى أن نقرر بأنفسنا ولأنفسنا ما نريد أن نفعله. ومن المؤسف أن الطبقة السياسية فى أوروبا لم**

تستوعب -حتى الآن- بوضوح أن خضوعها المزرى والمخجل للقوة العظمى المسيطرة على العالم يعتبر سياسة لا طائل من ورائها، ولا أمل فيها، وأن ذلك الخضوع سوف يخلق مناخًا صالحًا لإثارة الغليان والشغب من قبل قوى اليمين الراديكالى. ومن دواعى قلقنا أيضًا، ذلك النفوذ المتنامى الذى تمارسه القوى الأصولية فى الولايات المتحدة على الصفوة السياسية فى بلدكم، والذى يمتد وينبسط إلى كل مكان، حتى بات من الواضح أنه بلغ البيت الأبيض. هذا الأمر خليق بأن يستثير نزعة التطرف والغلو فى المشاعر والنزعات القومية، والفاشية. عليكم -أيها السيدات والسادة- أن تكونوا على يقين من أن جماعية الفكر، وتراث الحرية الذى تمتلكه بلدكم لن يتقوضا بدعوى الحرب ضد الإرهاب، عليكم أن توقفوا زحف العقلية الأصولية وتقدمها فى الولايات المتحدة. إن تلك القيم الأمريكية التى تشيرون إليها بالبنان -فى فخر واعتزاز- تتعرض للامتحان والابتلاء".

وكأن كلمات **"إبراهام لنكولن"**، سواء على الحقيقة أو بصورتها على المجاز كما صورها الكاتب الأمريكى **"روبرت شيرووود"**، حاضرة فى وثيقة المثقفين الألمان، بل كأن المثقفين

الألمان أيضًا قد أدركوا أن قراصنة الاستبداد السياسى، وتجار المصائر، دعاة استعباد الأفكار والعقول، الذين راهنوا على **"إبراهام لنكولن"** عام ١٨٦٠، قد عادوا وكسيوا الرهان، لإطفاء شمعة الديمقراطية والعدالة والمساواة، حتى لم تعد بعد صالحة للبقاء. لم يُجْدِ -إذن- تحذير **"إبراهام لنكولن"** المحرر العظيم من عبودية الأفكار، أفتراه يجدى اليوم تحذير المثقفين الألمان !! أم الحقيقة والفن فى تحذيرهما لا يُجْدِيان؟!

أم ياترى هل ينشط احتفال الأمريكيين **"بيوم الاستقلال"** ذاكرتهم، فيدركون غياب القيم التى ناضل من أجلها محرروهم، ويرونها وهى تتراجع على أرضها بالذات، فينتبهون لتحذيرات دعاة الحرية والاستقلال من الألمان وغيرهم !!

أمريكا وحالة الامتثال !!

"إيزابيل" فتاة أمريكية وسيمة وجذابة، حملت إرثها من الثروة، وذهبت مع عمتها الوصية عليها لتبحث عن مغامرة أوروبية، فتقدم للزواج بها اللورد **"ووربيرتون"**، الذى يتمتع بمظهر لائق، ولقب اجتماعى مرموق، وسجايا طيبة، ويمتلك منزلاً ريفيًا فاخراً، لكنها رفضته بلا مبالاة مغلفة بثقة ترقى إلى مرتبة اليقين، وحجتها -ببساطة- أن كل ميزاته لا تكفيها، ربما ظنًا بأن هذا الارتباط المعجل قد يحرمها ارتباطًا مؤجلاً قادمًا تنتظره، يحمل لها أشياء تفوق المطروح. صحيح أنها لم تحدد هذه الأشياء، لكنها رأت -بثقة حمقاء موالية للعماء- أن القادم سيكون أفضل. ولا شك أن رفضها كان فاسداً، لأنه لم يكن مبرراً بالاستناد إلى جفوة، أو صد، أو

تنافر في مشاعرها تجاهه، أو أنه قد خالجتها نحوه منعطفات الظن فيما سوف تسفر عنه حياتها في رباطها معه، استبصاراً أو رصداً لقرائن تجلت في سلوكه، أو أنها لم تستوعبه كنموذج الرجل الذي تريده، إذ إنها لم تكن مسكونة بهاجس يمثل في مجموعه صفات تروم إليها في نموذج رجل تسعى كي تجده في الحياة ليطابق النموذج الذي عينته، لذا كان رفضها حمقًا يعكس فساد الرأي الذي لا يستند إلى مقاييس محددة ومدركة تحرك سلوكها واختيارها، أو يستند إلى مشاعر وأحاسيس عاطفية رافضة، في ظلها تستحيل المصادقة على إقامة علاقة زواج في بعدها الإنساني. لم ترسل "**إيزابيل**" حكمها بالرفض امتثالاً لقيمة، أو ضبطًا لها؛ بل رفضت المطروح عليها تمرداً، بمنطق المراهنات المفتوحة على الإسراف في المغامرة، وحجتها أن المطروح ببساطة لا يكفيها، وكأنها تبحث عما يكفيها خارج شروط محددة، ربما كانت واقعة تحت سلطة التشبه بما لدى الغير، أو ما هو خارج شروط ذاتها، وذلك ما يجسد جهلها بمعنى أن العلاقات الإنسانية تولّد وتحوّل وتتيح بالتفاعل والتداول مساحات من التواصل، وتفتح آفاقًا لممارسة خصبة رهانها ثقافة المشاعر، وليس الحمق الذي يعتصم بمطلق ملغوم ومغمور في قاع المجهول.

وجاء اليوم الذى يحمل دلالة أنها وجدت ما يكفيها، يوم أن تزوجت رجلاً "**أوزموند**" من أصل أمريكى، بدا لها على السطح مستتراً بقناع الثقافة، قناع الصفوة، ولم تستطع لحمقها استكشاف ما وراء الظاهر، أو استطلاع شفرة مقاصده، ربما لقدرة "**أوزموند**" على إخفاء الوجه الحقيقى، لكن خلال حياة التناصف، وإدارة المشاعر، وآليات الارتباط والتواصل، استدركت واكتشفت كل المحتجب والمتوارِى من مقاصده، حين أطلت تلك المقاصد، وتعرت، وأشهرت عن نفسها مفتوحة على اللا متوقع والمفاجئ، فإذ بالزوج منافق مخاتل مراوغ، قاسٍ، أمى المشاعر، خبيث، وصائد ثروات، لم يتزوجها إلا طمعًا فى مالها. تصدع لديها جدار الاقتران الأسرى، واستحال التواصل، فأدركت أنها وقعت فى مأزق غَيَّرَ وبَدَّلَ لها علاقات الواقع، إذ أصبحت أسيرة رجل صادر حياتها، وراح يديرها انقلابًا على جوهر العلاقة، محترفًا الكذب والخداع، مستثمراً الزواج بمالها، وما يتيحه له من المنافع. كانت لطمة كف الحقيقية التى تلقتها "**إيزابيل**" شديدة ومفزعة، لكنها -مع تعرفها حقيقة وضعها- استسلمت لحياة لا تستوفى شروط معنى الزواج الحقيقى،

وامتثلت لها، وقبلت أن تظل الطرف "المخدوع" إلى جانب الطرف "المخادع"، وأجبرها هذا الامتثال أن تعيش عزلة موحشة منفردة مع ذاتها، برغم كل ما حولها من شبكة علاقات صداحة لكنها عابرة وخالية من المعانى، وذلك بالتناقض مع مفهوم حياة المجتمع الحقيقى من أنه شبكة من المعانى المتفاعلة.

إن أية تجربة لمغامرة حياتية -كما حدث لـ"إيزابيل"- قد تحتمل الفشل، أيًا ما كانت أسباب الانخراط والوقوع فى فخاخ الخطأ، بل إن الإنسان قد يحاول استرجاع ومعاودة التجربة بخيارات جديدة بعد الفشل، ويأمل أن تكون استعادة مثمرة، احتياجًا إلى استرداد إجابة سؤال جدوى الحياة، وأيضًا ليؤكد رفضه للانكسار والفشل، إيمانًا بأن الخطوات نحو عتبة البدء مرة أخرى دائمًا ممكنة، بشرط استيعاب السلبيات وتجاوزها. لكن أن يعتصم الإنسان بالفشل، ويمتثل له، ويقع أسيراً لتجربة واحدة بعينها، ويرفض الارتحال عنها، ولا يعى أن فى الامتثال للفشل ما يدمر معنى حياته، فذلك هو الموقف الأكثر حمقًا وخطراً لـ"إيزابيل"، وكأنها قد سكتت لديها كل أسئلة حياتها، فغرابة موقفها هو فى امتثالها لصائدها، ورضائها

استمرار الحياة معه برغم التعارض والتخالف، ووصولها إلى اللا مكتشف. أتراها لم تكتشف الضفة الثانية؟ أم أن الحياة المأهولة بالضجيج والتزاحم حجبت عنها جسر عبورها؟ أم ترى سكت عنها سؤال جدوى حياتها؟ وحده سؤال معنى وجدوى حياتها هو جسر المستقبل لكل بوابات العبور المشروعة، وهو أيضًا -وحده- الذى يخرجها من امتثالها، ويستعدل انحراف حياتها، ويمنحها قدرة استعادة مفهوم القيم الضائعة، فالكارثة كل الكارثة عندما لا يعود الإنسان يعرف السؤال، و"**إيزابيل**" يبدو أنها ودعت كل الأسئلة، إذ إن امتثالها يعنى مواتها، سواء فى عزلتها وانفرادها بذاتها، أو فى ممارستها حياة ممتثلة وميكانيكية مأهولة بالتزاحم والضجيج، وذات علاقات عابرة، إذ فيهما معًا لا يتحقق مفهوم الحياة فى مجتمع تنسج شبكة علاقاته منظومة من المعانى والقيم، تؤكد وترسخ الحضور الإنسانى الحقيقى، وليس ممارسة عاطلة من المعنى، تنسى فيها "**إيزابيل**" راهنها، أى تنسى حياتها وعالمها الحقيقى المحيط بها.

إن الاختلال الذى تجسد فى موقف "**الامتثال**" الحارق لمعنى المشاركة الفاعلة، والداعى إلى الانسحاب، ونسيان الوجود،

وعدم الحضور الحقيقى فى بنية علاقات المجتمع، ويؤسس لضياع جدوى الحياة، ويحاصر وينفى عن **"إيزابيل"** خيار الاستحقاق، فينحرف بأهداف حياتها عن كل قيمة، هذا **"الامتثال"** الذى يجعل من نسيان القيم عقيدة مواجهة وحيدة للحياة، وامتداداً للحماقة كنظام، هو ما صوره الكاتب الأمريكى **"هنرى جيمس"** فى روايته **"صورة لسيدة"** الصادرة عام ١٨٨١، وكان ذلك أيضًا أحد محاور دراسات علماء الاجتماع الأمريكيين. وعلى سبيل المثال، وكى لا تطول قائمة الاستشهاد، نجد أن **"بول جولدمان"** فى كتابه **"النمو نحو الحماقة"** الصادر عام ١٩٦٠، يؤكد **"أن انتشار انحرافات الحياة فى الولايات المتحدة يعود إلى أن أهداف المجتمع الأمريكى عديمة القيمة"**. ومن قبل صدور هذا الكتاب بسنوات، نجد أن الكتاب الشهير **"الحشد الشاعر بالعزلة"** الصادر عام ١٩٥١، ويحمل أيضًا عنوانًا ثانويًا **"دراسة للشخصية الأمريكية المتغيرة"** لثلاثة من علماء الاجتماع الأمريكيين، هم: **"ديفيد ريسمان"**، و **"ناتان جليرز"**، و**"رويل دينى"**، يشخص حالة الامتثال لدى الأمريكيين بأنهم **"أمة من الممتثلين أو "الموجهين**

من الغير"، أمة من الناس الذين ليست لديهم مقاييس أو معتقدات ثابتة".

إن رواية **"صورة لسيدة"** تطرح على المجاز من خلال أحداثها سمة لافتة من ملامح الشخصية الأمريكية، إذ تكاد شخصية **"إيزابيل"** تكون تصويرا مفسراً للنمط السائد للشخصية الأمريكية فى جانب افتقادها مقاييسها ومعتقداتها، وفساد رأيها وحمقها، وهو ما قادها إلى مأزقها الذى يتحدد فى أنها أصبحت **"هى"** وليست **"هى"** فى آن واحد. فعلى الواقع هى زوجة، وعلى الحقيقة هى ليست زوجة، وإنما فريسة لصائد الثروات **"أوزموند"**، ومصدر للمال له، لكنها برغم اكتشافها يرتبك سلوكها، وتسلم بالعيش معه حياة مزدوجة بين عالمين؛ عالم زائف -يقوده صائدها- موازٍ لعالم حقيقتها، ويسعى هذا العالم الزائف كى يصبح العالم الحقيقى لها. وبدلاً من أن تواجهه وتتحرر من إساره، امتثلت له، وقبلت وجوده إلى جوارها، وصارت موجهة به، وكأنها اكتفت بما اكتشفته، ولم تعِ أنه اغتال حياتها ووجودها، وبرغم ممارستها **"الانعزال الحجرى"**

الذي يتسم بالبرود والتعالي والنفور والازدراء فى تعاملها معه، إلا أن ذلك لا يعفى امتثالها من أنه امتداد لحمقها، ولا ينفي خضوعها له، ولا يمنع استمراره فى تحقيق مصالحه. صحيح أن الكشف لم يعد مأساتها؛ فقد تجاوزته بتعرفها حقيقة "**أوزموند**"، لكن تظل مأساتها فى غياب السؤال عن كيف لها أن تخرج من امتثالها، وهو السؤال الذى حاول "**هنرى جيمس**" إبداعًا أن يشحذه، وأيضًا حاول علماء الاجتماع تعرية وكشف حالة "**الامتثال**"، وتشخيصها كآلية من آليات العجز، تجهض ممارسة الفرد لفاعليته وحضوره، وذلك كتحذير كاشف حتى لا يصبح "**الامتثال**" ولعًا يتم إقراره، ويسود كمعتقد اجتماعى يهدد سلامة وصحة العلاقات الاجتماعية عبر ما يولده من اختزال وتعطيل لمفاهيم القيم بمدلولاته السلبية. ولا شك أن هذا التحذير يطرح تداعياته على كل علاقات مؤسسات المجتمع الاجتماعية والسياسية. وقد أقر فى صيغة تحذيرية أيضًا عالم الاجتماع الأمريكى "**س. رايت ميلز**" فى كتابه "**الصفوة القوية**" أن الولايات المتحدة "**تحكمها جماعة إدارية متداخلة صغيرة جداً، مكونة من رؤساء الشركات والقواد**

العسكريين"، ومغزى كل هذه التحذيرات والاستدراكات ينطوى على محاولات التأسيس لمقاومة العماء والسيطرة فى أى من العلاقات على مستوى المجتمع. ويظل قائمًا دور حَمَلَة المسئولية الثقافية من المبدعين والعلماء والمفكرين الشرفاء، فيمارسون الكشف عن انحرافات ضوابط السلوك، ويتعقبون تآكلها وارتدادها عن منظومة قيمها، ويحذرون خوفًا من تسيد ظاهرة **"الامتثال"** اجتماعيًا وسياسيًا. ولعل موقف المفكر الأمريكى اليهودى **"ناعوم تشومسكى"** يؤكد هذا الدور فى كشفه عن ممارسات الصفوة السياسية الأمريكية، وذلك فى حديثه فى ١٦ إبريل ٢٠٠٢، حين عرى هذه الممارسات بقوله: **"هل كنا نخدم مصالح أمريكا عندما حولنا السلفادور وجواتيمالا إلى مقابر؟ هل كنا نخدم مصالح الشعب الأمريكى من خلال المذابح التى ارتكبناها بجنون فى شرق تركيا، والدمار الذى ألحقناه بفيتنام؟ إننا لم نخدم مصالح الشعب الأمريكى عندما فعلنا ذلك؛ بل خدمنا المصالح الشخصية الخاصة بالصفوة السياسية التى تصنع السياسة الخارجية، وخدمنا مصالح مراكز القوى التى تمثلها، والتى لا تحمى الشعب**

الأمريكي؛ وإنما تحمي سلطتها، ومكاسبها، وسيطرتها، وهيمنتها على مقاليد الأمور، وهذه الصفوة تعتمد على بعض المثقفين الكبار لكي يصفقوا لها، ويثنوا عليها ويبرروا أعمالها البشعة وجرائمها الفظيعة". وإذا كان "تشومسكي" قد عرى الدور الذي يلعبه بعض المثقفين الأمريكيين في توليد حالة "الامتثال" لدى الشعب الأمريكي بتبريرهم لانتهاك المبادئ والقيم في ممارسات الصفوة السياسية، فإنه أيضًا يكشف عن دور الإعلام الأمريكي كذلك في حجبه وحبسه للمعلومات وتغييبها والتعتيم عليها كآلية فعالة تتيح إنتاج حالة "الامتثال" لممارسات الصفوة السياسية الأمريكية، فيقول: "إن الولايات المتحدة هي الطرف الوحيد الذي يحول، ويغلق الطريق أمام أية تسوية في الشرق الأوسط على امتداد ربع القرن الماضي، والشعب الأمريكي لا يعرف شيئًا؛ لأن وسائل الإعلام الأمريكية والكندية لا تنشر شيئًا عن هذا، ولا تخبر الشعب بما يحدث. إن الراديكاليين الأمريكيين الذين يمنعون تنفيذ مقترحات المجتمع الدولي منذ خمسة وعشرين عامًا، ما زالوا يواصلون هذا النهج". ثم يستطرد "تشومسكي" شارحًا بقوله

"لقد عقدت الأطراف الموقعة على اتفاقية جنيف الرابعة اجتماعًا أدانت فيه -بالإجماع- إسرائيل بسبب سجلها الطويل في ارتكاب الفظائع، مثل التعذيب، والقتل العمد، وتدمير الممتلكات، والمحاكمات الصورية غير العادلة، كما أدانت أيضًا إقامة المستوطنات غير الشرعية. ولنتأمل الموقف الأمريكي حكومة وإعلامًا؛ فأمريكا قاطعت الاجتماع، والصحافة رفضت نشر أية معلومات عن ذلك، ومن ثم لا يعرف الشعب الأمريكي أن الولايات المتحدة -مرة ثانية- تعمل على تصعيد الإرهاب برفضها الاعتراف بأن القوانين التي تنص عليها اتفاقية جنيف الرابعة تدين كل ما تفعله إسرائيل، وتعدّه انتهاكا وخرقًا للقانون، وجريمة حرب. والولايات المتحدة ملزمة بصفتها طرفًا رئيسًا من الأطراف الموقعة على هذه الاتفاقات، بأن تقدم للمحاكمة كل من يخرق وينتهك القوانين الواردة في هذه الاتفاقات، وهذا يعني أن عليها أن تقدم رؤساءها في الخمسة والعشرين سنة الأخيرة للمحاكمة، وهذا لن يحدث إلا إذا أرغمهم الشعب الأمريكي على ذلك، والشعب الأمريكي لن يرغمهم على ذلك إلا إذا عرف الحقيقة، والحقيقة لن يعرفها

الشعب، ما دام أن وسائل الإعلام والمثقفين أصحاب الولاء للسلطة يخفونها ويجعلون منها سراً دفينًا". إن حديث "**تشومسكى**" يعنى أن آلة الديمقراطية تقوض الديمقراطية ذاتها، تمامًا مثل "**إيزابيل**"، التى استمرت في حالة امتثالها لتدمر ذاتها أيضًا، والفارق أنها تعرف الحقيقة!!

التعـويذة الأمـريكية

اقتحم قاعة طعام الملك فارس عملاق أخضر يمتطى حصانًا عظيمًا أخضر، وصاح قائلاً: **"أنا أتحدى أى واحد هنا أن يأخذ فأس المعركة العظيمة التى أحملها، ويقطع رأسى، وبعد سنة من هذا اليوم يقابلنى عند الكنيسة الخضراء، حيث سأحز رأسه"**. وأمام هذا التحدى المفاجئ لجميع الفرسان، كان **"جاوين"** هو الفارس الوحيد فى القاعة من بين الحاضرين، الذى نهض معلنًا قبول التحدى. عندئذ ترجل الفارس الأخضر عن حصانه، وناول **"جاوين"** الفأس فى قوة إصرار، ثم مد عنقه أمامه، فما كان من **"جاوين"** إلا أن هوى بضربة واحدة حزت -على الفور- رأس العملاق الأخضر، فإذ بالفارس المقطوع الرأس ينهض، ويلتقط رأسه، ويحمل فأسه، ثم يمتطى حصانه،

ويلتفت قبل أن ينطلق، مخاطبًا "**جاوين**" قائلاً: "**سوف أراك بعد سنة عند الكنيسة الخضراء**". ولعل الدهشة التى خلخلت واقع جلسة الحاضرين فى قاعة طعام الملك، قد دفعت "**جاوين**"، ومن معه، إلى رؤية الممكن المنتظر فى الموعدَ الذى حدده الفارس العملاق الأخضر، من أنه -حتمًا- سوف يحز رأس "**جاوين**"، انطلاقًا من أن "**جاوين**" -بوصفه فارسًا- لا بد أن يفي بوعده، بأن يسعى إلى الكنيسة الخضراء فى موعده، وسوف يتحمل نتيجة فعله، ويتقبل موته.

مر العام، وقبل موعد اللقاء المنتظر بأسبوع، ركب "**جاوين**" حصانه بحثًا عن الكنيسة الخضراء. وبعد مرور أربعة أيام من بدء رحلته، سأل وهو فى طريقه صياداً يجلس قبالة كوخه عن مبتغاه الذى لا بد أن يصل إليه فى مدة أقصاها ثلاثة أيام، ليقابل الفارس الأخضر فى موعده الذى حدده قبل عام، فأجابه الصياد الودود بأن الكنيسة الخضراء تقع على بعد بضع ياردات من نهاية الطريق، وعرض عليه أن يبقى ضيفًا عليه خلال الأيام الثلاثة المتبقية حتى يحين موعده مع الفارس الأخضر الذى

سيجده على مقربة. تقبل **"جاوين"** دعوة الصياد، وفي المساء -وهما يتسامران- اقترح **"الصياد"** أن يتفقا على شرط مسلٍ ينفذانه خلال فترة استضافته، وشرح الشرط المقترح والمحمول على النفاذ قائلاً: **"غداً صباحًا سأخرج إلى الصيد، وسوف أعود في المساء، حيث نتبادل ما غنمناه في اليوم كله، أنا أعطيك كل ما أحصل عليه في رحلة صيدي، وأنت تعطيني كل ما يصل إلى يدك"**، فتضاحكا وتصافحا اتفاقًا، وخلدا إلى النوم.

انطلق الصياد في الصباح الباكر، وترك **"جاوين"** نائمًا، فما انفكت أن أيقظته مداعبات امرأة جميلة فاتنة، فإذ بها زوجة الصياد التي راحت بكل تراث الإغواء الأنثوي تدعوه إلى فراشها، لكن لأن **"جاوين"** فارس من فرسان بلاط الملك الذين تقود سلوكهم مرجعيات حاكمة لا تنحل ولا تتضع فلا تسمح له بأن يخون مضيفه؛ لذا فقد تصدى مقاومًا إغواءها بذات مضاءة دائمًا بمنظومة قيمها التي تحقق سلوكه بالائتمار التزامًا بمرجعياتها، فصرع **"جاوين"** هجمة التدني ليدرأ عنه الخذلان

أمام ذاته، مع أنه على يقين من أن امتداد حياته معلق بما تبقى من الأيام الثلاثة دون غيرها. ولما أدركت الزوجة فشل محاولاتها فى الفوز به، قالت له "**حسنًا، إذن، دعنى أقبلك**". وبالفعل قبلته، وانصرفت عنه خاسرة جولتها الأولى معه. وفى المساء عاد الصياد ومعه غنائمه الكثيرة، وفور أن ألقى بها على الأرض سارع "**جاوين**" فأعطاه قبلة، وهى ما أعطته الزوجة له، وذلك تنفيذاً لاتفاقهما المسبق، فضحك الاثنان وانتهى الأمر هكذا. وفى الصباح التالى، وبعد تجربة الفشل، عادت الزوجة تفتح دوائر المراودة لاقتناص "**جاوين**"؛ بأن تضخ فى شراينه جموح الرغبة بالإغراء الملتهب بكل ألوان التأثيرات اللافحة، لتستولد ما يستتبعها من تداعيات تقود -حتمًا- إلى المأمول منها، لكنها أيضًا لم تنل منه سوى أن قبلته مرتين، وانصرفت مخذولة فى مرادها خاسرة جولتها الثانية، وعاد الصياد مساءً ومعه غنائمه التى نقصت بقدر النصف عن غنائم الأمس، فاقترب منه "**جاوين**" وقبله مرتين، فضحكا وخلدا إلى النوم. وفى اليوم الثالث عاودت الزوجة محاولتها، وقد عززت جمالها بشحنات متعاظمة من الفتنة، أكثر ضغطًا

وتأثيراً فى محور استهواء "**جاوين**" لكسر السياج الذى يفرضه بالامتناع عنها، فإذ بالفارس ما زال فى سلوكه تجاهها على ما هو خليق به، مهما يكن تكرار المحاولات. أدركت الزوجة - عندئذ- عجزها عن الإيقاع به، فراحت تقبله ثلاث مرات، ثم رجته أن يتقبل منها "**حزامها**" كتذكار، تعبيراً عن حبها، لكنها عندما قدمته إليه قالت له: "**إنه تعويذة، ولسوف تحميك من الخطر**"، تقبل "**جاوين**" تلك "**التعويذة**" بسرور، إذ ربما تقيه من ذلك الخطر المقبل حين يحين لقاؤه بالفارس الأخضر العملاق الذى ينتظره ليحز رأسه، لذا نراه عند عودة "**الصياد**" فى المساء خالى الوفاض سوى من ثعلب هزيل وكريه الرائحة، على الفور أسرع "**جاوين**" يقبله ثلاث مرات، لكنه أبداً لم يعطه "**التعويذة**"، فلقد احتفظ بها لنفسه عسى أن تستطيع تلك "**التعويذة**" أن تمتلك إمكانات تتيح تغيير علاقات الواقع، وتبدل المحتوم، فتبعد عنه الأخطار.

رحل "**جاوين**" عن ضيافة الصياد متجهًا إلى الكنيسة الخضراء، ولحظة دخوله إياها سمع الفارس الأخضر العملاق يشحذ الفأس الكبيرة، فتضوع الجو حوله برائحة الخطر المحتوم،

وفجرت المواجهة بينهما استدعاء إجراءات التنفيذ للفعل المرصود، بل بداهة وفورية تسليم **"جاوين"** لرأسه وفقًا للاتفاق الذى تم منذ عام، وعاجله الفارس العملاق بأن قال: **"مد عنقك هنا على هذا اللوح الحجرى"**، ففعل **"جاوين"** والفارس الأخضر يوالى المطالبة بمد العنق أكثر، و**"جاوين"** يمتثل وينجز المطلوب، ثم فجأة تهوى الفأس بكل طاقة الفارس العملاق، لكنها لا تفعل شيئًا، فرأس **"جاوين"** ما زالت فى مكانها لم تحز، وإن مسها خدش بسيط، واستكمل الموقف أطياف الغرابة، وتشابك المفاجآت التى تخالف كل المقتضيات، فإذ بالتميز يتخالط، ويكشف عن تحول صورة الفارس الأخضر العملاق، ليصبح -هو ذاته- صورة **"الصياد"**، فيعلن أن التفسير لما حدث مصدره تأثير تلك **"التعويذة"** التى حالت دون حز رأس **"جاوين"**، فمنعت عنه الخطر والفعل المحتوم.

هذه حكاية إنجليزية قديمة عن واحد من فرسان الملك **"آرثر"** -وهو **"السير جاوين"**- ومغامرته مع **"الفارس الأخضر"**. والدرس الأكبر فيها، وفق منطق ذهنية زمن الحكاية القديم، أنه

مهما كانت آليات الواقع المحبوكة، والتى تنتج أحداثًا محمولة على الوقوع، اتكاءً على منطق الحتمية والضرورة أو الاتفاق، فإن هناك دائمًا تلك **"التعويذة"** المسحورة التى يمكن أن تتصدى للواقع بعوامل خفية، فتقصى حتميته، وتعطل مسيرته، وتحقق الإنقاذ، والانفلاتِ من الأخطار المرسومة بقدرتها على إحداث التحولات المفاجئة التى تبدل الأحوال فى الواقع الماثل، مهما كانت الاستحكمات. لكن لا شك أنه بحكم المسافات الذهنية التى انصرمت بيننا وبين زمن العقلية المنتجة لهذه الحكاية العتيقة، قد تبدلت فى حياتنا المعاصرة، وتغيرت معايير الإحالة إلى طرائق تمتلك إمكانات إقصاء المحتوم والمتوقع، فلم تعد **"التعويذة"** المسحورة مصدراً مثمراً وفعالاً فى انتهاك الواقع وتغيير علاقاته، إذ أصبح عصرنا الحديث -ولا سيما فى مجال السياسة- يمتلك ما يشبه **"التعويذة"**، أو **"التميمة"** غير المسحورة، والتى أهم ما يميزها تنوع وظائفها - مثل التعاويذ القديمة- كاتقاء المخاطر الجسيمة الراهنة أو المحتملة، أو إحداث الخسائر بالدفع إلى العدوان والصدامات العنيفة، أو ابتعاث معاكسات، واستجلاب اضطرابات تقوض

أوضاعًا، وغير ذلك من الوظائف التى ترتبط بالحصول على نتائج منتظرة بالسلب أو الإيجاب لمن يتولون مهمة صياغة وصناعة هذه "**التعويذة**"، أو تلك "**التميمة**". والملاحظ أن الصانع لهذه "**التعاويذ**" و"**التمائم**" الحديثة ليس فرداً كالساحر القديم؛ وإنما مؤسسات بحثية ومراكز استطلاع علمية، مهمتها الاشتغال على المحتوم والممكن والممتنع فى معطيات الواقع، استهدافًا أن يصير الواقع على غير ما هو عليه، أو ما سوف يكونه، وذلك بالارتكاز على ضرورة تشخيصه، وتفكيك علاقاته، والعمل على استباقه وإعادة تركيبه، من دون الاعتماد على قوى غيبيه مسحورة؛ لكن اعتماداً على سيناريو لصنع حقائق على أرض الواقع تعيد تشكيله.

إن "**التعاويذ**" و"**التمائم**" التى تصوغها مؤسسات البحث ومراكز الاستطلاع، تقدم إلى مصادر صنع القرار السياسى، لذا فإن المؤرخ الإسبانى الشهير "**خوليو كارو باروجا**"، صاحب كتاب "**الساحرات وعالمهن**"، يرى ثمة علاقة بين السحر والسياسة، ويؤكد -تحديداً- أن هناك توازيًا بين السياسى

العصرى والساحر القديم، من حيث مسئوليتهما عما يحدث من شرور، إذ بعض السياسين -كما السحار- خداعون ودجالون، وتنحصر رسالتهم فى نشر الشر فى المجتمعات. وبالطبع لم يمنع رأى المؤرخ الإسبانى الشهير من استمرار صناعة **"التعاويذ"** السياسية، وتقديمها إلى مراكز صنع القرار السياسى، فقد أصدرت مؤسسة معهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط **"تعويذة"** فى شكل تقرير رئاسى تم إعداده عام ٢٠٠١، بواسطة مجموعة من الشخصيات البارزة التى تنتمى إلى الحزب الديمقراطى والحزب الجمهورى، بلغ عددهم واحداً وخمسين شخصية فاعلة ومؤثرة، ويحمل التقرير عنوان **"الإبحار فى عالم مضطرب: أمريكا والشرق الأوسط فى قرن جديد"**، وقد قُدِّمَ التقرير إلى الرئيس الأمريكى **"بوش"**، مشخصًا الواقع الراهن عندما **"تولى "جورج ووكر بوش" منصبه كرئيس للولايات المتحدة، فى لحظة مشحونة بالخطر فى الشرق الأوسط. ففى الوقت الذى ما تزال فيه معظم دول المنطقة تسعى إلى إقامة روابط سياسية وعسكرية مع الولايات المتحدة، تمر العلاقات العربية الإسرائيلية بأزمة، ويبترز الراديكاليون**

الإقليميون، ويسود العالم العربى مزاج عام منتقد للسياسة الأمريكية. وبشكل عام، فإن الوضع الاستراتيجى الأمريكى فى المنطقة يواجه من التحديات أكثر مما يواجه من الفرص"لذلك، فإن **"التعويذة"** السياسية **"تقدم للرئيس الأمريكى الجديد مجموعة من الأفكار والتوصيات المتعلقة بمواجهة الظروف المقلقة، وتحثه على اتباع مجموعة من السياسات على الساحتين العربية والإسرائيلية"** ، فالشاغل الرئيسي للتقرير يرتكز -كما هى الحال لأية **"تعويذة"**- على لى ذراع الواقع، ودحض آلياته على النحو الذى يجعل الممتنع ممكنًا ، وذلك بالسعى إلى تفكيك العقبة الكأداء. إذ فى ظل استمرار وجود السلطة الفلسطينية الحالية لن يستقيم استصفاء المقاصد، ولا بد -إذن- من تفكيكها بمنهج الحفر تحت معمارها لتحطيم جدار الأساس، وطرح التسويغات لإسقاطها من الحسبان، وذلك بالمجاهرة بضرورة إعادة التأسيس، وتعزيز مشروع تغييرها بممارسة مركزية الإقصاء والاستبعاد ، المبطنة بنيات خلق مناخ أو بيئة غير مضادة تسمح للمقاصد المرغوبة أن تكون، فيشير التقرير إلى تنوع مسوغات الدحض للعقبة

الكأداء بأن **"غياب سلطة فلسطينية منفتحة ومسئولة، تتمتع بالشفافية، وتخضع للمساءلة الشعبية، يؤكد ضعفها، الأمر الذى لا يشكل مشكلة على صعيد تطور الدولة الفلسطينية الوليدة فحسب، بل على صعيد تطوير العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية أيضًا، فالسلطة الفلسطينية تتميز بالفساد، والتسلط، وعدم احترام القانون؛ مما ترك آثاراً سلبية فى مجالين مهمين على الأقل، هما:**

أولاً: تقويض ثقة الفلسطينيين بزعمائهم، مما ينجم عنه إضعاف قدرة أولئك الزعماء على التوصل إلى حلول دبلوماسية عن طريق الإقناع.

ثانيًا: حرمان الفلسطينيين من الوسائل السلمية والنظامية اللازمة لمعالجة المشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية، سواء تلك القائمة داخل السلطة الفلسطينية، أو بين الفلسطينيين والإسرائيليين".

وبعد أن استلت **"التعويذة"** عافية السلطة الفلسطينية الحالية، بنخر وهدم وتدمير مشروعيتها، راحت تكشف عما

تخفيه "بأن السلطة الفلسطينية فى مرحلة ما بعد ياسر عرفات، أو الكيان الذى سيخلفها، يمكن أن تصبح قائدة الديمقراطية فى العالم العربى، والولايات المتحدة بتركيزها على أسلوب الحكم الجيد، والشفافية، ومساءلة الحكام والمسئولين، تستطيع أن تساعد فى تطوير شريك إقليمى يكون مواليًا للغرب، وتعدديًا، وديمقراطيًا. إن واشنطن فى وضع يمكنها من القول للفلسطينيين بأن الديمقراطية والأمن يمكن أن يطورا فى وقت واحد، وأن عزل كل منهما عن الآخر يطرح اختياراً زائفًا، بذلك ينبغى للولايات المتحدة أن تؤكد بشكل خاص على الأجندة الديمقراطية داخل السلطة الفلسطينية، وأن العلاقات الأمريكية الفلسطينية يجب أن تدفع ثمن التهاون الذى تبديه السلطة الفلسطينية بشأن التزامها بمكافحة الإرهاب، وفى هذا المجال ينبغى للولايات المتحدة أن تتبع سياسة لا تسامح فيها".

ثم تطرح **"التعويذة"** السياسية طرق الحصار السافرة العارية التى تتوفر بالإعلان عن خصوصية الشراكة الأمريكية الإسرائيلية المطلقة، فتطلب **"التعويذة"** إلى الرئيس الأمريكى ضرورة **"تأكيد التحالف غير المكتوب مع إسرائيل، بأن يتخذ الخطوات الكفيلة**

بعدم إفساح المجال أمام الشرق أوسطيين للشك بمدى قوة الشراكة الاستراتيجية الأمريكية الإسرائيلية، ببناء تفوق إسرائيل فى مجالات التقنية المتطورة الضرورية لتطوير الجيوش الحديثة، يوازى ذلك أن يوضح لجيران إسرائيل معارضة أمريكا للجهود الرامية إلى تحقيق الندية الاستراتيجية فيما بينهم وبين إسرائيل، والتأكيد على التخصيصات الاستثنائية للمعونة العسكرية التى تقوى الردع الإسرائيلى". ثم تتخطى **"التعويذة"** السياسية، وفق وصفتها الإجرائية، وتصفيفها للواقع المدعوم بسلطة القوة، كل العقبات لتحقق إنجازاً يتجلى فى تحقيق حلم إسرائيل، إذ تطلب **"المضى قدمًا فى نقل سفارة الولايات المتحدة إلى الموقع المقرر لها فى القدس، فقضية الوضع السياسى للقدس كعاصمة لإسرائيل لم تعد موضع خلاف"**.

فهل يملك العالم العربى كفرض عين على الجميع إمكانية صياغة **"تعويذة"** سياسية مؤثرة تبطل وتواجه **"تعويذة"** معهد واشنطن التى تحمي إسرائيل رغم عدوانها ؟!

إشعال النار

وحيدة انكبت الأم الحامل تطحن الذرة لتصنع خبزاً لأولادها، فجأة تبدل الموقف، واصطف قبالتها أولادها الذكور التسعة يستهدفون مقصداً. ولقناعتهم به صارحوا الأم الحامل من دون انتظار لتعليق قائلين لها: **"لقد علمنا أن هناك جهة الشرق تسع بنات، وسوف نسافر إليهن، فهن تسع ونحن كذلك تسعة"**. وما أن رحلوا حتى طلب إليها الجنين الذى فى بطنها أن تلده في الحال، وعندما أبطأت الأم إذ به يسقط منها تحتها قائلاً: **"ناد أبى لكى يعطينى اسمًا"**. وقبل أن يعلن الأب له اسمًا عاجله الطفل قائلاً: اسمى **"باندِيا"**، ثم انطلق ليلحق بإخوته وكأنه يستبصر خطراً فعليًا واقعًا يحاول إقصاءه. وعندما رآهم تحول إلى كيس نقود، وسقط أمامهم استدراجًا

لاهتمامهم، فتجاوزه الأول الأكبر سنًا والثانى متبعين مسارهما بعماء غير مباليين بما يقع خارج أفكارهما. أما الأخ الثالث فقال: **"إنكما تركتما حافظة نقود ها هى"**، ثم أخذها وفتحها فوجدها ممتلئة بالنقود، فدسها فى جيبه ممارسًا الطى والحجب والإخفاء، من غير استقصاء، أو محاولة استيضاح. انحشر **"بانديا"** وغاب فى عتمة جيب أخيه، والذى بفعل الحجب كأنه قد قطع على **"بانديا"** طريق المرام. واصل الإخوة المسار جهة الشرق، حيث البنات التسع، وفى الطريق اشتد عليهم لهيب الحر، وأعلن كل منهم ضيقه من لفح حرارة الجو، فصاح **"بانديا"** من داخل الجيب: **"بى حر أشد منكم، أنا الموجود داخل الجيب"**. وما أن سمعوه حتى أخرجوه وجلدوه ورموه وسط العشب، وواصلوا السير أيضًا من دون أن يعيدوا التفكير فيما جرى كمحاولة لمساءلة وقراءة واستيضاح الحادث المثير، وذلك ما يؤكد الاتهام لهم بإسقاط الواقع وأحداثه من حسابهم، وسيطرة منطق الدحض وآليات القوة والإقصاء والاستبعاد، بلا إعمال الاجتهاد المتدبر بمرونة التبصر غير المتعسف مع الواقع دون التحصن بالمناهضة الدائمة والصدام.

عندما اقترب الإخوة التسعة من قرية البنات ظهر **"بانديا"** من جديد، لكن في هيئة صبي راح ينادي إخوته وهو يجري وكأنه يعاكس استمرارهم في مسار طريقهم الذى رسموه، فأمسكوه وضربوه وكادوا يقتلونه، فإذ بأحدهم يصيح عليهم: **"كفوا عن ضرب الصبي، فقبل ضربه كان عليكم أن تسألوه أولاً من يكون"**، فطرح بذلك الموقف المرجأ منذ ظهور **"بانديا"** في طريقهم، أي طرح موقف المقاربة لاستشفاف الواقع، فالمطلب يعني أن يكفوا تفكيرهم عن التعالي على الواقع، والتناهي عنه بالدحض والإقصاء، وضرورة الاشتغال على معطيات الواقع وتقصيه. على الفور سأله أكبرهم سناً، **"من أنت؟ وماذا تريد؟"**، فأجاب: **"أنا الطفل الذى تركتموه في بطن أمكم، واسمي "بانديا"، وجئت لإنقاذ حياتكم لأني رأيت أنكم ستلقون حتفكم في المكان الذى تتجهون إليه"**، فضمه الإخوة إليهم، ثم واصلوا طريقهم بلا تدبر فيما قال، أو التعليق عليه بالسلب أو الإيجاب. لقد تم فعل التساؤل، لكن شرط التعالي على الواقع والتناهي عنه ما زال مسيطراً، حيث الرغبة في

استيعاب ما طرحه **"باندیا"**، أو حتى القدرة على تقصيه، أو مجرد أن يسهم ما قاله في استنبات هاجس يشعرهم بأن هناك ثمة تهديد، كل ذلك حال دونه تصلبهم وإصرارهم العنيد على السعى للحصول على المأمول من رحلتهم، بلا مبالاة، وبلا تعرف أو حساب لاحتمالات تبديد المأمول، وكأنه مرهون فقط برغبتهم، وليس هناك من تحديات يمكن مواجهتها ويتعين توفر حساباتها.

وصل الإخوة من سفرهم إلى الشرق، موطئ المأمول، وبالمخالفة لكل الأعراف اقتحموا أسرة البنات، وكان لأم البنات طفل في سن **"باندیا"** ينام على السرير مريضًا. ولأن فعل الاقتحام المفاجئ أسقط بالتالى منهم الحياء. ويدد أيضًا مفهوم حق الآخرين؛ أعلن الإخوة فى صيغة الإبلاغ أن البنات التسع هن من الساعة لهم خطيبات، وبالطبع لم يستقرئوا المسكوت عنه من مشاعر الأم بالاحتجاج على ذلك الاقتناص والاقتناء المملى والمفروض، وإن تحلى وتلبس صيغة مشاركة الحياة. وحين جن الليل ذهب الإخوة التسعة للنوم مع البنات، وأمسكت الأم

بيد **"بانديا"**، وقالت له **"ستنام معى فأنت خطيبى"**، واتجهت به صوب الكوخ. وبينما الجميع يغطون فى النوم؛ أمسكت العجوز سكينًا وأخذت تشحذه، فاستيقظ **"بانديا"**، فسألته العجوز عما به، فأجابها: **"أريد أن أشرب ماء بئر يتم حفرها فى الحال"**، فإذ بها تخرج نحو باب الكوخ، وتضرب على فخذها، وتخبط برجلها على الأرض، فانفجرت بئر. حملت العجوز الماء، وأعطته **"لبانديا"** فشربه وتصنع النوم، وعادت الأم لشحذ السكين من جديد، فاستيقظ **"بانديا"** ثانية، فسألته: **"أى شىء يزعجك؟"**، فقال: **"أريد أن أقضم ذرة يتم حصدها فوراً"**، فاتجهت نحو الباب، ومارست طقوسها، وضربت الأرض فنبتت الذرة، وبضربة أخرى خرجت السنبلة، والضربة الثالثة أنضجتها فحصدتها، ثم وضعتها على النار وأعطتها **"لبانديا"**، فقضمها وحاكى أمامها أنه نام، وراحت العجوز تشحذ سكينها فاستيقظ **"بانديا"** وقال: **"أريد أن أشرب حليب بقرة تولد الآن"**، فخرجت الأم العجوز إلى قطيع بقرها، فأولدت إحداها عجلاً، ثم صيرته بقرة، فحلبتها وناولت **"بانديا"** الحليب فشربه، وكان

ذلك آخر مطالبه من الأم العجوز فى سلسلة مغامرات مطالبه الخارقة التى شكلت محض علاقة استطلاع مع واقع الأم، كطرح كاشف لغطاء أسرار قدرتها، حيث تعرف وأدرك آليات وخبايا إمكاناتها بتشخيصها كساحرة عبر راهن القرائن والأفعال، فقاده ذلك إلى ضرورة أن يحسن قيادة عقله وقدراته ليواجهها بوعى مضاد يتمعن ويتدبر بلا اعتباط، لذا فإنه بعد أن شرب الحليب شاكل وضع النائم. وهكذا فعلت الساحرة العجوز تمويهًا ومراوغة كى ينام، لكن **"بانديا"** غافلها وأمسك مسحوقًا سحريًا، ورشه فوق جسد العجوز فنامت نومًا عميقًا، عندئذ أسرع إلى الكوخ الذى فيه ينام إخوته مع البنات الخطيبات فبَدَّل الأغطية، بأن جعل أغطية البنات فوق أجساد إخوته، وغطى البنات بأغطية الشباب، وعاد إلى كوخ العجوز ورش عليها مسحوقًا آخر، ثم تمدد فى الفراش كمن تملكه النوم وفصله عن الوجود. أفاقت العجوز بفعل مسحوق اليقظة، وشرعت تشحذ سكينها، و**"بانديا"** لا يحرك ساكنًا، وكانت فى استفاقتها كالغافلين، إذ أقنعت نفسها بألا تخشى ذلك الطفل

الصغير، وذهبت إلى الكوخ الآخر والكل نيام، فذبحت البنات لأنهن كن مغطيات بأغطية الذكور، وعادت إلى كوخها وتمددت لتنام، فنثر **"بانديا"** مسحوقًا فوق جسدها فنامت، عندئذ أسرع وأيقظ إخوته، وقص عليهم ما فعله وما فعلته العجوز ببناتها ظنًا منها أنهن الإخوة المقتحمون، فهربوا على الفور مخلفين وراءهم ما أفرزه اقتحامهم من مأساة، وفى الصباح اكتشفت الأم حقيقة محنتها. ولأن الموت غير قابل للمراجعة، أو رأب الصدع، لذا انحشرت العجوز الأم فى مضيق متابعة الثأر ومبادلة الدم، فطاردتهم بكل وسائل السحر، فتصدى لها **"بانديا"** مزيل السحر حتى استطاع أن يصل هو وإخوته إلى قريتهم، لكن ذلك لم يكن يعنى انتهاء سياق إضمار الأم المنكوبة مواصلة توثبها للانتقام، فالجرح عميق، ويستوجب الإنصاف، والأطراف المتصارعة تتناسل بينها وتغذيها ممارسة أفعال الإكراه، التى تتخذ أشكالاً متعددة في أفق الصراع دون حزام أمان، لذا فإن **"بانديا"** عندما وصل مع إخوته إلى قريتهم جمع أهلها، وراح يوسع لهم بوابة الإدراك، ويحدد أمامهم

خارطة الإنذار والإجراءات، محذراً من اختراق الساحرة للقرية، وقال لهم: "ستصل القرية فتاة جميلة، لئن استضفتموها فسيصيبكم شر كبير". وبالفعل جاءت إلى القرية الساحرة وقد تحولت إلى فتاة جميلة، فتجارى إليها الشبان انبهاراً، ونسوا التحذيرات، بل استضافوها وأقاموا لها حفلة رقص وغناء، ثم ناموا. وبينما هم غارقون فى النوم فقأت الساحرة أعينهم جميعًا واختطفتها، وانطلقت تاركة وراءها شباب القرية حراسها من الانكسار، تركتهم عميانًا لا يبصرون. على الفور قصد "بانديا" مسكن الساحرة العجوز متنكراً فى هيئة طفلها المريض الذى أرسلته إلى "مطبب" لتلقى العلاج، فراحت الأم الساحرة تحادث "بانديا" على الوهم والالتباس بأنه ابنها المريض، وحكت له كيف اخترقت قرية "بانديا"، وحرمت شبابها الإبصار، واختطفت عيونهم وجمعتها فى إناء مستدير أشارت إلى موضعه فى الكوخ. وما أن اتجهت إلى البئر حتى حمل "بانديا" الإناء، وانطلق إلى قريته لينقذ شبابها من مساحات الفوضى والعماء باستردادهم طاقة الإبصار.

عاودت الساحرة ضرب القرية في رأسمالها البشرى، فاختطفت

بالافتتان، وفق حيلها السحرية، أطفال القرية، أى مخزونها للغد، وعتبة كيانها المتجدد فى الصمود أمام التهديدات، لكن **"بانديا"** تصدى لها، واستعادهم من جديد.

هو -إذن- صراع لا ينفك يستمر، تتعدد وتشتد فيه معارك الترصد والتسلط والتحامل والتخاتل حتى كانت ذروته فى ذلك الاكتساح حين جاءت الساحرة إلى القرية كاشفة عن وجهها الحقيقى بلا مراوغات، وجمعت حطبا وكومته، وأوقدته وأشعلت فى القرية النار.

تكشف هذه الحكاية الخرافية الإفريقية عن أسباب استمرار مشاهد الصراع، وتفضح وتحذر من كارثة منطق سلطة الانفراد بالقرار، وتعرى كيفية تناسل كابوس دوامة المعارك والمواجهات، فتؤكد أن الاقتحام -أيًا كانت الصورة التى يتحلى بها- لا يمكن أن يعفيه أو ينفى عنه معنى الاعتداء وانتقاصه من قيمة حرية الآخرين، وسلبهم حق التداول والخيار. كما تدعم الحكاية معنى أن العدوان يولد -كما حدث لأم البنات- مشاعر القهر والانخذال، ويغذى زخم الاستفزاز، ويدفع إلي البحث عن صور متعددة

للمواجهات، تتخطى كل الممتنع والمألوف، دفاعًا عن الحرية ، وإشفاءً للغليل. وفى الوقت نفسه تلفت الحكاية الانتباه إلي أنه مهما استخدمت معارك المواجهات من أساليب لدى أيٍ من جانبى الصراع، فهناك دائما على الجانب الآخر ما يعطل ويزيل الاستحكامات، حيث إلي جانب الساحر يظل مزيل السحر **"بانديا"** قادراً على جبر الأضرار، لكن أبرز ما تفرزه الحكاية أن القضية المتجددة على الدوام تكمن في ذلك العماء عن رؤية الأخطار، وعدم استجلاء الأحداث والأخذ بآراء القادرين على الاستبصار، وهو ما يشكل بداية كل خراب، إذ أشعل النار في البدء قرار سلطة الانفراد الذى اتخذه الإخوة التسعة باقتحام بلدة البنات وأسرتهن، وهو القرار المنتج للقتل ومبادلة الدم والسطو والاختطاف والخسران الذي طال كل شيء، وبلغ مرحلة إشعال النار بالقرية، وهى ذات النار التى يشعلها التقرير الرئاسى الذى وضعه معهد واشنطن للشرق الأوسط بعنوان **"الإبحار في عالم مضطرب: أمريكا والشرق الأوسط فى قرن جديد"**، والذى يدفع ويحث على الأخذ بانفراد سلطة القرار، ويطلب إلى الرئيس **"بوش"** نقل السفارة الأمريكية

إلى القدس، ليذكى تناسل دوامة المعارك، ويخرج بالنزاع من محيطه إلى دائرة صراع الأديان. وكما فى الحكاية الإفريقية يظهر **"بانديا"** الذى طرح استبصاره بكارثة ما ينتج من قرار إخوته التسعة، يظهر أيضًا أمثال **"بانديا"** من ذات مجموعة الشخصيات الأمريكية التى تنتمى إلى واضعى التقرير، وتحديداً من المجموعة الدارسة لهذا التقرير، والتى تمثل المنظور المعاكس والخطاب المضاد لبعض الإجراءات التى يدفع إليها التقرير، ويستحث الرئيس بوش على تنفيذها، وعلى وجه الخصوص نقل السفارة الأمريكية إلى القدس، حيث يتبدى رفضهم وتعارضهم واعتراضهم على ذلك الاختراق الذى يظهر بمظهر الاعتداء المكشوف بلا أية ذريعة إقليمية، فيطرح كل منهم استبصاره لما يجتلبه هذا الاختراق على مستقبل الاستقرار بالمنطقة، وأيضًا على المصالح الأمريكية. فنجد مدير معهد الشرق الأوسط، الذى كان يشغل مناصب تنفيذية في الإدارة الأمريكية، منها منصب وكيل مساعد وزير الخارجية لشئون الشرق الأدنى وجنوب آسيا، وأيضًا سفير حكومته فى الأردن **"روسكو. إس. سودارث"** يحدد -انطلاقًا من حساب استراتيجى-

الآثار الناجمة عن هذا الاختراق الذى يدفع بالأزمة فى الشرق الأوسط إلى ذروة صدام واسع يصعب إيجاد آليات لضبطه، إذ يرى **"أن البدء بعملية بناء السفارة الأمريكية فى القدس فى غياب اتفاق إسرائيلى - فلسطينى حول المدينة سيكون عملاً غير مناسب، بالإضافة إلى أنه يهدد بإثارة رد فعل إقليمى سالب وحاد ضد المصالح الأمريكية، وهى مجازفة لا تبررها المكاسب السياسية التى تعود على الولايات المتحدة من ذلك الإجراء، إذ إن من شأن خطوة كهذه أن تهدد بتحويل النزاع القومى الحالى إلى نزاع دينى عرقى"**. وأيضًا فى إطار سياق ذلك المنظور فإن **"آنتونى .إتش. كوردسمان"**، الذى يشغل مركزاً علميًا بمركز الدراسات الدولية الاستراتيجية، وأقدم مستشار للمركز فى التقويم الاستراتيجى يؤكد **"أن على الولايات المتحدة ألا تأخذ أية خطوة باتجاه نقل سفارتها فى إسرائيل"**. كما ينتظم فى مسار ذلك المنظور **"شبلى تلحمى"**، الأستاذ بجامعة مريلاند، والزميل الأقدم في معهد بروكنز، حيث يرى **"أن اتخاذ إجراءات نقل السفارة الأمريكية إلى القدس قبل التوصل إلى اتفاق فلسطينى - إسرائيلى يدل على**

بخس الأهمية المتعاظمة للرأى العام فى المنطقة، وينم عن موقف لا يناسب مهمة إدارة سياسة الولايات المتحدة في المنطقة بإفراطها فى الاعتماد على قدرة أمريكا على تقديم الحوافز والتهديدات لحكومات المنطقة، مع حد أدنى فى الاعتبار للمشاعر العامة".

ترى، هل تفضل الإدارة الأمريكية إشعال النار فى المنطقة، تمامًا كما فعل الإخوة التسعة في الحكاية الإفريقية، عندما رفضوا الاستماع إلى استبصار أخيهم **"باندبا"**، وأصروا على الاختراق، انطلاقًا من أن مشروع الولايات المتحدة -بوصفها قطبًا إمبراطوريًا وحيداً- يحتاج إلى ذاتية تضخم من حجمها باستمرار عبر استخدام القوة بالاجتياح كنوع من تكوين الحقائق، حتى وإن كان اعتماداً على تقرير يحمل فى أطوائه التناقض والزيف، إذ يعلن أنه **"ينبغى أن تعطى الأولوية لإيقاف الاتجاه نحو تحويل النزاع الإسرائيلى-الفلسطينى من نزاع وطنى إلى نزاع دينى عرقى"**، ثم في الوقت نفسه يدفع الإدارة الأمريكية إلى إشعال النار بالنقل الفورى للسفارة الأمريكية إلى القدس، إعمالاً للانفراد بسلطة القرار من دون

اتقـاء للمـحـاذير، أو ترى أن الإدارة الأمـريكيـة قـادرة عـلى استـيعاب استبصارات أبـنائها من المختصين الذين يحذرون من الآثار التى تنجم عن تنفيـذ ذلك الإجراء، ولا تدير وجـهها كما فعل الإخوة التسعة عندما لم يستوعبوا استبصار أخيـهم **"بانديا"** فاشتعلت النار؟!

هل القبعة زرقاء أم حمراء.. أم..؟!!

كان "**إدشهو**" آحد آلهة الخرافات الإفريقية القديمة يسير على الطريق وهو يرتدي قبعة ذات لون أحمر في أحد جوانبها، وذات لون أزرق في الجانب الآخر، ثم يستدير ويمشي باتجاه معاكس فتصبح قبعته تارة حمراء، وتارة زرقاء، وعندما يعود المزارعون مساء إلى قراهم كان بعضهم يسأل بعضًا: "**هل رأيتم الإله بالقبعة الزرقاء**"؟ فيجيب بعضهم الآخر: "**كلا، كلا، لقد كان يعتمر قبعة حمراء**". لقد أصبح كل من الفريقين أسير ما كان ماثلاً أمام عينيه، وغير قادر على الخروج من حصار الخبرة المباشرة للصورة التي رآها، لذا فهو يتمترس وراءها باعتقاد راسخ أن الآخر أصابه العماء أو الوهم، وعندئذ يبدأ الخلاف والسجال بين الفريقين. صحيح أن الاختلاف بين البشر ضرورة

للوصول إلى الحقيقة، إلا أن هذا السجال على الاختلاف يفقد معناه الإيجابى عندما يستغرق كل منهما فى مهمة الدفاع فقط، حتى يشكل موقف الرفض والنفى الدائم لرؤية الآخر لذة المعارضة والدحض، من دون الاشتغال على الحفر والتنقيب والمقاربة من الآخر، والقبول بالاختلاف وليس قمعه ومحاولة تجنيسه، وذلك عبر التقاط وإدراك الشروط التى تشجع على نمو القبول بالاختلاف، وتجلى القدرة على استيعاب تصورات الآخر بموجب حسابات الاستدراك والاحتياطات لاتقاء الوقوف على الظاهر من الأشياء فقط، وعدم مجافاة معرفة المحتجب على وهم اليقين بإسقاط المرء لكل ما لا يعرفه بذاته، باعتباره لا يطابق خبرته المباشرة، وفى إطار هذا المسار يتحقق الشرط الذى يعصم من أن يصبح الانغلاق والانكفاء على الذات هو نهاية كل سجال، بل يحمى محاولة اكتساب خبرات جديدة بدعم الاجتهاد الدائم على إعادة النظر فيما لا نعقله أو نصدقه، فالمأزق الذى وقع فيه كل من الفريقين أن كلاً منهما راح يكذب الآخر، ويدحض كل ما لا يتطابق مع أطروحاته، مختزلاً كل الرؤى فى رؤية أحادية، رافضًا

حتى فكرة تعايش الرؤى المفتوحة على الاختلاف. فمن الواضح أن الصورة التى رآها كل من الفريقين صحيحة، وقد ولدتها طبيعة الموقع الذى أطل منه "**الرائى**" مسجلاً رؤيته، فامتنعت عنه -بحكم موقعه- معرفة الصورة من جانبها المحتجب، والتى لا يكشفها إلا الموقع المغاير والمختلف، لذا تشكلت حالة القصور والعجز المعرفى لدى الفريقين معًا، نتيجة المعلومات التى أتاحتها الخبرة الذاتية المباشرة "**للرائى**" من جانبه، وأيضًا نتيجة أن هذه المعلومات لم تتحول إلى معرفة تحيط "**بالمرئى**" فى صورته الكاملة، أو تطرح تصوراً افتراضيًا لما يمكن أن تكون عليه الصورة فى كل أبعادها لذلك الذى يعتمر قبعة تبدو لبعضهم حمراء ولبعضهم الآخر زرقاء.

لكن ترى ما الذى دفع كل منهما إلى الكف عن التفكير فى المساحة الغامضة "**للمرئى**" صاحب القبعة الحمراء والزرقاء معًا، بل زحزح مركز الاهتمام لديهما بعيداً عن ذلك "**المرئى**" ، وبما يمكن أن تجرى أو يجريه هو على نفسه من تحولات مجهولة لهما، والتى سببت هذا الخلط؟ وما الذى ابتعد بهما معًا عن التفكير فى الممكنات

الكثيرة المحتملة لصورة "**المرئى**" حتى انحصر الأمر فى ادعاء كل منهما امتلاك الحقيقة! والإجابة مشمولها فى غياب المنعطف الذى يتحرر فيه كل منهما من تكذيب الآخر ودحضه وإقصائه، إنه ذلك المنعطف الذى يستجلب لديهما معا الانتباه لتوسيع قدراتهما على قبول الاختلاف، وشحذ المراس الذاتى لهما على الاعتراف بحق الاختلاف والإقرار به، ومغادرة عتبة السكن فى قناعة الإقصاء والتحرر من هيمنتها وأوهامها، وتحديداً التفكير فى إمكانية أن الصورة قد تكون ليست واحدة ولا وحيدة، وأنه ليس من حق أحد أن يختزل كل الرؤى تعسفًا كى تظل رؤيته هى الوحيده، والغريب أن الحكاية تخبرنا أن هذا الإله الخرافى كان عندما يحتدم سجال الفريقين ويصل إلي حد التحارب بينهما، إذ به يظهر ويكشف عن حقيقته، إلا أنه في أعقاب انصرافه ومواصلته السير بذات القبعة الحمراء والزرقاء يعاود الفريقين السجال والتحارب دفاعًا عن الصورة التى رآها كل منهما من موقعه.

الأزمة -إذن- هى فى ذلك الحسم دون إدراك من الفريقين أن هذا "**المرئى**" يموه نفسه فى صورة مزدوجة، ثم أيضًا فى غياب السؤال: هل

يمكن أن تصبح رؤية أى منهما رؤية ناجزة وحاسمة؟ ومن المنطلق نفسه طرح مهرجان القاهرة الدولى للمسرح التجريبى سؤاله: هل يمكن أن نختزل كل الوجوه المتعددة للتجربة الإبداعية الحية ونردها إلى صورة وحيدة؟ وكان السؤال الذى حاول المهرجان أن يثيره، يحمل - ضمنًا- الدفع بقيمة حرية الإبداع، والقبول بالاختلاف فى مواجهة أصحاب نزعة التعسف، التى تفرض ضرورة الانتظام فى إطار صورة وحيدة للإبداع المسرحى، وترفض ما دونها، تمامًا كما رفض كل من الفريقين فى الحكاية الإفريقية إمكانية أن تكون القبعة زرقاء وحمراء معًا، فى حين أن مسار المسرح على طول تاريخه يشهد ويؤكد مقاومته لهذه النزعة المغلقة التى تعارض التغيير، وتقف فى وجه الزمن، بل تحاول تعميم قيمها على محاولات الإبداع المغايرة لها كفئة مسيطرة، حتى بدت وظيفة المسرح وكأنها قد تحددت فى محاولة مقاومة التغيير والتجدد، وهو ما يخالف شحذه ودعمه للإنسان لممارسة تجدد رؤاه وإعادة النظر.

تقنع تيار مقاومة الحرية بكثير من الأقنعة، وكان أهمها الاتهام بأن اتجاهات التجريب تنحو إلى هجر اللغة، فى حين أن المسرح فن لغوى.

صحيح أن المسرح فن لغوى، لكنه أيضًا لا يرد إلى اللغة وحدها؛ إضافة إلى أنه ليست كل اتجاهات التجريب تتأسس على إقامة التواصل المسرحى من دون استخدام اللغة، كما أن المهرجان أيضًا لا يسعى، ولا يحتفى بتوجه قد حدده فى شكل معين من أشكال حرية الإبداع، إذ المشاركة فى عروض المهرجان من كل دول العالم، مشاركة مفتوحة على حرية أصحابها، وإلا غاير المهرجان وناقض دعوته فى أنه يفتح مساحة الإبداع الخلاق، بتعدداتها وتنوعاتها، إلى جانب كل الصيغ المتوارثة، ولا يحجر على إبداع بعينه، الأمر الذى يجسد الإيمان بأنه ليس هناك من طبيعة للإبداع ثابتة تتعالى على تجارب المبدعين، وتئد تصوراتهم واكتشافاتهم. ولما اتسع الاتهام جموحًا، بأن الاحتفاء بالتجريب يستهدف إسكات وخرس أداة التعبير عن الحرية، وهى اللغة، والعمل على اضمحلالها؛ عندئذ غدا الاتهام يفسح المجال إلى كل أشكال التسميم، بحيث تبدو الدعوة إلى الحرية ضد الحرية، ومن هنا كان الحرص -رفعًا للالتباس- بتوسيع حقل المعارف بالقراءات، وذلك بالترجمة عن لغات متعددة لمراجع وكتب ودراسات وبحوث مختلفة عن كل تيارات التجريب فى العالم، فى شكل إصدارات تتوازى مع العروض المسرحية

المقدمة خلال المهرجان، بل تبقى بعدها فى أيدى كل أصحاب هوى المعرفة لتجيب عن الأسئلة، وقد يتوصل بها حتى مَنْ هم فى وهم عزلتهم تصوروا أن آفاق الإبداع توقفت عند القوالب الثابتة، وأيضًا ليدركوا أن دعوتهم المتشدقة بالحرية دعوة زائفة، وأنها لن تقوض دعوة الحرية. أما مساحة المعرفة الثانية فهى الندوة الرئيسة، التى يشارك فيها فى كل دورة مجموعة مختارة من شخصيات الحركة المسرحية العالمية والمحلية من مبدعين منظرين من كل دول العالم، يتناقشون فيؤكدون، من خلال مناقشاتهم على الملأ، تنوع تيارات التجريب، وتلونها بعوامل اجتماعية وحضارية فى استجاباتها للمتغيرات والمستجدات، وأيضًا قابليتها لتبادل الخبرات وتواصلها.

وفى هذه الدورة تناقش الندوة الرئيسة قضية ساخنة بدأت إرهاصاتها عندما طرح المؤرخ **"فيرناند بروديل"**، فى أثناء حديثه عن انتقال الحضارات، مقولته **"إن مَنْ يُعطِ يَسُدْ"**، ثم جاء **"صموئيل هنتنجتون"** ليعلن أن على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التى تفصل الحضارات سيكون الصدام، وبأن **"الحرب العالمية القادمة إن حدثت فستكون حربًا بين الحضارات"**. وتبحث الندوة القضية من خلال سياق

سؤالها عن المسرح فى العالم: تواصل هو أم صراع، أملاً فى أن يتحمل المبدعون دورهم فى نزع فتيل الطرح الفكرى الحارق، الذى يُحِل الصدام محل تمايز الثقافات وتفاعلاتها وتواصلها، تأكيداً لما حذّر منه "ليستر بيرسون" الدبلوماسى الكندى الحائز جائزة نوبل للسلام «**من أن البشر يتحركون ضمن عالم يحتم على الثقافات المختلفة أن تتعلم العيش جنبًا إلى جنب، وتتبادل فيما بينها بسلام، وتتعلم من بعضها، وتطلع كل واحدة على تاريخ الثقافة الأخرى ومثلها العليا وفنها وثقافتها، وتعمل كل واحدة على إغناء الأخرى. والبديل ضمن هذا العالم الصغير الشديد الاكتظاظ هو سوء الفهم، والتوتر، والصدمات، ومن ثم الكارثة**»، إذ لا يستطيع أحد أن يدعى أن هناك حضارة غربية خالصة ليست مشحونة بتأثيرات خارجية، كما يعترف الأمريكى "**مارك هاينز دانيال**" فى كتابه "**عالم محفوف بالمخاطر: استراتيجيات الجيل القادم فى عصر العولمة**" بأن «**الحضارة الغربية فى ذاتها نتيجة للتضامن الثقافى والاندماج على مدى ألفية من السنين من تمازج ثقافات أخرى، إسلامية، وكلاسيكية، وسامية، ومسيحية-يهودية على أسس نشوئية، وأن ما يسمى إدعاءً بالثقافة**

الغربية الوحيدة السياق، هي في ذاتها قد نهلت من أصول مختلفة، هي -في الحقيقة- حالة دائمة من التطور» ، حيث يعود مؤكداً أن «هناك سببان للتشجيع على التنوع الثقافي، والسهر عليه بشكل يمكننا من معايشته في حياتنا. والسبب الأول فردي وذاتي، وهو الرغبة في العيش في عالم من الخيارات والتجارب المختلفة من أجل إغناء حياتنا الخاصة، ونضيف الوعي إلى خياراتنا الأساسية، ونوجد خياراً في مكان عيشنا، وكيفية معيشتنا ، وماذا نتعلم، وما الذي يجب أن نعلمه لأولادنا. وعلى المستوى الثاني الأكثر جماعية، لا بد للتنوع الثقافي أن يزدهر لكي يتيح للحضارات أن تتطور تطوراً بنيويًا يندمج في غيره وقت اللزوم، ويخرج عنه وقت الضرورة، ولن يعمل توحد ثقافي مفروض إلا على إغراق البدائل التي سوف تتآكل ويزيد الضغط عليها ، وإن لم تكن الثقافة المكبوتة في غاية الصدق فسوف تنفجر عنفًا أو ثورة في المستقبل» .

ولا شك أن محاولات التجنيس لمساحات الوجود الإنساني بتعدده وتنوعه وتمايزاته -ومهما تقنعت آليات الإكراه عليه- لا تنتج سوى ممارسات خطرة وتستولد التحارب والعنف، بل تناهض التجدد

باستهدافها القمع والإقصاء والتصفية لكل ما لا يتطابق مع أنموذجها ورؤيتها ، فتطعن الحرية فى مقتل. إن حق الاختلاف هو رهان الحرية في مواجهة محاولات التجنيس، كى تنفتح على المختلف، وتدرك أن القبعة يمكن أن تكون زرقاء وحمراء معًا!!

الكـــابوس

كان الموقف الطارئ الذى حط بالضابط الشاب كاشفًا عن مدى استجابته لنداء الاستنجاد الذى جسده طلب عمته العاجل، أن يساعدها فى إدارة شئون أملاكها التى مارست إدارتها لها بنفسها طوال سنين عدة بقوة متميزة، لكنها الآن تواجه عجزها الراهن عن الاستمرار فى تحريك العمل نتيجة قسوة منعطف الزمن ومتغيراته. على الفور واجه الضابط الشاب الموقف من دون أن يضع له هدفًا سوى أنه اصطفى الإسهام الإيجابى فى نجدة عمته، وهو ما تمليه وتفرضه طبيعة تكوينه، فاستقال من منصبه من دون أن يصاحب خياره هذا أى ارتباك مبدئى، أو تقاعس أخلاقى، تقديراً لظروف عمته التى بعثت إليه تستجير به. ولحظة أن وصل إلى المزرعة، وقف

مذهولاً تحت دهشة لا تصدق، حين لاحظ حيويتها وعافيتها كما كان عهده بها، فسقط فجأة السبب الذى استدرجته به، وأدرك أن فى الحكاية إذن ما لم يقرأه من قبل، وأن الموقف الراهن لو قرأ بمنطق السبب لحكم عليه بالكذب، إلا أن العمة عاجلته بالسبب الحقيقى من وراء دعوته؛ إذ إنها عقدت عزمها على تزويجه، بل إنها قد اختارت له العروس زوجته، فاجتاح قرار العمة فيض وجوده، وصدمه رعب فقدانه ممارسة حرية اختيار أهداف حياته وتحقيقها، واكتشف أنه استدرج ليقع فى شرك الخضوع لأوامر حازمة وإملاءات محددة، تصيب يقينه بحريته وسيادته علي أفعاله بالتكسر، وتنفى وجوده وتختزله فى رد فعل واحد هو الموافقة. فهل يمكن هذا السيناريو الوهمى الذى صاغته عمته أن يصنع حقيقة واقعة نافذة، تلبسه رداء الاستتباع، وتبطل ممارسته لخياراته؟ أى أن يتنازل إرادة وقسراً عن شخصه وسيادته، ويصبح لا أحد، فيلحق بشخص عمته، ويغدو ملصقًا بها يأتمر بأمرها، وذلك هو حدود الموقف المتعين راهنًا وفق قرارها، والذى سوف يستكمل ملامحه

النهائية لحظة خضوعه لأمرها. وبالتأكيد لن يتعين الموقف المغاير إلا عند عدوله عن السلب، ورفضه الخضوع لها، فالمأزق يستوجب تفكيراً جديًا؛ فإما أن يخضع للقرار ويصادق عليه، ويقبله، وإما أن يخرج عليه، ويمتنع عن إقراره، ويرفضه، فاعتصم الضابط الشاب بسؤال عما يمكن أن تكون عليه حياته إن هو انخرط فى الفخ، واستسلم لذلك الاستحواذ على كيانه وإرادته، إذ إن مشكلته مع أفكاره ومبادئه، والأمر لا يتعلق بالنفى والقبول فقط، بقدر ما يتعلق بالإجابة عن سؤاله، أى ضرورة إبحاره إلى مساحة معرفية تنبؤية تصل به إلى اللا مكتشف وغير المرئى فى حياته المقبلة إن قبل أو رفض، وعماد ذلك إعمال جهد العقل العارف الذى يمتلك أن يطرح استبصاراً لصورة حياته فى ضوء القرار المفاجئ الذى يواجهه. ومثلما كان الفنان التشكيلى "**سيزان**" يرسم كثيراً من صوره الشخصية عبر مراحل عمره، مستخدمًا "**المرآة**" فى محاولة أن يجعل ما لا يراه "**سيزان**" فى شكله وهيئته مرئيًا ومجسداً بالخط والشكل واللون معًا، ليتعرف حال هيئته وصورته بعد كل مرحلة زمنية فى

حياته، وما طرأ عليها من تغيرات. فى تصورى أن هذا ما فعله الضابط الشاب، فقد سعى أن يصبح مرئيًا ومجسداً بالنسبة إليه شكل حياته، وما سوف يكونه فى ضوء قبوله قرار عمته. ولا شك أن فكرة **"الحضور"** المرئى لحياته المقبلة، جعلت العقل الواعى يتخلى للعقل الباطن عن دوره، كى يفيض بآلياته التى تسمح له بتحقيق فكرة الحضور المحسوس الشاخص، وليس الموصوف المتصور، لذلك فإن عمق استشعار الضابط الشاب بمعنى قرار عمته فتح أمامه مساحة رؤية تفصيلية لصورته مجسدة حال امتثاله وقبوله القرار، إذ شخصت له مرآة الاستبطان الداخلى فجيعة وهول فقدانه حريته وسيادته، وذلك عبر سلسلة هائلة من الكوابيس التى هاجمته فى نومه، وحاصرته بالإكراه من قبل السيطرة المستبدة للقرار، وقذفت به فى قبضة معاناة خانقة، سببتها له تلك الزوجة التى اختارتها له عمته، وأصبحت بفعل ذلك الاختيار بديلاً عن سطوتها مجسداً، فمارست عليه كافة أشكال التسلط والقهر لإرادته، فأحس وكأنه يعيش فى نفق تتكاثف ظلمته. لقد طرحت تلك

الكوابيس له عالمًا موازيًا يسقط ويمحو عالمه الحقيقى، بل شكلت نوعًا من الاشتغال النقدى على قرار عمته، استهدفت به حماية استقلاله، إذ الحضور المشخص الذى جسدته -سمعيًا وبصريًا- أعطى معنى الممانعة للقبول بالقرار، وشحذ لديه موقف الدفاع عن احتلاله عالمه، باستحضار كل مفردات أنواع الرعب والمعاناة فى لحظات مكثفة ومتعددة، فهو لم يعرف مثل هذه الكوابيس المشوشة من قبل، فقد حلم أولاً أن كل شىء من حوله كان يحدث دويًا رهيبًا مستمراً ولا ينقطع، وبأنه كان يجرى ويجرى من دون أن يحس بالأرض تحت قدميه، حتى لم يعد فى مقدوره أن يجرى أكثر... وعلى حين غرة أمسك به شخص من أذنه قائلاً: أنا زوجتك. ثم تراءى له حلم آخر، بأنه متزوج من قبل، وبأن كل شىء فى البيت بات غريبًا جداً وفريداً، وبأن هناك سريراً لشخصين فى غرفته بدلاً من سرير واحد. كانت زوجته تجلس على أحد الكراسى، وكان حائراً تمامًا بشأن ما يفعله، ما إذا كان يتعين عليه أن يذهب إليها ويكلمها، ثم لاحظ أنها تحمل وجه إوزة، فنظر إلى الجهة

الأخرى، فرأى زوجة أخرى، وكان لها وجه إوزة كذلك، فنظر من جديد، فكانت هناك زوجة ثالثة، ثم نظر إلى ما حوله فكانت هناك رابعة أيضًا. انتابه الهلع، وهرب إلى الحديقة، غير أن الجو كان حاراً هناك، فخلع قبعته فكانتِ هناك تجلس فى القبعة زوجة، وكانت قطرات العرق تسيل من وجهه، فبحث فى جيبه عن منديله فوجد زوجة فيه، وأخرج بعض القطن من أذنه فكانت هناك زوجة أيضًا. وفجأة أخذ يثب هنا وهناك، ونظرت إليه العمة، وقالت له بنبرة جادة: نعم، بإمكانك أن تثب هنا وهناك لأنك متزوج الآن. التفت إليها، فإذ بالعمة تحولت إلى برج جرس، ثم أحس وكأن شخصًا يسحبه إلى القمة، فصاح بنبرة مفجوعة يسأل: من يسحبنى إلى أعلى؟ فإذ بالإجابة تأتيه: أنا، زوجتك. وإنى أسحبك إلى الأعلى لأنك جرس، فصاح زاعقًا: كلا، لستِ جرسًا؛ إنى **"إيفان"**. فإذ بضابط اتفق أنه كان ماراً فى ذلك الحين يصيح قائلاً: كلا، إنك جرس. ثم رأى حلمًا آخر؛ أن زوجته لم تكن إنسانًا البتة، بل نوعًا من الصوف، وقد ذهب إلى محل فسأله صاحبه: أى نوع من المواد

تريد أيها السيد؟ هل تأخذ قليلاً من الزوجة؟ **إنها** آخر الموضات الآن، فضلاً عن أنها من النوع الفاخر، **إن** كل المعاطف التي يرتديها المرء مصنوعة منها. وبالفعل أخذ صاحب المحل مقاساته، وصمم له الزوجة، فحملها **"إيفان"** تحت إبطه، وتوجه إلى خياط يهودي، الذي بادره بالقول: كلا، تلك مادة رديئة جداً، ما من أحد يستخدم ذلك النوع من المواد لصنع المعاطف الآن.. استيقظ **"إيفان"** مرتعداً والعرق يتصبب منه وقد أفاق من كابوس ممارسة التسلط والقهر.

هذه الصاعقة النفسية التي صورها الكاتب الروسي **"جوجول"** في قصته الرائعة **"إيفان فيودوروفيتش شبونكا وعمته"** عام ١٨٣١، تجسد حال مواجهة **"إيفان"** الضابط الشاب لسطوة قرار يخص سيادته، وحريته، وعلاقته بمستقبله، فكان حكمه الرفضي لذلك القرار مبنيًا على تصوره وتقديراته الاستشرافية لمستقبله في ضوء قبوله لذلك القرار. صحيح أن كلاً من **"إيفان"** والفنان التشكيلي **"سيزان"** استدعى الزمن، إلا أن **"سيزان"** استحضر الماضي ممارسًا المراجعة لهيئته بعد مرور

الزمن، أى عقب إتمام مرور الأحداث، والمؤثرات، والمتغيرات، استدراكًا لما فات. أما **"إيفان"** فإنه استدعى زمن المستقبل، ممارسًا الاستشراف للمقبل من الأحداث قبل وقوعه، مستطلعًا المخفى والمحتجب، مستهدفًا التحسب بالاستباق وليس بالانتظار.

بالطبع لا خلاف على أهمية مراجعة الأحداث تحقيقًا لقيمة الاستدراك، لكن لا شك أن صميم الاستثمار الفكرى الاستراتيجى يكمن فى استشراف المستقبل استنطاقًا لنتائجه، إذ تعزى إليه خصائص الفهم المثير للأسئلة لكشف المخفى والمحتجب، فى مواجهة ما يداهمنا من طروحات تنزل علينا بقصد اختزال وعينا وإجباره على التعامل معها كما هى من دون مساءلة، استحواذاً على مسيرة الحياة وفق سيناريوهات تحتكر لصانعيها وحدهم القرار والفعل، بوصفها سيناريوهات أريدت لنا، وليس من المطلوب تغييرها، إلا أن استشراف المستقبل يمنح نفسه حق الحقوق كلها، بقدرته على مناقشة كل ما يطرح؛ بإثارة الأسئلة، وإعادة ترتيب العلاقة بين الأفكار

والواقع. وقد كان موقف الرئيس مبارك من قضية الإرهاب معتصمًا بذلك الاستشراف للمستقبل؛ فقد أذان الإرهاب - الذى عانته مصر، وكان من قبل ومبكراً قد حذر محتضنى قياداته ورموزه- ثم نادى بضرورة عقد مؤتمر دولى لمناقشة هذه الظاهرة، حيث يتم من خلاله التداول، وطرح الأسئلة التى تؤسس أجوبتها صيغة التعامل مع الظاهرة. واستشراف الرئيس مبارك يؤكده ما يحدث راهنًا؛ فقد أدرك أنه إذا ما ترك أمر ظاهرة الإرهاب دونما تحديد، فسوف تتخذ تدابير من شأنها أن تنتهك سيادة دول، بل يصبح الاتهام بالإرهاب مسوغًا لاختراق الشرعية والسيادة، والتدخل الخارجى على الأصعدة كافة، ومن ثمة الإذعان لفوضى عالمية من الإرهاب المضاد، تتوالى فى ظلها اعتداءات متوالية، واختراقات لا حدود لها تقود إلى كوارث مفزعة.

تحقق استشراف الرئيس مبارك؛ إذ الصقور فى الإدارة الأمريكية يشحذون الطاقات لضرب العراق، ويساندون إسرائيل فى إرهابها بتصفية الشعب الفلسطينى، وكل هذه الممارسات

يظلها شعار مواجهة شبكات الإرهاب العاتية، واحتواء التهديدات، وذلك بلا أى اعتبار للشرعية الدولية كمرجعية، وهو ما كشف عنه "آيفو هـ. والدر"، فى مجلة العلاقات الدولية، من أن "الولايات المتحدة راحت تسعى فى السنوات الأخيرة إلى زيادة حريتها فى العمل إلى الحد الأقصى، وتقليل القيود على تصرفها من أجل احتواء التهديدات، ودحرها وحدها عند الضرورة، وهو فى الواقع حافز يتسم بأنه أحادى الجانب، ذلك أن ذوى النزعة الأحادية الجانب يحتلون مناصب مرموقة فى الإدارة الأمريكية، فهم يفضلون الاعتماد على الذات، ويرفضون النزعة إلى العمل الجماعى، والمعاهدات الدولية باعتبارها قيوداً غير ملائمة على قدرة أمريكا على تنفيذ إرادتها، فهم يفضلون القوة الصلبة، والجبروت العسكرى، والعضلات الاقتصادية، والزعامة الدبلوماسية، على القوة اللينة، والمعاهدات والأعراف الدولية، ومنابر التفاوض...أما المشاورات فهى من أجل التحدث، وليس الاستماع، والمساومة تنطوى على أخذ لا على عطاء. إنها السياسة الخارجية الواقعية العنيدة القائمة على الفكرة القديمة القائلة إن القوى يفعل ما يشاء، أما الضعيف فيفعل ما هو مضطر إليه".

ترى، هل يمكن أن نفيق -مثل الضابط "**إيفان**"- من ذلك الكابوس؟ وهل الطريق إلى ذلك يتحدد كما رسمه "**ستانلى هوفمان**" فى محاضراته التى ألقاها فى نادى الصحافة الدولى بباريس فى إبريل ٢٠٠٢ "**بما أن المستقبل غير محدد، وبما أن رموزه غير قابلة للحل، وبما أن الحاضر ليس مطمئنًا، فتقع على عاتق المتخصصين فى العلاقات الدولية مهمتان، أولاهما: يجب عليهم فهم ما يحدث، وثانيتهما: عليهم أن يعرضوا وجهات نظرهم حول الخطوات الملائمة التى يجب على أصحاب القرار والنخب والمواطنين العاديين اتخاذها، لكى تسير المجتمعات، أى مجتمع الدول والمجتمع العالمى على حد سواء، فى اتجاه الضوء لا فى اتجاه الهاوية**".

فهل هناك من أمل لإعمال سلطة المراجعة المسئولة لاستدراك ما حدث كى نفيق من الكابوس؟!!

ما الـذى يصلح إذن؟!!

كان "**فونس**" قبل حادثة سقوطه من فوق الحصان ينظر دون أن يرى، ينصت دون أن يستمع، ينسى كل شيء، كل شيء تقريبًا ، وحين سقط فقد وعيه، وعندما أفاق كان الحاضر لا يغتفر. لقد اكتشف بعد السقوط أنه كسيح، لكن ذاكرته معصومة من الخطأ، إذ أصبح يتذكر تكوينات السحب الجنوبية فى فجر الثلاثين من أبريل عام ١٨٨٢ ، بل يستطيع أن يقارنها فى الذاكرة بخطوط ورق الكتب التى رآها مرة واحدة فقط، وبخيوط الزبد التى خلفها مجداف فى النهر. وتلك الذكريات لم تكن بسيطة، إذ إن كل صورة بصرية مرتبطة بأحاسيس عضلية حرارية. إن قدرة "**فونسَ**" الغريبة على فك طيات الماضى هيأت له استطاعته لاستعادة يوم كامل بلا أى تردد ، لكن هذا الفيض

من التذكر كان يقصى الزمن الحقيقى للحياة المعيشة بأحداثها ، إذ كل يوم مستعاد كان يستغرق يومًا كاملاً، بمعنى أن الزمن المستعاد يصنف بكونه زمنًا حاضراً، مع أن أحداثه كلها ماضية. ولقد رسخ لديه ارتحال ذاكرته يقينًا بأن لديه -وحده- ذكريات تفوق كل ما تذكره البشر كافة منذ أن صار العالم عالمًا. لم يكن **"فونس"** يتذكر كل ورقة فى كل شجرة على كل جبل فقط؛ بل يتذكر كل مرة رآها، وعانى **"فونس"** دقة تذكره، وضايقته مشقة فهم أن **"الكلب"** الذى يكون فى الساعة الثالثة وأربع عشرة دقيقة، لو نظرنا إليه من جانب، فإنه يحمل نفس مسمى **"الكلب"** الذى كان فى الثالثة وأربع دقائق لو نظرنا إليه من الأمام، إذ يجده **"فونس"** مختلفا ومغايراً، حتى وجهه نفسه ويداه كانت تفاجئه فى كل مرة. ولا شك أن هذا الإحساس يؤكد أنه لم يكن قادراً على إدراك الأفكار العامة، فتذكره الدقيق للأشياء والمرئيات فى حالاتها المتعددة، أمسى مجرد معلومات وأخبار لما وقع، ولم يرقَ هذا التذكر لديه إلى مرحلة الفهم.

صحيح أن ذاكرة **"فونس"** المعجزة تجعله قادراً على استعادة ارتسام الصور، كمعلومات موصوفة بحالة اللا استقرار، لكن على

الجانب الآخر، فإن هذا الاستغراق فى التذكر يحول دون عمل العقل، ويمنع تدخله، ويعطل ممارسته لفعاليته، فوظيفة العقل لا تتم، بل لا يتمكن العقل من تشغيل وظائفه كافة، إلا إذا اقترنت المعلومات بالفهم، الذى يحول الجزئى إلى كلى باستقراء التجربة المستعادة، وإدراك ترابط الوقائع، وتكرار الاقتران بين السابق واللاحق فى تسلسل الأحداث والأشياء، عندئذ يتمكن العقل من وضع الإطار، وصياغة المفهوم، وإعمال بقية وظائفه من المضاهاة والتقويم والنقد، والحكم على مايسترجعه.

لقد امتلك عبر تاريخ البشرية بعض الناس قدرة من حالات الذاكرة الإعجازية، مثل **"قورش"**، أحد ملوك الفرس، الذى كان يدعو كل جندى فى جيوشه باسمه، وكثير غيره. أما **"فونس"** فإنه يمارس -بدقة متناهية- استعادة الماضى كما هو، أى بذات تفاصيله وملابساته وسياقه، وبذات زمانه، فيتمدد الماضى الذى يستذكره على الحاضر، ويتسيد عليه، ويبطل الفكر. وقد شكلت هذه القدرة الاستثنائية لـ**"فونس"** مأزقًا حياتيًا رهيبًا حرمه حقوقه كإنسان، إذ أبطل صلاحيته فى ممارسة التفكير وإعمال العقل فيما

بتذكره، والوعي به، والتدبر في شئونه، وفرض عليه الأسر في زنزانة التذكر السلبي الدائم والمفتقد للاستفاقة التي تبيح له الفهم حين يمارس العقل مجمل وظائفه. لقد كانت محنة **"فونس"** أن قدرة ذاكرته، بتسترها على آليات التفكير والعقل، قد مارست الحجب للتفكير بقدر استدعائها للماضي بدقته؛ بل حصنته ضد حق مشروعية أن يشتغل عليه الفكر، أي أنها كانت تخدعه باستطراداتها، وبما تستعيده من الذكريات، فتقيم حاجزاً بين ما يتذكره وبين التفكير فيه، فتلغي وتقصي ذلك الاشتباك بين العقل والذاكرة، وتستوفي -عندئذ- شروط تقويض معنى الحياة الحاضرة، حيث منطق الذاكرة يحكم ويزحزح الحاضر، فيهيمن ويستبد بسلطان سياقه، ويتمدده السلبي كمجموعة وقائع انفلتت من زمانها، واقتحمت راهنه، محصنة ضد الاشتغال العقلي بامتداد فيضها المتدفق، حيث في غياب العقل تصبح هذه الوقائع غير قابلة للقراءة، أو التأويل، أو التفكيك، أو الحفر؛ وإنما يعاد إنتاجها لتنتشر كما هي، وتتداول بذات تشكلها وترتيبها، ويذعن لها **"فونس"** بصورة آلية؛ لذا صار **"فونس"** بعد فقدانه قدرة

التفكير كسيحًا مقعداً، أي مفتقداً صلاحيته الإنسانية بافتقاده إمكانية إعمال طاقة العقل والفكر، إذ فقدانه استطاعة التحرك الجغرافي، التي تجسدت في عدم مبارحته مكانه، إنما يعنى دلالة العجز عن الانتقال بين الأزمنة، وعلامة إجهاض لحقه الإنساني في ممارسة التفكير في الأحداث التي مرت به. فمأساة حياة **"فونس"** جوهرها أن حالة التذكر البالغة الدقة والاكتمال، قد اعتقلته في وضع الاستعادة الدائمة لحياته السابقة، فتقهقر وضعه الإنساني بانقطاع تواصله مع حاضره كإنسان من حقوقه المشروعة أن يواجه بالتفكير حياته الماضية والجارية، فإذ به يحرم أن يحيا زمنه بارتداده إلى الماضي، والتوقف عند عتبة تذكره من دون أدنى إسهام بالتفكير فيه أو تأمله، بل استعادته كمحض وصف تسجيلي دقيق معجز في استعادته، فيسكن ويستعمر حاضره من دون مراجعة، فيفقد **"فونس"** بذلك حيويته وتجدده بفعل جموده وآلية تذكره، وقمع الذاكرة واغتصابها لعقله بمجمل وظائفه.

يصف لنا **"راوى"** حكاية **"فونس"** ومأساته، أنه عندما شاهده - بتعبير الراوى- **"رأيت وجه الصوت الذى راح يتحدث طيلة الليل،**

لاح لى أثريًا كالبرونز، أقدم من مصر، سابقا على النبوءات والأهرامات. فكرت فى أن كل واحدة من كلماتى، كل إيماءة منى، ستدوم فى ذاكرته التى لا ترحم؛ أعاقنى الخوف عن مضاعفة إيماءاتى غير المجدية". هكذا أوضح "**الراوى**" بشهادته ما أضحت عليه هيئة "**فونس**" كقرينة بالغة الإيحاء، على أن حالة التذكر لم تعد لحظة تذكر يذهب إليها ثم يرتد عائداً إلى راهنه، بل استحالت حالة تذكر دائمة، غدت معايشة تامة ممتدة عزلته عن حاضره، فبدا "**فونس**" على المجاز -كما يصف الراوى- كما لو أنه قديم؛ لانقطاعه عن حاضره، ولأنه لم يكن يمتلك تلك العلاقة التى تربط ذاكرته بعقله، وأصبحت ذاكرته هى البديل عن حياته الحاضرة، وصار يتنفس هواء زمان غير زمانه، فلم يحتمل صدره استمرار ودوام ضخ هواء الماضى، ولم يستجب له، فارتبكت أحواله، وعندئذ مات "**فونس**" باحتقان فى الرئة.

إن قصة "**فونس قوى الذاكرة**" للكاتب الأرجنتينى "**چورچ لويس بورخيس**"، تكشف عن ذلك الخلل فى حياة "**فونس**" من حيث علاقته بذاته وفكره وواقعه، وتقهقر خصوية وجوده وثرائه، حين تعرى معنى المفارقة فى حالته، بأن التذكر ليس

العيش فيما نتذكره، بل لا بد للعقل أن يتدخل بمجمل وظائفه ليؤكد للمتذكر أنه إنما يتذكر أحداثًا سابقة، وليس عليه أن يعيشها وتتلبسه، فالتذكر محض عملية استحضار تستهدف الاستطلاع والمعاينة، وليس نقلاً للأحداث، وإحياءها بمعايشتها بزمانها، بحيث تصبح نفيًا للراهن، وإقصاء له. فملكة الذاكرة الدقيقة تعنى امتلاكنا القدرة على استذكار كل شيء، كجواز مرور يؤكد حيازتنا فهمًا ومعرفة للحدود بين الأزمنة، يسمح لنا بالانتقال بينها، والاتصال بها، لكنه لا يعني محو الحدود بين الأزمنة وتمايزاتها، والإقامة والسكن فى سياق الماضى والانخراط فى بنيته المسبقة والالتحام به، فالحياة ليست ما نتذكره فقط؛ بل هى أيضًا ما ننجزه، وكذلك ما نستشرفه لنؤسس للمقبل من الزمن، وجواز المرور المؤكد لحيازتنا الفهم والمعرفة، هو الذى يسمح لنا أن نعيش راهننا، ولا نجهل أمسنا، ولا نعجز عن استباق الغد.

إن "**الراوى**" الذى تربطه بـ"**فونس**" علاقة صداقة، وأيضًا يرمز إلى ويمثل الراهن المتحقق فى مواجهة الماضى المتدفق بالاستعادة

دون إدراك من قبل **"فونس"**، نراه فى المشهد الأخير من هذه القصة الرائعة، يبوح بيقينه القاطع بيأسه فى علاج حالة **"فونس"**، عندما أعلن إدراكه بأن كلماته له كلها مصيرها التسجيل، إذ تلتقط للحفظ فقط فى ذاكرة **"فونس"** التى لا ترحم، وهو ما يعنى أنها أصبحت بلا فعالية، ومجال استثمارها الوحيد فى إمكانية استعادتها ثانية. أما وزن تأثير شحنتها الواقعة للتفكير والوعى، أيًا كان هذا الوزن، فلا تأثير يبلغه، وإنما يتم استقبال الكلمات كبصمات وعلامات، ويجرى تعليبها للحفظ ولحين استدعائها، من دون أدنى تفكير فى مقاصدها. فمهارة **"فونس"** اللافتة والمعجزة فى أنه يستقبل ويحفظ، ثم يردد ويستعيد ويتلو للآخرين ما يستعيده، أى أنه يقوم بذات عمل أداة أو جهاز تقنى، والفارق أن الاستعادة بدلاً من أن تأتى عبر **"أداة"** أصبحت تأتى عبر **"ذات إنسانية"** قد تم محو العقل، وإقالة التفكير منها باعتبارها دليل الإنسان إلى إنسانيته، والذى يتيح له ممارسة حق الفهم، وطرح الأسئلة، وإعمال العقل لوظائفه كافة، عندئذ تفقد كلمات **"الراوى"** وأقواله تأثيرها، وتصبح لا قيمة لها، بل غير مجدية. لذلك فإن

"**بورخيس**" فى قصته الموحية ينبهنا على ضرورة الأخذ باحتراز وقائى أشار إليه "**الراوى**" تضمينًا فى حديثه، عندما باح بأنه قد أعاقه الخوف عن مضاعفة إيماءاته غير المجدية عندما كان يستمع إلى"**فونس**" وهو يستعيد الأحداث الماضية، فقد أدرك "**الراوى**" أن "**فونس**" يمارس إعادة إنتاج الماضى من دون إعمال العقل لوظائفه، بل يئس من إمكانية علاج حالته. أما الخوف -كل الخوف- الذى تنبه له "**الراوى**" فهو مرحلة التوزيع والترويج والتسويق للآخرين، فقد خاف "**الراوى**" من أن يتحول آليًا بفعل استماعه إليه إلى حالة "**فونس**"، وتنتقل إليه عدوى معايشة الزمن المستعاد بمعطياته التى لا تستضىء بوظائف العقل ومستجدات المعارف، خاف مما تفرضه حالة "**فونس**" من استعادة الأحداث من دون ملازمة لها لفعالية طاقة التساؤل والفهم، وتدخل العقل وتشغيله لملكاته كافة، فقرر الكف فى سلوكه عن أى تواصل معه ما دام حديثه غير مجد، ولا تأثير له، حفاظًا على حريته، إذ جوهر الحرية أن يمارس الإنسان التفكير فى المنقول إليه من الأفكار والأحداث، ولا يسمح لها أن تأسره، ومن أول حقوق الإنسان أن

يتساءل، وألا ينتزع منه جواز سفره بين الماضى والراهن والمقبل من الزمن. ورغم موت "**فونس**" بفعل فقدانه جواز مروره بين الأزمنة، إلا أن "**بورخيس**" ساق لنا وصيته الوقائية لمواجهة العدوى على الأقل.

لكن فى عصرنا تتعدد "**الذوات الإنسانية**" التى تصدر إلى الآخرين -عن قصد- اليقينيات لمعتقدات ثابتة غير مفتوحة على إمكانية طرح الأسئلة ومحاولة الفهم، وتمارس لترسيخها أشكال الدعم كافة، بدءاً من الإلحاح الإعلامى، والحرج السياسى، واستعراض الجبروت والقوة، إلى كل وسائل الحجب. ترى هل تصلح لمواجهتها وصفة "**بورخيس**" التى ساقها لنا فى قصته؟!! وإن لم تكن كذلك، فما الذى يصلح إذن؟!!

افتقاد الحكمة

كانت إحدى الطرائق المتبعة لدى الهنود ، السكان الأصليين لأمريكا ، للحصول على اللحم من أجل الشتاء ، تتمثل فى إجادة دفع قطيع الجواميس لجعله يمشى فوق جرف صخرى حاد الانحدار ، وبذلك يتعثر القطيع كله ، ويسقط من أعلى ، فيتم ذبحه بسهولة عند أسفل الجرف ، وهو ما يعرف **"بسقوط الجواميس"** ، لكن قبيلة **"الأقدام السوداء"** لم يكن أفرادها يستطيعون إجادة دفع الجواميس لتمشى فوق الجرف ، حيث كان الجاموس عندما يقترب من الجرف على الفور ينفر منه ، ويستدير جانبًا ، ويتحاشاه. لم يكتسب أفراد القبيلة مهارة ممارسة تلك الطريقة ، وأيضًا لم يمتلكوا غيرها من الطرائق البديلة ، سواء بالوراثة أو بالابتكار لغيرها ، فالمنهج الوحيد

والواحد الذى يعرفونه، لا يمتلكونه، ولا يحسنون أداءه، ومعنى ذلك أن القبيلة عليها أن تدفع تكلفة أدائها المتدنى بألا تجد لديها فى فصل الشتاء الشيء الضرورى لتأمين حاجات أفرادها الحيوية من المأكل. ومن الطبيعى أن يفكر أفراد القبيلة فى إعادة ترتيب علاقاتهم بواقعهم، وممارسة فعاليتهم الإبداعية فى مواجهة عجزهم للتحرر من النموذج الذى ورثوه ولا يجيدونه، وذلك بإنتاج أفكار جديدة تحقق لهم إتقانًا فى الأداء، للحصول على ما يحافظ على وجودهم، وهو ما لم يفعلوه؛ إذ فى ظل تحرك التاريخ لم يفككوا آليات عجزهم خروجًا من مأزقهم، وظلوا فى تعايش دائم مع المشكلة، لا يتزحزحون عن الرغبة فى محاكاة ما لا يحسنونه. وحدث يومًا أن استيقظت إحدى فتيات القبيلة مبكراً، فشاهدت الجواميس تسير فى تلك اللحظة على حافة الجرف، على الفور انطلقت الفتاة مشحونة بإرث العادة والخبرة المعيشة المبطنة بالأفكار القديمة، مدفوعة بفرط توترها من فقدان إجادة دفع الجواميس، واستعصاء الحصول على ما يؤمن حياة القبيلة، فصاحت "إذا.

سـرتم على الجرف فـإنى سـوف أتزوج واحـداً منكم". وهـى فـى مطلـبهـا هـذا قـد طـرحـت -مـن نـاحـيـة- الوعـد بالزواج بدلاً من إجادة الدفع، فهل يـصح الاستـبدال، أو تـراه صيغة استـدراجيـة للتحفيـز؟ ومن ناحية أخرى، فقد وضعت شرط الموت لمن يسعى إلى الزواج بها، إذ هى وفق القطع اليقينى الموروث لديها، تعلم أنه لن يبـقى منهم بعـد سقـوطهم مـن سوف يفـوز بالـزواج بهـا. أتراها كانت تخاتل أم تغامر؟ وهل تفلح؟ أتراها بطرحها الوعد بالزواج قـد شـغلت تفـكيـرها حسـابات قـيـاس الضـرر المحتـمل؟ وهل تراها كـانت مـهـيـئة لغيـر المتوقع؟ أتراها حيـن تصدت بما أعلنتـه كانت قـد تحـرت سـلامـتـهـا التـامـة؟ ولعل ليس أكـثـر إيضـاحًا، وأوقع إبلاغًـا فى الكشف عن مـقـاصـد الفـتـاة المعلنة والمضمـرة، من تلك الدهشـة التى انـتـابتـهـا من رد فعل الجاموس على دعوتها ونتـيجته، فدهشـتها قد استـوفت كل جوانب معنى المأمول لديـهـا من وعـدها الذى أعـلنتـه، وهو أن ينصـاع ويذعـن الجامـوس لها، فيتـسابق جريًا وراء زواجهـا، فيتدافع على حافة الجـرف فيـسـقط، وعـندئذ يـذبح عند أسـفل الجـرف، فـتـحـصـل

القبيلة على مأكلها، ولا يبقى من الجاموس أحد، وذلك ما يعنى أن الجوهرى فى موقف الفتاة أنها استغنت بالكلام عن الفعل، أى بدلاً من الدفع بالجاموس قد استبدلت الكلام بالمواجهة. ربما تجوز هذه المراهنة، لكن ترى هل استنفر الاحتراز عقلها، أو أن مأمولها أعماها عن إمكانية أن ينتج كلامها نوعًا من المواجهة بينها وحدها وبين قطيع الجاموس. لقد كانت دهشتها حين رأت الجواميس كلها قد سارت على الجرف، ثم انفتحت دهشتها على المأزق الذى جعلها تدرك أنها غامرت المغامرة غير المأمونة، وذلك حين تقدم إليها من القطيع جاموس عجوز قائلاً: **"حسنًا يا فتاة فلنمض معًا"**. كان الموقف صورة للأزمة والمأزق والحصار المباغت الذى جسد جموح تصديها المنفلت من حسابات الاحتمال، فاستجلب الانصياع والإلزام والإقرار بالزواج بالجاموس العجوز، فإذ بها -من فورها- ترفض الذهاب مع الجاموس العجوز، فإذا كنا معنيين بالتنقيب عن مقاصد الفتاة، فلا شك أن رفضها يؤكد أنها لم تطرح نفسها قربانًا وفداء ونذراً من أجل استمرار وجود قبيلتها،

وحصولها على ما يؤمن عيشها. لقد واجهها الجاموس العجوز قائلاً: **"أنت ألزمت نفسك بوعد. نحن نفذنا ما علينا من الاتفاق. انظرى إلى أقاربى هنا أسفل الجرف، كلهم أموات. والآن فلنمض معًا"**، وهكذا كان على الفتاة أن تدفع ثمن جموح هوى التحدى المنفلت من مؤازرة كفاءة الاستضاءة الكاشفة للاحتمالات الطارئة.

استيقظت أسرة الفتاة صباحًا تبحث عنها فلم تجدها، تفحص الأب الأرض متتبعًا الأثر، فأدرك أنها ذهبت بعيداً مع جاموس، فعقد عزمه على الرحيل كى يستعيدها، فحمل قوسه وسهامه وانطلق، وفى أثناء سيره أدركه التعب، فركن يستريح ويفكر فيما سيفعله. اقترب منه غراب، فسأله الأب عن ابنته، فأخبره الغراب أن الفتاة توجد مع الجواميس فى مكان قريب من مجلسه، طلب إليه الأب أن يذهب إليها، ويخبرها أنه ينتظرها. طار الغراب، واقترب من مكانها، فوجد الجواميس نيامًا، أما هى فكانت مشغولة بعمل ما. دنا منها، وأخبرها أن أباها فى انتظارها بالقرب من مكانها. ولأن الفتاة ترى بعينيها ـ

وبوضوح- الموقف المحيط بها، لذا فإنها -على الفوز- أعلمت الغراب أن الأمر خطير، إذ إن الجواميس سوف تقتلهما معًا، ورفضت الذهاب إلى أبيها في اللحظة الراهنة. وفجأة استيقظ زوجها الجاموس العجوز، وطلب إليها أن تذهب لتحضر له ماءً. وهناك عند المستنقع أمسكها والدها ليأخذها ويهربا معًا، فرفضت الفتاة الإذعان، وواجهت أباها الذى تخشى عليه من القتل، والأب يقوده جموح انفعاله وعاطفة أبوته، فغيب الجموح عنه الحذر، وصادر طاقة تصوره لمدى شراسة الخطر، بل صار يدفعه ويورطه فى معركة خاسرة، فأخبرته الفتاة أن القطيع كله سوف يلحق بهما ويقتلهما، ثم تركته وعادت أدراجها إلى القطيع. وعند وصولها واجهها الجاموس العجوز زوجها بما اكتشفه من أنه يشتم رائحة دم أحد الهنود، والفتاة تنفى، والجاموس العجوز يؤكد أنه على ثقة، ثم راح يخور بكل ما لديه من قوة ليوقظ الجواميس كلها، وتذهب مجتمعة فى رقصة بطيئة وهى ترفع ذيولها، فتسحق بأقدامها ذلك الرجل حتى الموت إلى أن تقطع إربًا إربًا واختفى تمامًا. بكت الفتاة،

واعترفت أن القتيل أبوها، وانبرى الجاموس العجوز يسألها **"وماذا بشأننا نحن؟ أطفالنا، وزوجاتنا، وآباؤنا عند أسفل الجرف موتى وأنت تبكين أباك..إذا كنت تستطعين أن تعيدى أباك إلى الحياة، فسوف أدعك تذهبين"**. وهنا انتقل الموقف إلى مسار مختلف، إذ تشكل هذه اللحظة الرهيبة مواجهة الهاوية الفاصلة بين الحكمة وبين الأمر الواقع، فالحكمة تعنى أن يلتقط الحكيم تلك البرهة السريعة التكوين والزوال، والتى يتوقف على التقاطها حدوث المنعطفات الحاسمة، وهو ما كان على الفتاة أن تدركه، لكنها تحت وطأة الأمر الواقع المتمثل فى موت أبيها، تعذر عليها فى لحظة انفعالها أن تطرح مسافة تنفس بين القيمة والواقعة، ففى خضوعها لتأثير وانفعال تداعيات واقعة موت أبيها، ثم فى كشفها أمام الجواميس عن ملكتها وقدرتها على استعادة الحياة للموتى، وضعت الفتاة قيمة الحفاظ على سلامة قبيلتها فى خطر، وأتاحت للجواميس أن يكون أمامهم كل الممتنع عن الفعل ممكنًا. ولأن الفتاة قد خاصمتها الحكمة كان لا بد للمنعطف السالب أن يحدث، إذ

فى عنفوان انفعالها التفتت إلى الغراب متوسلة إليه أن يبحث عن جزء صغير من بقايا أبيها المقتول. وبعد بحث طويل عاد الغراب ومعه قطعة عظم واحدة صغيرة، فأخذتها الفتاة ووضعتها على الأرض، وغطتها بوشاحها، وراحت تغنى طقس استعادة الحياة، وهى أغنية سحرية لها قوة خارقة. وفى الحال كان الأب تحت الوشاح، فواصلت الغناء لمقاطع أخرى، فإذ بالأب يقف على قدميه قبالتها، والجواميس تعجب مما تراه. وكانت اللحظة التى عاد الأب فيها إلى الحياة، شاهداً على تغيير خارطة اهتمام الجواميس تجاه وضع الفتاة، حيث انفتحت أمامهم إمكانية استعادة موتاهم بواسطتها. وفجأة قفزت الحقيقة السائدة عبر التاريخ بأن الفائز يأخذ كل شيء، فعلى الفور قالت الجواميس للفتاة: **"لماذا لا تفعلين ذلك من أجلنا؟ سوف نعلمك رقصتنا، وعندما تقتلون عائلاتنا عليك أن تقومى بتلك الرقصة، وتغنى تلك الأغنية، وبذلك سوف نحيا من جديد"**. وتنتهى عند هذا الحد من السرد أسطورة **"الأقدام السوداء"**، إحدى أساطير تراث الهنود، السكان الأصليين

لأمريكا. لكن يبقى السؤال الذى يستوجبه اقتضاء طبيعة بنية الأحداث، والذى لم تجب عنه الأسطورة، وتركته بلا جواب، كنوع من الإدراك المنقوص، كى تقع على القارئ أو السامع مهمة إنشاء المعنى، وفك اللغز المتروك، اعتماداً على أفق توقعات القارىء من خلال فهمه للأسطورة فى إطار القوانين التى يعرفها. والسؤال المنقوص الإجابة تتحدد صيغته فى ضوء توقف أحداث الأسطورة عن الامتداد: ترى هل ستقبل الفتاة أن تظل مع الجواميس كى تمارس استعادة موتاهم للحياة بعد أن يقتلهم أهلها لتستمر دائرة الصراع الذى لا ينتهى، وعندئذ لن يحصل أهلها على طعامهم؟ أو تراها سترفض البقاء، أيًا كانت صورة هذا الرفض، حماية لقيمة الحفاظ على أهلها كى يستطيعوا أن يجدوا ما يؤمنون به احتياجاتهم، ويمارسوا حياتهم، ويستمر وجودهم؟

لكن السؤال المركزى العام المسكوت عنه فى هذه الأسطورة، هو سؤال الاجتهاد المفتوح على لحظة إعادة النظر فيما أنتجته الأحداث فى ضوء الأسباب التى ينظر من خلالها إلى نتائج

الأحداث، بإعمال المقارنة بين ما تحقق من أحداث، وما كان ينبغي له أن يتحقق من أحداث مغايرة تأتي بنتائج مخالفة، أي أن السؤال المركزي في أسطورة **"الأقدام السوداء"** هو السؤال الذي يفرض الاستدراك، ويتبنى اللجوء إلى المراجعة، ويحاول الاسترداد بأن يطرح مستفسراً مستوضحًا: ما الذي أوصل مسار الأحداث إلى الموقف الخانق الذي تركته الأسطورة بلا جواب؟ بمعنى، ما الذي أوصل الفتاة إلى اللحظة التي أصبح عندها من الصعب عليها مبارحتها عتبة مجتمع الجواميس إكراهًا، وإلى الأبد؟

والإجابة -ببساطة- أن الفتاة بفقدانها توازنها الذهني افتقدت، بانفعالها وجموحها، الحكمة التي تنير أمامها الطريق، وتحميها من التورط. فإذا كانت الحكمة تعني القدرة على التقاط تلك البرهة السريعة التكوين والزوال، والتي يتوقف عليها حدوث المنعطفات الحاسمة والخطرة، فإن الفتاة لحظة أن عرض عليها الجاموس العجوز إطلاق سراحها، إذا كان في مقدورها أن تعيد إلى أبيها الحياة، لم تستطع أن تلتقط من

تلك البرهة معنى أنها فى كشفها له عن ملكتها وقدرتها عمليًا على استعادة الحياة لأبيها، ستظل أسيرة لديهم إلى الأبد، بل الأكثر أهمية والأخطر، أنها تجاوزت تقرير مصيرها الخاص إلى تقرير المصير العام لقبيلتها، فقد غامرت بفعلتها وكشفها عن قدرتها بمصير أهلها، وأغلقت بمغامرتها الأفق أمام مصالحهم العليا وخيرهم العام، عندما افتقدت إشراقة الحكمة.

وإذا كانت الحكمة كما تحكى الأسطورة إحدى مسئوليات الإنسان تجاه نفسه، فلا شك أنها ضرورة للنخبة، ولكل أصحاب الأدوار الاجتماعية من يتصدون للشأن العام، سواء بالقرار أو الكلمة، بل قدر قيادة أى مجتمع كحماية من الجموح والمغامرة المنفلتة من تقديرات حسابات المدى الأبعد.

أوهــام اللســان

"لا أعرف كيف سيقتلني موتي؟ بوسعي أن أمثل ذلك، ولكن كيف استبدل بنفسي نفسي في دور الميتة؟"، هكذا قالت لنفسها الممثلة المسرحية السينمائية الشهيرة **"أنًا"** وهي تحاور نفسها لحظة وقوفها على عتبة موتها، عندما علمت بالمرض الذي ينهش أحشاءها، وكانت هذه اللحظة الوحيدة في حياتها التي يستنفرها سؤال وجودها، بمواجهتها إثارة التساؤل حول مدى تطابق التصور مع الحقيقة، رغبة في أن تعبر من حالة التصور إلى حالة الإحساس الحقيقي، ليس بكونها ممثلة تؤدي موت شخصية ليست هي، بل باعتبارها هي **"أنًا"** ذاتها، لا أحد غيرها، ومن هنا كان جوهر مأزقها.

لقد أصبح الموت موجوداً في أحشائها، ويتسلل إلى حصن وجودها، لكنها اعتادت من قبل أن تمثل عشرات المرات أنها

ماتت ثم تعود بعد التمثيل إلى الحياة. أما هذه المرة فإن المسألة التى تريد حسمها راهنًا هى مسألة الحقيقة، أى من تلك التى ستموت؟ هل هى "أنًا" ذاتها أو غيرها؟ وفى سياق محاولتها كانت رحلتها بالحفر والتفكيك، وإعادة قراءة ذاتها المخلخلة بوضعها موضع التساؤل، وكأنها تتحسس الوصول إلى ذاتها الحقيقية، وذلك من خلال حوارها مع نفسها بالاسترجاع لسيرتها الذاتية وخياراتها، فترسم خارطة لحياتها كمرآة تستطيع أن تقول لها: هذه هى أنت، فتوضح لها من هى. لذا، فإنها فى حوارها مع ذاتها بتذكر سيرتها الذاتية واسترجاعها أمامنا، لا ترويها لنا فى سرد خطى تعاقبى متتالٍ؛ وإنما تنتخب أحداثًا معينة، تعيد بناءها وتنظيمها، وتشدد على جوانب منها كنوع من الفحص لها، استهدافًا أن يؤدى ذلك فى مجموعه إلى اكتساب معنى يتعين على "أنًا" أن تعرفه، أى أن تعرف من هى، كإجابة عن سؤالها الذى طرحته فى مطلع حديثها لنا **"لست أنا تلك التى تظنون، وبالقدر نفسه لا أعرف من أنا؟"**.

ولأن الإنسان يتحقق وجوده فى الحياة بمدى شبكة علاقاته الإنسانية ونوعيتها، ومجمل خياراته، حيث تُجسد موقفه من

ذاته ومحيطه، لذلك فإن الممثلة **"أنَّا"** فى ارتدادها، من خلال حوارها مع نفسها، كشفت عن علاقاتها، وهو ما يستلزم منا -بداية- أن نتفق على تعريف إجرائى قوامه أن العلاقات الإنسانية تخضع لنموذجين يحدد كل منهما طبيعة ممارسة هذه العلاقات وحدودها، أولهما: ما يسمَّى **"بالعلاقات الركنية"**، وهى تلك العلاقات التى لا يملك فيها الإنسان مشروطية حريته، بمعنى أنه لا يمكنه أن يغير من تصنيفها، كعلاقة الإنسان بذاته، وكذلك علاقته بأمه، وأبيه، وإخوته وبنيه، إلى غير تلك العلاقات التى هى ألصق بعلاقات الرحم المقدرة، والتى تفرض علينا من سلطة خارجة، ومهما حاولنا تبديل طبيعتها، فإنه لا يمكننا أن نغير تصنيفاتها، ولا نملك إلغاءها من الوجود حتى وإن غيرنا مفهومها، سواء بقطع الوصل أو بالمخاصمات والمناهضات والخلافات والصراعات، فإنها تظل على تصنيفها تحاصرنا، سواء من داخلنا أم من خارجنا. وثانيهما: **"العلاقات الاستبدالية"**، أى تلك العلاقات التى يستطيع الإنسان أن يمارس فيها حريته بتغييرها واستبدالها، كعلاقة الإنسان بزوجته، وأصدقائه، وشركائه، ورفقائه، إلى غير تلك العلاقات التى

نكتسبها بتجربتنا الحياتية من دون سلطة خارجة عنا تفرضها علينا.

وفى حياة "**أنّا**"، وبحكم مهنتها كممثلة، احتل مساحة كبيرة من حياتها، هذا النوع الأخير من "**العلاقات الاستبدالية**" التى تستبدل فيها شخصيات من العالم الروائى بوجهها، شخصيات متعددة ومتنوعة تتكلم بكلمات مؤلفيها، ثم ترتد إلى وجهها ظمأى لمعاودة ممارستها الاستبدال، وكأنها تشبع إحساسًا لديها يغذيه شرط متعة حياتها ألا تكون الكلمات التى تنطق بها كلماتها، وألا تتكلم باسمها؛ بل باسم الاسم الذى اتخذته الشخصيات التى تؤدى أدوارها. لذا، فهى لم تفكر طول حياتها أن هناك صلة ما بين وقتها ووجهها، حيث الرغبة عندها تقوم مقام اليقين، ومن ثمة مقام الإرادة والقصد. لقد مثلت ما كان يمكنها آنذاك أن تعيشه، لكنها استغنت عنه بتمثيله، فهى تحت ضغوط الاستبدالات المتلاحقة وتمثيلها لنماذج متعددة ومتنوعة صنعها خيال مؤلفيها قد أضافت حياة أخرى إلى حياتها، لكن المأساة أنها سرعان ما انفصلت عن نفسها، وعن وجهها، وأخرستها كلمات أدوارها التى كانت

تؤديها، فاختلط كشف حساب حياتها كممثلة بكشف حساب حياتها كإنسانة، وانفتح كل منهما على الآخر، فقلما كانت "أنّا"، وكثيراً ما كانت غيرها، نتيجة فقدانها إمكانية الانتباه والالتفات إلى حدود كل من العالمين، وراحت تطلق لسانها لينفق عواطف ومشاعر وأحاسيس مستعارة ليست لها، فرضها ارتحالها بين شخصياتها التى تسلطت على وجودها -بإذنها- فسحقته والتهمته بدلاً من أن تغنى قدراتها وتنضجها. وارت عنها ذاتها، وطمست خصوصيتها، فنسيت نفسها، وتلبستها شخصياتها فى مواقف حياتها اليومية، فهى تقبل على مضيفتها الجميلة الشهيرة بوجه "ميديا" الساحرة الشرقية التى تقطع أعناق أطفالها، وعندما تعبر عن مشاعرها تجاه الفيلسوف "نيتشه" تعرب عن رغبتها فى أن تربطه بعربتها الصغيرة مثلما فعلت "سالومى"، وأيضًا تصورت نفسها شخصية "هاربى" اليونانية، امرأة مجنحة طائرة شريرة، جسداً مليئًا بالمخالب والأسنان، ملفوفًا فى الشحم البشرى، تذوب فى أتون النار، يصعد منها إلى السماء الدخان الأسود. بل المثال

الأبرز الذى تعترف به، ويمس أشد العلاقات حميمية، والتى تمت باختيارها، أى علاقتها بزوجها، هو اعترافها بأنها لم تكن قط تلك التي يظنها، لا على الفراش، ولا فى الحياة اليومية، وهذا يعنى أنها لم تنخرط حتى فى واقعها الذى اختارته، ولم تنتج علاقات حقيقية فى صلاتها بمحيطها، وعاشت بأوهام صورها المستعارة من العالم الروائى الذى تمارس فيه علاقاتها الاستبدالية، فتتغير وتتنقلب من شخصية إلى أخرى، قافزة فوق الواقع، لا تنفتح عليه؛ بل تبدده باستطرادها الاستبدال لشخصيات متخيلة من العالم الروائى فى تعاملاتها بوجهها الحقيقى فى كل علاقاتها الحياتية، فكانت بذلك تنفى عالمها الحاضر، وتغييبه عن حدوده، وتهمش ملامح هذا العالم بممارستها الاشتهاء لفرض تصوراتها عن نفسها غير الحقيقية، فأصبحت تعيش فى عالم تجهله، لا يعنيها رصده، إذ ترى: "**ما الفارق إن وضعت رأس "ماسيمو" على كتف "روبيرو" أو العكس ما داموا أشباحًا؟**". هكذا خلعت تصوراتها على كل من يحيط بها، وراحت تهدر ملامحهم الحقيقية، وتعيد تشكيلهم

عبر منظورها. صحيح أنها فازت ممن حولها بتسمية **"النمرة"**، أو **"الذئبة"**، أو **"السيدة بركان"**، لكنها الآن وهى تتأمل ذاتها خلال استرجاعها لسيرتها، تكتشف أنها لم تكن تملك من كل ذلك سوى ملكة نسيان ذاتها.

كانت **"أنًا"** قبل أن يداهما المرض الذى ينهش أحشاءها ترعبها فكرة **"غير المرئى"** فيمن يحيط بها، إذ تعد ذلك أسوأ اضطهاد لها، فواجهت رعبها بذات سلاحه، شحذت رغبتها فى الحجب والتستر، ومارست الحجب للعالم المحيطّ بها، وأيضًا لذاتها الحقيقية، مستخدمة آليات الاختفاء والطى، فتظاهرت بأنها غير ما هى، وفى الوقت نفسه باتت رؤيتها للعالم من حولها بمعزل عن حقائقه، متناسية أن علاقة الإنسان برغبته لا تنفصل عن علاقته بالحقائق المحيطة به، لكنها الآن لحظة إدراكها دنو موتها الحتمى عجزت عن معرفة أن تموت، إذ كل ما تعرفه هو التظاهر، إلا أن الألم يوجع أحشاءها وجعًا حقيقيًا يزلزل كيانها، ولم تستطع كل تظاهراتها أن تفعل شيئًا ضد الألم؛ عندئذ غدت رغبتها الأخيرة إظهار اللا مرئى، أى أن

ترى ما يوجعها، بمعنى أنها أرادت انتهاك ما انحجب. لقد
كشف لها تذكرها واسترجاعها لحوادث حياتها أموراً لم يكن
بوسعها أن تراها، إذ كان لسانها يتكلم كثيراً لكى لا تسمع
نفسها، تمتلكها لذة سجالها الكلامى واستمتاعها بتصدير
أوهامها إلى المحيطين بها، فغابت عن حضورها الحقيقى وعن
انتباهها، غير أن حضور الألم الحقيقى الذى يعتصرها هو الذى
أسس بداية إحساسها باستقلالها الذاتى عن تلك المكانة التى
صنعتها لنفسها ولم تكن لها، كما أكد لها كذلك عدم فعالية
جميع الكلام الذى نطق به لسانها ولم يكن كلامها، وإنما كلام
شخصيات عاشت عالة على حياتها، فحرمتها ذاتها، بل
حاصرتها، وأمسكت بخناقها، وقيدتها بعيداً عن أن تنجز
تاريخ ذاتها. لقد نشّطت حقيقة الألم الذى زلزل كيانها
إحساسها الحقيقى، إذ موطن الوجع هو جسدها وليس جسد
غيرها، والألم ينخر أحشاءها ولا تتظاهر به، وهو ما فضح لها
أن مشروعها الذى راهنت عليه كى تصنع من خلاله مكانة فى
أذهان كل المحيطين بها قد انهزم. إنها الآن لم تعد تمثل إلا

نفسها في المشهد الأخير لمسرحية لن يعاد عرضها أبداً، ألا وهو مشهد موتها، عندئذ أدركتِ الممثلة **"أنّا"** أنها ليست أكثر من نفسها، لكنها كانت قد باعت نفسها للأوهام، فمارست على نفسها الأذى، باعتها إلى أبعد حد بحيث لم يتبق لها منها شيء، فعلى طول حياتها لم تكن هي ذاتها إلا لحظة موتها.

لا شك أن الكاتب الفرنسي المعاصر **"برنار نويل"**، في رائعته **"لسان أنّا"**، يجسد لنا أن طموح الإبداعات الروائية هو أن نمسك بالخبرة الإنسانية من خلال الخيال، وليس أن نتلبسها وتسكننا شخصياتها، طموحها أن يخبر الإنسان ذاته وأسراره من داخله، ليخصّب حياته، ويعزز نضجه، وليس طموحها أن نستأجر ونستعير شخصياتها للساننا، فنحجب ذاتنا ونطويها، ونختزنها بتبريدها ومنعها من الانخراط في مواجهة الحقائق من حولها. إن عماء **"أنّا"** أنها لم تنتبه لمعطيات ذاتها، ولم تمارس إعادة صياغتها، بل وقعت في أسر اللسان، فأنتجت مكانة وصورة كلامية على غير الحقيقة، وصدرتها إلى الناس من

حولها بدون استحقاق؛ بل رغبة في الاستمتاع. لكن عندما نخر المرض جسدها هي، وليس جسد الشخصيات التي روجت بلسانها أنها هي، كان ذلك هو الامتحان الذي أكد لها أنها ليست كل ما روجت له بلسانها من خلال سيناريو الأوهام. ولأنها كانت قد نسيت نفسها، ولم تمارس وجودها الحقيقي؛ لم تتعرف إلى نفسها، فذاتها الحقيقية ظلت بلا تاريخ حقيقي على مدى عمرها، وبذلك خرجت "أنًا" من التاريخ.

وكما خرجت "أنًا" من التاريخ، يمكن أن يخرج غيرها من الأفراد والمجتمعات ممن يتشدقون بأوهام اللسان، إذ إن صياغة الوجود الإنساني الحقيقي وصناعة المكانة لا تأتي بكلام اللسان؛ وإنما تأتي بجهد الذات على الذات، والانتباه الدائم للحقائق، والسعي لمؤازرة جهود الاستنهاض في مواجهة العجز، والاستفاقة من فتنة الأوهام، وضرورة التعرف الحقيقي على وجوه القوى المحيطة، وممارسة القدرة على المضاهاة بينها للوقوف على الأصول والأشباه، والأخذ بالحذر والوقاية والاتقاء، والوعي بالاستدراج الذي يفضي إلى تغييب الإدراك

بحقائق الذات. إن الرغبات والغايات لا يحققها كلام اللسان الذى يعزل صاحبه عن فهم حقائق ذاته، كما يعزله عن فهم حقائق الآخرين وإدراكها، فالغايات يرتبط تحقيقها أساسًا بمدى استيفاء شروط الرصد والفهم الصحيح للحقائق الفاعلة في تسيير الواقع والأحداث. إن العالم من حولنا لا نصنعه وحدنا، فإلى جوارنا وأمامنا الآخر الذى يضم الأنداد والشركاء وغيرهما، فهو ليس عالم الروايات والخيال الذى يصنعه مبدع واحد بخياله، وتمتثل له كل القوى التى تحرك الأحداث، فالتاريخ لا تصنعه السيناريوهات الوهمية، ويخرج منه كل أمثال "**أنَّا**"، من يتشدقون بأوهام اللسان.

لماذا لا تتهم إسرائيل أمريكا ؟!!

لا أحد يدرك إدراك اليقين السبب الذى د فع الملك **"تشارلز الثانى"**، ملك بريطانيا، إلى إصدارِ مرسوم ملكى عام ١٦٦٠ يقضى بتعليم جميع السكان الأصليين والخدم والعبيد فى المستعمرات البريطانية تعاليم المسيحية. وأيًا ما كان مفهوم الملك **"تشارلز الثانى"** وتصوراته، فإن مرسومه قد أحدث صدامًا مفاجئًا لدى مالكى الرقيق فى المستعمرات البريطانية، الذين كانوا يمارسون الوصاية على الحقيقة والحرية والعدالة من خلال مفهومهم للتمايز والاصطفاء، لذلك لم يوافقوه على رأيه، حيث أدركوا مولدات فعل **"تعليم القراءة"**، ومردوداته على المهيمن عليهم، وذلك بإتاحة فهم ما كان لهم ممتنعًا عن الفهم، وتفكيك آليات عجزهم، بل دفعهم إلى فعل ما كان ممنوعًا عليهم كنتيجة لقراءة

الواقع والعالم من حولهم، وهو ما سوف يزلزل وجود السادة، وينتهك تعاليهم، ويغير العلاقات، والروابط، وخارطة السلطة، إذ أيقن السادة أن فتوحات فعل **"تعلم القراءة"** للمستعمرين بعامة، سوف تضخم بوابات الأفكار والمفاهيم، وترسخ الوعى بالتعارضات، وتعزز الاشتباك مع الواقع وممارساته، حيث تصبح القراءة إحدى أهم أدوات القوة لهؤلاء المهيمن عليهم لزعزعة السلطة والوصاية والمصادرة، وتعطيل إنتاج التفاوت الإنسانى.

وتسجل الدراسات أن أكثر مستعمرات بريطانيا مقاومة لذلك المرسوم كانت المستعمرات الأمريكية، فخلال مائة عام منذ صدور المرسوم تسللت المقاومة من **"الرأى"** إلى **"الأمر"**، وتحصنت **"إكراهًا"** فى إطار بنية مؤسسية قانونية، إذ صدرت فى ولاية **"ساوث كارولاينا"** قوانين صارمة تمنع جميع السود -أرقاء كانوا أو أحرارًا- من تعلم القراءة، لتكبح جماع السود فى التطلع إلى فعل القراءة، وتكره غيرهم على عدم ممارسة تعليم السود القراءة، باعتبار ذلك أحد الثوابت الاجتماعية. وتحكى مرويات السود عن محاولاتهم المتنوعة والمتعددة لتعلم القراءة، وعذاباتهم إذا ضبطوا متلبسين بفعل القراءة، بدءًا من

الجلد المتصاعد الدرجات، إلى قطع المفصل الأول من السبابة، حتى الموت شنقًا فى بعض الولايات. وظلت مقاومة هذا المرسوم فى شبكة الوجود الاجتماعى حتى بعد استقلال الولايات المتحدة، حيث ظهر عام ١٨٧٢ أحد سلالة المناهضين لنشر التعليم والقراءة، فأقام مؤسسة قوية للرقابة على القراءة فى مدينة نيويورك، ويدعى **"أنتونى كومستوك"**، والذى كان يفضل لو أن القراءة ما كانت قد اكتشفت البتة، متعللاً بأن أبانا أدم فى الجنة ما كان يستطيع القراءة، مبرراً وصايته على القراءة، بأنه أما وأن اكتشاف القراءة قد حدث، فإن من الواجب الحد منها. وقد وسع **"كومستوك"** وصايته فلم يطارد السود فحسب؛ بل طارد الجميع، من البيض والسود الأحرار والأرقاء، وكذلك من الناشرين والطابعين، وأصدر قائمة سوداء بالكتب الممنوعة من القراءة، وحث السلطات المعنية على منع تداولها، ونصب من نفسه **"القارئ الأكبر"**، والمرجع الذى يقرر ويفرض آراءه على الآخرين، وتولى بنفسه مطاردة القراء ومصادرة الكتب.

وبرغم مرور مائة وثلاثين عامًا على ظهور **"كومستوك القارئ الأكبر"**، وأيضًا برغم موته، وانحسار وانكسار ضروب

تحدى حرية الناس والوصاية عليهم، إلا أن **"كومستوك"** قد عاد إلى القرن الحادى والعشرين مرة أخرى بذات عنفه وتسلطه وأساليبه القمعية، فهو -هذه المرة- ينهض وسط مقولات مناخ حرية التفكير وحقوق الإنسان، ليمنع الناس من قراءة كتاب **"الخديعة الكبرى"** للكاتب الفرنسى **"تيرى ميسان"** عن أحداث الحادى عشر من سبتمبر، وهو كتاب يتعرض لكيانات وأحداث مادية، يتطلب الخروج عليها ونسخها ودحضها المواجهة بالرد على الكتاب، وليس بالحصار الذى يفرض عليه، بمعنى مواجهة أطروحاته القابلة للتصديق أو التكذيب، بمنهج الفحص للمعلومات الواردة فيه، وتصويبها، وتحريها، وهو شرط نقد الكتاب بصورة فعّالة، الأمر الذى تملكه دون غيرها أجهزة الولايات المتحدة ومؤسساتها. ونحن لا نسعى إلى مناقشة ما جاء بالكتاب، لكننا معنيون -على وجه الإيضاح- بصورة الأزمة التى حلت بحرية التفكير عندما تواجه بالإقصاء والقمع، بمعنى أننا نناقش أبنية التفكير لدى **"القارئ الأكبر كومستوك"** الذى يعاصرنا، من حيث قوالب تفكيره، وطرائقه، وآليات قيوده التى

يفرضها فى تعاملاته، أى فحص مرجعياته ممارسة وفكراً، وهو ما يعاكس جوهر الديمقراطية، ويكرس للهيمنة المركزية التى تفرض **"النص الأوحد"** الذى يعتمده **"القارئ الأكبر"**.

وفى إطار هذا السياق يمارس **"كومستوك"** المعاصر أساليبه المتعسفة، فينبش بكل محتشداته مطاردة للصحافة المصرية، فيثير زوبعة لمقاضاة الأستاذ/ إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام، والأستاذ/ عادل حمودة عن الكتابة والنشر لمقال تناول كتابًا يطرح حكاية عن اغتيال اليهود لرجل دين مسيحى فى دمشق عام ١٨٤٠ هو الأب **"توما"**، وذلك لينزل بهما، وبالصحافة العربية، اتهامًا بالتحريض على العنصرية ومعاداة السامية، برغم ما تؤكده الوثائق الرسمية دحضًا لهذه المزاعم، إذ أثبت المرجعيات الدينية الإسلامية إجرائيًا أنها لم تتورط فى أمور التنازع العنصرى فى هذه الحكاية، بل كانت بمنأى عن إذكاء الفتنة، وهو ما يكشف عنه **"الفرمان"** الذى أصدره **"السلطان عبد الحميد"**، إبان انتشار حكاية حادثة اغتيال الأب **"توما"**، حيث برأ اليهود من التهمة التى ألصقت بهم، فقد جاء

بالفرمان ما نصه: "**ثمة ظن يناصب اليهود العداء، فالجاهلون يعتقدون بأن من عادة بنى إسرائيل أن يضحوا بالدم البشرى فى الخبز الفطير..، وقد أمرنا بإحالة جميع كتب اليهود الدينية إلى أشخاص أكفاء يتقنون اللغة العبرية إتقانًا تامًا ليقوموا بفحصها، وقد تأكد من هذا الفحص أن بنى إسرائيل لا يحرمون استخدام الدم البشرى فحسب، بل كذلك الدم الحيوانى، ومن هذا التحريم يتبين لنا أن أعمال العنف التى يتعرض لها اليهود لا سند لها سوى الافتراض المحض**". ومن قبل صدور هذا الفرمان ومن بعده، تتعدد القرائن وشهادات المؤرخين اليهود أنفسهم، اعترافًا بأن البلاد الإسلامية كانت على الدوام ملاذًا آمنًا لبنى إسرائيل، إذ يعترف "**م.فرانكو**"، مؤرخ "**الطائفة اليهودية فى ظل الإمبراطورية العثمانية**"، الصادر عام ١٨٩٧، أن السلطان "**بايزيد الثانى**" أصدر فرمانًا عام ١٤٩٢ يأمر فيه جميع الولاة بحسن استقبال اليهود المطرودين من إسبانيا، وعدم إساءة معاملتهم. كما يورد "**و.س.بارون**"، أشهر المختصين فى التاريخ اليهودى، فى كتابه "**تاريخ اليهود**

الاجتماعى والدينى"، الصادر عام ١٩٣٧، قوله: "إنه بالمقارنة مع المذابح والمجازر الجماعية التى طفقت بعد عام ١٠٩٦ بوجه خاص، والتى تسوّد صفحة بعد أخرى من السجل التاريخى لليهود، فقد نعمت الطوائف اليهودية فى ظل الخلافة الكبرى والدول التى أعقبتها بدرجة من الأمان تحسد عليها، ولم تعانِ من حملات الإبعاد والطرد والهداية القسرية التى وسمت بميسمها الشطر الأكبر من تاريخ اليهود فى أوروبا فى العصر الوسيط".

ويذكر أيضًا المؤرخ "جاكوب ماون" فى كتابه "اليهود فى مصر وفلسطين"، الصادر عام ١٩٢٠، أن الوزارة فى عهد الفاطميين عهد بها عام ١٠٤٤ إلى رجل يهودى. ومع ذلك كله، فإن "كومستوك" المعاصر يطمس الحقائق المسجلة بممارسات إجرائية ثابتة تاريخيًا، كشاهد على مناهضة الإسلام للعنصرية، بل إجارته لليهود، ويصطنع ويروج بدلاً منها حقائقه التعسفية، ليخلق واقعًا يوظفه لتحقيق سياساته، وإشعالاً لفتيل الميز العنصرى، وإذكاء وإلهابًا للفتنة بين المرجعيات الدينية، بتقديم استدلال مباشر إلى العالم، يتحول إلى قذائف شك فاعل فى

سلامة وصحة توجه البلاد العربية إلى خيار السلام مع إسرائيل، على أنه خيار تكتيكى لا خيار استراتيجى، متخذاً من ذلك مظلة تبرير تمنح الشرعية للمذابح والانتهاكات التى تمارسها الآلة العسكرية الإسرائيلية ضد الفلسطينيين، فتحيل **"سلطة الذبح"** والقتل والطرد إلى **"سلطة حق"**، دفاعًا عن الوجود الإسرائيلى ضد الميز العنصرى بوصفه مصدراً متأصلاً فكريًا ودينيًا لدى العرب والمسلمين ، تغذية لتداعيات أحداث الحادى عشر من سبتمبر، ودعمًا للقرائن الدلالية التى تؤكد الصدام الحضارى بين الإسلام والغرب، والتى ترسخ لعنصرية العرب والمسلمين فى صراعهم مع إسرائيل.

ومرة أخرى تستوقفنا عودة **"كومستوك"** المعاصر ليمارس مبدأ المنع إكراها للناس كافة بفرض القيد على المسلسل التليفزيونى **"فارس بلا جواد"**، ونحن لن نتعرض لمناقشة المسلسل فى أى من جوانبه، لأننا معنيون تحديداً بمناقشة مبدأ المصادرة لدى **"كومستوك"** وكشف التناقض الصارخ فى موقفه ومطالبته بعدم عرض المسلسل بادعاء أنه معاد للسامية، أى

لليهود، لتعرضه **"لبروتوكولات صهيون"**، ذلك الكابوس الذى يطاردونه ويطاردهم، ويبرءون منه، ويعتبرونه وثيقة مدسوسة، أعدت للتشويه المقصود لاستنهاض الكراهية ضد اليهود، بتأكيدها على الميز الشرير اللافت للعنصرية اليهودية، حيث المنال الأخير من تداول الوثيقة ونشرها، هو برمجة الذهن الجماعى فى العالم، تحذيراً من مؤامرة اليهود ضد كل الشعوب، إذ الطبعة الأولى لهذه الوثيقة التى نشرها فى روسيا عام ١٩٠٥ البروفيسور **"س.نيلوس"** قد صدرت بعنوان **"الخطر اليهودى"**، ثم ترجمها إلى الإنجليزية عام ١٩٢١ **"فيكتور مارسدن"**، واختار لها عنوانًا **"بروتوكولات حكماء صهيون"**، لكن التحدى الأكبر فى صعوبة واستعصاء مهمة **"كومستوك"** المعاصر لمنع تداول الوثيقة أو التعرض لها، يتمثل فى أنه يبدو كمن يحاول إجراء جراحة فى ذاكرة كل القراء عبر العالم، وإن كان التحذير الحاد والمباشر من خطر اليهود على الولايات المتحدة، قد تضمنه قبل ظهور الوثيقة خطاب أحد الآباء المؤسسين للأمة الأمريكية؛ الرئيس **"بنيامين فرانكلين"**، فى

أثناء مؤتمر إعلان الدستور الأمريكي عام ١٨٩٧ ، إذ يقول: **"هناك خطر يهدد الولايات المتحدة، ذلك الخطر هو اليهودية..إنهم حكومة داخل حكومة.. إنني أحذركم أيها السادة، إذا لم تمنعوا اليهود من الهجرة إلى أمريكا إلى الأبد، فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم في قبوركم..إنهم سوف يحكموننا ويدمروننا.. ويغيرون شكل الحكومة"**، ثم يشرح الخطاب آليات هذا الخطر. وقد تلا ذلك كثير من الكتب التي صدرت بعد نشر الوثيقة، وبوجه خاص في الولايات المتحدة، فتناولت تحليل هذه البروتوكولات وآلياتها، ومضاهاة مدى صدقها مع الواقع، ونذكر منها -تمثيلاً لا حصراً- كتاب **"أحجار على رقعة الشطرنج"** لمؤلفه "وليم كار"، الذي شغل وظيفة عسكرية قيادية **"كومندوز"** في البحرية الأمريكية، ومن قبلها كان ضابطًا بالمخابرات، حيث أسهب في سرد خطوط المؤامرة اليهودية على العالم، مستنداً إلى نصوص الوثيقة، وإلى نصوص أخرى يمتلكها، وأيضًا نذكر كتاب **"اليهودي العالمي"** لمؤلفه المليونير، وأحد كبار بناة الصناعة والاقتصاد

الأمريكى "**هنرى فورد**"، الذى طرح البروتوكولات واحداً تلو الآخر، مفسراً وكاشفًا ما تحقق منها فى الولايات المتحدة فى مجالات كثيرة.

لكن الأمانة تقتضي منا أن نذكر أن هناك دراسات قد تناولت النهج والشحنات والتصريحات، وأيضًا الصياغة المثيرة، والبعد السياسى المبتغى من الوثيقة، فأقرت أنها مزيفة، ومجهولة المصدر، وغير محكمة، وتعد مكيدة منصوبة، ولعل .. "**كومستوك**" وأعوانه على يقين أن ثقاة علمائنا المصريين والخبراء المختصين، يرون كذلك أن هذه البروتوكولات وثيقة مشبوهة ومدسوسة، بل إن إحدى منظمات المجتمع المدنى المصرى وهى "**منظمة حقوق الإنسان**"، قد أصدرت بيانًا نشرته الصحف المصرية أعلنت فيه وقوفها إلى جانب الرأى القائل بأن الوثيقة مزيفة ومدسوسة، وطالبت بضرورة التنويه بهذه الحقيقة، ومع ذلك، فإن الوثيقة التى نشرت وتم تداولها، قد أصبح لها مسار تاريخى، ومرور إجبارى فى ذاكرة العالم كحدث تاريخى، إذ حوادث التاريخ التى وقعت -أيًا كان مدارها، كذبًا أو

صدقًا- تظل، بفعل حدوثها مسجلة كوقائع تأبى الإبادة، وهى فى الوقت نفسه قابلة للتصويب بالأضواء الكاشفة، أى بتقصيها وفضح مزالقها، ومغالبة كذبها بالمرجعيات المضادة، وإزالة تأثيرها السلبى بالحيثيات التى تضىء المسالك، وتكشف المستخفى فيها من الدوافع. وعلى الجانب الآخر تبقى الوثيقة -برغم تكذيبها- لا تمحى من سجل التاريخ، ولا تتلاشى، فأية حادثة تاريخية ينحل ويفسد حكمها وتأثيرها حين يتعرى كذبها وزيفها، لكن لنحترس بالمقابل من أن لحوادث التاريخ شروطًا، أهمها أن تبقى دائمًا محمولة على التسجيل، حتى وإن تهاوى حكمها أمام المعلومات الصحيحة، فوجودها التاريخى لا يتهاوى، فلا أحد يملك حق مصادرة ما تم من وقائع التاريخ، وإنما الحق المشروع هو حق التصويب والكشف عن المعلومات الصحيحة.

غير أن نزعة الهيمنة على وسائل الاتصال لدى "كومستوك" المعاصر أوقعته فى مضيق تجاوز الشرعية، وأيضًا أدخلته فى نفق الحرج السياسى، وجعلته يمارس الإكراه بالمنع وتداول التعرض لحادثة

تاريخية، واستفراغ ذاكرة السجل التاريخى منها، وهو ما يعنى الولوج فى دائرة الإرهاب الثقافى.

فى سياق ذلك نتساءل: هل استطاعت إسرائيل والكونجرس أن يبيدا من سجل التاريخ خطاب أحد الآباء المؤسسين "**بينيامين فرانكلين**"، الذى يتضمن تحذيراً مباشراً من الخطر اليهودى على الولايات المتحدة نفسها، ويستعدى الشعب الأمريكى؟! هل أقامت إسرائيل دعوى اتهام بالعداء للسامية ضد الولايات المتحدة، وطلبت منع تداول الخطاب؟! هل استطاعت حتى أن تمنع تداول الكُتب التى وضعها كتاب أمريكيون يعتقدون -عن يقين- بصحة "**البروتوكولات**"، فاستنفروا مشاعر العالم ضد اليهود؟! أو ترى أن اتهامات إسرائيل للعرب والمسلمين نوع من التكثيف لشحنات التصارع الذى لا يبغى سلامًا، وغطاء لتمرير كل انتهاكاتها اليومية بسابق الإضمار؟ هل يا ترى لم ينكشف بعد أمر التناقض؟!!

مخاطر تجاهل الشرعية والعدالة

كان الرجل يمارس مهنًا عديدة، إذ عمل حارسًا بأماكن انتظار السيارات، وشاهدَ زواجٍ، وقائمًا على نزهة الكلاب، وساعيًا للبريد الغرامى، ومشاركًا فى الجنازات، وتاجر تحف سياحية، وبائعًا لطعام القطط، وأيضًا مرشداً سياحيًا، وكان يمارسها جميعًا كيفما اتفق، لكن ممارسته لمهنة الإرشاد السياحى كانت تعتمد على منعطفات الظن فيه لدى بعض السياح الذين يضلون طريقهم إلى مكانه، وأيضًا بتأثير ألاعيبه، فيعتقدون أنه الشخص المتخصص فى هذه المهنة، إذ كان عندما يراهم قادمين على الفور يتستر بارتداء قلنسوته ذات الرفرف، والتى تستوفى شروط الشكل، ثم يطوِّع ملامح وجهه تطويعًا يؤكد جديته وتعاظم شأن معارفه ومعلوماته وخبرته، فيعرض عليهم بطلاقة اللسان أن يتولى سرد حكايات الأثر المرئى والمشهود، للكشف

والاستخراج والشرح لعجائب الوقائع والأحداث. وأيًا ما كانت مدى مصداقية حكاياته وما يفيض منها من معلومات عن أحداث وأسماء وسنوات، والتى دائمًا لا تنفك عن التخلق والاختلاق، إذ هى فى الحقيقة هبة خياله الذى يتشكل ولا يتكرر، ولا دخل أو قول لأحد غيره عليه، وأيًا ما كانت ردود أفعال التلقى لدى الناس افتتانًا بالمستغرب من الوقائع والأحداث، أو تصديقًا أو غضبًا من المغايرة والمجافاة وتجاوز المطوى فى باطن التاريخ، إلا أنه عند انتهائه من سرد حكايته كان يفرد أمام سامعيه قلنسوته ذات الرفرف، فيلقى أغلبهم فيها ببعض النقود.

بهذا المعنى فإن الرجل ليس بمرشد سياحى، بل إنه يكون دومًا متخفيًا وراء هذه الصورة، ويتزحزح عنها لينخرط فى مباشرة إبداع حكاياته التى تتمتع بدلالات مطاطية فى مجرى أحداثها، فهى لا تخضع لاختبار الحقيقة، وهى ليست حقيقية، وأيضًا ليست زائفة، إنها محض حالة تخيلية تخرج عن مجال التوثيق أو إعادة إنتاج التاريخ، وإن كانت أحيانًا تستند إليه، لكنها ترتبط بالشاعرية، وتتلبس أسلوبًا فعالاً يجعل ما هو غير موصوف قابلا للتوصيف، أسلوبًا

يستدرك كل الأشياء من خلال سرده للأشياء، ويعكس التوجه نحو العالم والأشخاص، فيمنح الخبرة شكلاً يجعلها في متناول الآخرين. ويومًا وقف الرجل أمام سائحتين أمريكيتين كبيرتين في السن ليمارس لعبته في أن يكون نفسه، وأيضًا في الوقت نفسه يبدل صفاته، فراح يحكي لهما إحدى حكاياته، فقال موجهًا حديثه إلى السائحتين "**من البديهي حتى عندكما في أمريكا الجميلة الحرة أن يكون معروفًا، أيتها السيدتان المبجلتان، أن الطاغية شديد التوحش "ماركسينتوس كومونوس" المسمى بالأحمر، قد أعد خطة لتغيير جميع أنحاء العالم في ذلك الوقت طبقًا لتصوراته، ولكن ما فعله هو أيضًا اتضح أن الناس ظلوا كما هم تقريبًا رغم كل شيء، وأنهم لم يجعلوا أحداً يغيرهم بسهولة**". هكذا في بضعة سطور فتح الرجل فضاء الحكاية وأغلقه، إذ حوت هذه السطور بشكل مكثف بقية حكايته، حيث اختزل مسافات ومحاولات الطاغية الشديد التوحش في تحقيق رغبته بتغيير أنحاء العالم وفق تصوراته، واكتفى بأن أخبرهما عن خيبة مسعى الطاغية في الوصول إلى لحظة المنال بتغيير الناس. لكن الواضح أن الرجل قد استثمر إرث التشويق، ممتطيًا مراكب الإغراء

حتى لا تنفلت منه خيوط المجاذبة لإثارة سامعيه فى التطلع إلى معرفة كيفية التعاقب الذى استغرقته الأحداث فى مسيرة الطاغية حتى خذلته، فالناس كما تستهويهم معرفة كيفية وأسباب النجاح، تستهويهم أيضًا معرفة أسباب الخذلان كما لو كانت تحاول اتقاء الألغام. والحكاية عادة ليست فى الكلام فحسب؛ وإنما أيضًا فى المعنى المقصود بالاستدراك. ولا شك فى أن انتصار الناس على رغبة الطاغية الشديد التوحش فى الحكاية التى يحكيها الرجل جاء نتيجة معركة ترددت فى صراع العلاقة بين الطاغية وميوله من جهة، وواقع الناس وقيمهم ومعتقداتهم وثقافاتهم وشأنهم الخاص من جهة أخرى. لكن "**السارد**" تعمد حجب الحكى عن هذه المرحلة الأولى من الصراع، وأراد الاشتغال على دلالة فى مرحلة تتجاوز ما بعد إخفاق الطاغية وخيبته فى تحقيق مسعاه بمشروعه الذى أراد أن يفرضه على كل أنحاء العالم، ليجيب عن السؤال: هل أصبح مشروعه وراءه، أو ما زال أمامه يترصده؟ وكيف يا ترى كانت حال الطاغية بعد الخذلان؟ ويجيب "**السارد**" فيقول "**عندئذ هوى ماركسينتوس كومونوس" فى أيام شيخوخته إلى منحدر الجنون، ففى ذلك الوقت، كما تعلمان**

بالطبع أيتها السيدتان، لم يكن هناك أطباء نفسانيون يستطيعون شفاء مثل هذه الأمراض، ولذلك لم يكن من بد ترك هذا الطاغية فى جنونه كما يريد. وفى أثناء جنونه خطرت على "ماركسينتوس كومونوس" الفكرة: أن يترك الدنيا الموجودة لنفسها ومستقبلها، وأنه من الأفضل أن يقيم دنيا جديدة تمامًا؛ فأمر بأن تصنع كرة أرضية مساوية تمامًا فى الحجم للأرض القديمة فى كل شىء، كل بيت وكل شجرة، وجميع الجبال والبحار والمياه، لا بد وأن يطابقها فى طبيعتها تمامًا، وأجبر الناس كلهم فى ذلك الوقت تحت تهديد عقوبة الإعدام، على المشاركة فى هذا العمل الهائل، وقد بنيت أولاً قاعدة لتقف عليها هذه الكرة الأرضية العملاقة، وأنتما تريان أطلال هذه القاعدة أمامكما هنا". إذن لم يفلح الفشل فى تحرير الطاغية من أوهامه، أو فى إقصائه عن مسعاه فى إصراره على إسقاط خصوصيات الناس من الحسبان، بل قاده إلى الجنون، فأدار ظهره لحقوق البشر كافة، وتسلطت عليه وساوس وهواجس وأوهام السيطرة كعلة وجود، والتى صورت له إمكانية التأله بامتلاك الكرة الأرضية تحت سيطرة القوة والجبروت والإكراه، لمد خيوط امتداد الهيمنة على البشر، حيث لا يصبح له

منافس في احتكاراته أبداً، إذ استيلاؤه على الموارد يقود مباشرة إلى زيادة ثروته وقوته كسلطة وحيدة فاعلة. وقد أشار **"السارد"** للحكاية أن الطاغية قد ترك لجنوح جنونه، بسبب غياب العلاج الناجع، خارج نطاق الطب التقليدي وقتذاك. تُرى هل يمكن أن يكون قد ترك باعتياد النسيان، أو لأنه لم تكن هناك سلطة نافذة مطلقة تفرض عليه الكف عن استمراره في مشروعه بتنميط العالم والاستيلاء عليه، أو ربما لأنه لم يكن هناك حضور لتضامن طاقة البشر النشيطة بالثقة واليقين والوعي المضاد، والتي تقود إلى استكشاف البدائل من المعالجات، كتعبير جلي عن المسئولية الجمعية في مواجهة تحديات التاريخ، التي من صور فعاليتها أمام المعضلات أنها لا تؤمن بفك الارتباط والترك والانعزال، بل تعزز مجالات الاحتواء وفتح أفق الحوار، وتمديد قنوات العلاقات الذكية التي ترتكز على التقييم الإيجابي للاختلاف، فتحاصر تنامي وتصاعد المعضلات، تُرَى أغابت أم غُيِّبَتْ هذه الحلقة عن دائرة الصراع؟ والإجابة لا شك يكشف عنها ما فعله الناس، تُرى ماذا فعل الناس؟ ويستكمل **"السارد"** حكايته فيجيب عن السؤال بأن **"الناس راحوا يبنون الكرة الأرضية نفسها،**

وكانت كرة عملاقة مثل حجم الأرض. وعندما اكتملت هذه الكرة أخيراً، أقيم عليها كل شيء بعناية تماثل ما كان موجوداً على الأرض. وبالطبع احتاج الأمر لمواد كثيرة جداً من أجل هذه الكرة الأرضية، وهذه المواد لم يستطع أحد أن يأخذها من أى مكان آخر سوى الأرض نفسها، وهكذا أخذت الأرض تتناقص فى بطء وباستمرار، بينما كانت الكرة الأرضية تزداد فى النمو على الدوام. وعندما اكتملت الدنيا الجديدة أخيراً، كان على المرء أن ينزع آخر حجر صغير لا يزال باقيًا من الأرض القديمة، وبالطبع كان أيضًا جميع الناس قد انتقلوا إلى الكرة الأرضية الجديدة، حيث إن الكرة الأرضية القديمة كانت قد استُهْلِكَت بالفعل". هل يعنى ذلك أن الناس أذعنوا وخضعوا لسلطات جبروت الطاغية بالقبول والتسليم، وانخرطوا فى التبعية، تبريراً بأن ذلك هو الإمكان، بل الخيار المتاح؟ ويجيب "**السارد**" عن السؤال حين يختتم حكايته بقوله "**عندما تحتم على "ماركسينتوس كومونوس" أن يعلم بأن كل شيء رغم ذلك ظل فى الواقع كما كان، لفَّ رأسه فى ردائه وانصرف، ولم يُعرف أبداً إلى أين؟**" لا شك فى أن الطاغية أدرك أخيراً عماء تصوراته -التى أراد بها تغيير العالم- ولم يأخذ

فى الاعتبار أن المجتمعات البشرية يحكمها تاريخها وفعالية البشر فيها تحديداً، ولا يجدى القفز عليها بالاستبداد والهيمنة، إذ رغم القوة المطلقة للطاغية، لم يسمح له الناس بالانتصار، وعندئذ اختفى وغاب.

هذه الحكاية من مخزون حكايات صاحب المهن العديدة **"جيجى"**، إحدى شخصيات الرواية الأسطورية الفذة **"مومو"** للكاتب الألمانى **"ميشائيل إنده"**، التى صدرت عام ١٩٧٣، وقد اندفعت من هذه الرواية إلى ذاكرتى الحكاية الدالة للطاغية **"ماركسينتوس كومونوس"** فمنحت صمتى صوتًا، وكأنها انشغلت ووصفت وتعرضت وتحدثت عما يجب أن يقال فى مواجهة الخطاب الانتهاكى الموارى بكل أساليب الاستدارات، لفكرة تفاضلية الحضارات كمشروع سياسى ينمط - إكراهًا - الشرق الأوسط تحديداً بسلطة الانفراد الأمريكى المخترقة لكل الخصوصيات والسيادات، والمجاهر بوصفات العلاج التى تتعالى على تنوع سياقات المجتمعات ومجرى الأحداث، والمتجاهل لسجل البدهيات فى كيفية التعامل مع الواقع، ووزن وتأثير الضمير العام للشعوب العربية، هذا الخطاب الذى تجسد فى تقرير (استراتيجية

الأمن القومى للولايات المتحدة) الذى صدر فى السابع عشر من سبتمبر عام ٢٠٠٢، حيث ينص التقرير صراحة على تأكيد الاختراقات بالقوة وإحكام السيطرة والهيمنة على العالم بدعوى تغييره، إذ يقول التقرير "إن قواتنا تمتلك القوة الكافية لإقناع الخصوم المحتملين بالكف عن السعى نحو بناء قواتهم أملاً فى تجاوز قوة الولايات المتحدة أو التكافؤ معها. سوف نشجع إقامة مجتمعات حرة ومنفتحة فى جميع القارات لتعزيز أمن أمريكا، ولزيادة ازدهار أمريكا الاقتصادى، وللدفع بالديمقراطية وحقوق الإنسان فى العالم. إننا لن نتردد فى العمل وحدنا عند الحاجة". ولقد تساءل "جون جاديس" أستاذ التاريخ العسكرى والبحرى فى جامعة "ييل" فى دراسته عن هذه الاستراتيجية بمجلة "السياسة الخارجية"، قائلا: "كيف سيرد بقية العالم إذن على الهيمنة الأمريكية؟" ثم عاد وطرح تحذيره من أنه فى ظل "الإبقاء على القوة العسكرية فوق التحديات، أفلا يتحد الضعفاء لمواجهة الأقوياء؟".

وهذا هو ما فعله الناس ضد الطاغية "ماركسينتوس كومونوس" عندما اتحدوا ولم يمكنوه من الهيمنة عليهم حتى فى الكرة الأرضية

الجديدة التى تم بناؤها وفقًا لأوامره. صحيح أن "**جون جاديس**" يعود فيجيب عن تساؤله عن إمكان توحد الضعفاء ضد الهيمنة الأمريكية بأنه "**على المستوى النظرى قد يكون الرد بالإيجاب مقبولاً. أما فى الممارسة العملية وفى التاريخ فالأمر غير محكوم بمنطق الضرورة**". لكن مع ذلك تبقى المواجهة إذن مفتوحة على الاحتمال، غير أن "**جاديس**" يقرر فى تقييمه لهذه الاستراتيجية أن "**الإدارة الأمريكية استهلكت احتياطيها من الدعم الذى ينبغى على حلفائها أن يوفروه قبل تبنى مثل هذه الاستراتيجية شديدة المجازفة**"، ثم يؤكد أن "**الفشل القيادى الأكبر حتى الآن لهذه الاستراتيجية يتحدد فى أن هذه الإدارة لم تربط بين السياسات الداخلية والاستراتيجية الكبرى**". أى أن الولايات المتحدة كى تكون فاعلة فى الخارج، لا بد أن تكون أفضل استعداداً -على المستوى السياسى- فى الداخل. والذى لا شك فيه أن انتقاد "**جاديس**" يعنى أن أية استراتيجية يَنْهَدُّ معمارها عندما يتعرى انكشافها للمخاطر فى وقت واحد على المستويين الخارجى والداخلى، فهما معًا "**بارومتر**" المعايرة والقياس لمدى مشروعيتها، وأيضًا لمدى نجاحها وفشلها. لكن يبدو أن

الإدارة الأمريكية معنية بالتركيز على التطورات الإجرائية التى تبنى عليها حسابات ما تكسبه دون حساب ما تخسره، لغياب القراءة المنصفة لقضايا واقع الشرق الأوسط الملحة، ودعم حلولها الجذرية، التى يعنى وجودها كأساس الضمان الأمثل للاستقرار الأمنى والسياسى الذى يصوغ السيادة الحقيقية للشعوب، وبدعم نمو أشكال التضامن الإنسانى المتعدد، فالحل الحقيقى لا يتأتى عبر نمط بناء الكرة الأرضية -وفق تصور **"ماركسينتوس كومونوس"**- بالهيمنة المنفردة، وإنما تغيير العالم، بل تصحيح أى مسار يتم بإرادة الناس ومسئوليتهم وجهودهم، وبالإحياء العريض والفاعل والمنظم لقيمة العدالة، والتحرر من الانحياز، والتسامى على العنصرية، والاعتراف بالمواطنة المسئولة كمرجعية للشرعية. وعلى حد تعبير الرئيس مبارك فى حديثه فى أسوان فإن أى إصلاح لا يتم بالتخطى للسلطة المركزية. والمؤكد أن هذا الدور قد يذهب شوطًا أبعد فى التأثير عندما تتسم سياسات دولية بقدر كبير من تحدى إرادة القوة الإقليمية، وحين تفتقد سياستها أبسط قواعد العدالة والموضوعية.

احتكار أم مشاركة؟!!

وصل إلى القرية رجل غريب كاد ينوء ويتكسَّر ظهره من ثقل صندوق يحمله، واختار من القرية أفسح الأمكنة، وأنزل بصعوبةٍ الصندوق المغلق ووضعه أمامه، وراح ينادى أهل القرية، فاجتمعوا على الفور حوله راصدين ما سيفعله، فإذ بالرجل يعلن عن بيع الصندوق المغلق لمن يدفع إليه أعلى ثمن، فتدافع الناس يتبارون فى المزايدة، من دون أن يتساءل أحدهم عما يحويه الصندوق المغلق، وأيضًا من دون أن يحاول الرجل الإلماح إلى ما فى الصندوق، بل ترك الناس يتخيلون ما يأملون، فكل منهم يشيد للمجهول تشخيصًا وفق طموحاته، وكان ذلك نتاج فخ لعبة أحكم الرجل صياغتها بكفاءة نادرة، وعندئذ كشرت المصالح عن أنيابها، ومارست رغبة الانفراد

بالصندوق برشق الآخر وإعاقته كي يبتعد ويخرج من المزايدة، وتصاعدت المعركة، واحتدمت حتى انتهت بأن فاز بامتلاك الصندوق أحد أثرياء القرية، من كان في مقدوره -وحده- أن يحقق الرقم الأعلى في المزايدة. على التوِّ نقل الصندوق إلى داره، ثم أغلق عليه باب غرفة نومه والصندوق أمامه، واسترخى بعض الشيء من معركة المزايدة، إذ تحقق انفراده بامتلاك المجهول وكل احتمالاته، لكن سرعان ما انفك يتجدد لديه الاستنفار لمعرفة اللامتوقع والمطوى، بل المهيأ الآن للمعرفة، فأقصى عن نفسه الاسترخاء واندفع يعبر عتبة اللا معرفة، ويخوض معركة الكشف عما انحجب، مستجمعًا كل محتشداته، مستغرقًا في فك رباط الأسلاك المعدنية التي تلف الصندوق وتحكم إغلاقه، حتى تمكن من رفع الغطاء، وما أن فعل، على الفور -كشعاع- انطلق مخلوق كريه كدر مشوَّشُ الملامح، فتراجع صاحب الصندوق هاربًا إلى زاوية الغرفة، والمخلوق الكريه الكدر يعدو إليه، يحاول أن يجثم فوق صدره، وصاحب الصندوق يرتجف مرتعداً دافعًا إياه بعيداً عنه،

والمخلوق الكريه يجاهد فى الالتصاق به، وانفجر هلع الرجل متجسداً فى سؤال أطلقه: **"من أنت؟"**، فأجابه المخلوق البشع: **"أنا همك..أجل همك، ألست أنت من اشتريتنى؟"**. ولأن الرجل من قرية لا تعرف للهم معنى، فقد تصور أن الأمر لغز قد يستطيع أن يفهمه بالإمهال أو بالمراوحة، فى حين أن **"الهم"** - واقفًا- يترصده، فجازف الرجل بالاعتراف أن فهمه لا يعقل معنى وجوده فى غرفته، ولا يدرك كذلك نوع العلاقة التى يمكن أن تكون بينهما. وبلهجة آمرة قامعة أعلن **"الهم"** للرجل أن لا جدوى من إنكار وجوده، فهو قرين شديد الاقتران به ولن يفارقه، بل لن يراه غيره أحد، مع أنه سيخطو معه كل خطواته، وسيتمدد فى فراشه إلى جانبه، ويستبطنه، ويسكنه ليل نهار، فحياته قد بدأت دورة جديدة بوجوده معه. ومنذ ذلك اليوم اختلت حياة الرجل، وصارت كل أموره مطروحة عبر هواجس المخاوف والقلق والتشاؤمات واليأس وحسابات التقديرات والافتراضات المحبطة لكل أحواله وأعماله وأسرته. تدمرت سكينته، وانتهكتها المكابدات والاختناقات فى سلسلة متصلة

من الإشكالات المستفحلة، وتزاحمت عليه كل أوجاع الحاضر وحيرة المصير، وصار "**الهم**" الذى يسكنه قيداً على أمانه، معاكسًا سعادته، يقض مضجعه، يزحف عليه كسوس الأرض يَلَذُّ بالتهام عمره، وهو لا يعرف كيفية لإقصائه. تبدلت حال الرجل فانطوى على نفسه، وانفصل وانعزل مستغرقًا فى شواغله التى تراكمت، لم ينفتح بالمشاركة على أحد لمغالبة ما يغتال حياته، ليفك ارتباطه بما يلازمه ويرهقه ويربكه، إذ أذعن وقبع ولم يبادر كى يتحرر من قيود "**الهم**" المتسلط والمسيطر، ليحمى نفسه وأعماله وأسرته، بالتشاور والمشاركة مع آخرين للتوصل إلى مصدات تعزز مواجهته للهموم التى تعددت وتنوعت، لم يجر حواراً مع غيره يوسع تفكيره ويتيح الالتفات إلى ما هو خارج نطاق رؤيته، ويشيد تضامنًا إنسانيًا ينمى قدراته وطاقته وإمكاناته، وتلك كانت سقطته، حتى استطاع يومًا صديق له أن يكسر عزلته وصمته ويستجلبه للإفضاء والكشف عن الأمر الخفى المحتجب الطارئ الذى تسبب فى عزلته وشقائه وهزاله وتآكل وجوده. وعندما انتهى الرجل من

سـرد حكايتـه، همس الصديق بخطة للتـصدى، ودعـاه إلى تنفـيذها للخروج من المأزق الذى يخنقه. على الفور قام الرجل تاركًا صديقه، ودلف إلى غرفة نومه، ووضع قبالته الصندوق الفارغ الذى كان **"الهم"** يسكنه قبل خروجه، وراح ينظر إليه ويضحك مقهقهًا، وتوالت صداحات قهقهاته فى بيته تفضح المفارقة بين ما هو فيه وما يفعله. ضاقت أنفاس **"الهم"**، وتبرم وتعجب من شأن الرجل وقدرته على الضحك برغم كل ما يفعله به، ساورته التكهنات، ولكنه قطعها بسؤال الرجل عن سبب سعادته وضحكه، فأجابه بأنه يضحك من فرط سذاجته وتيهه، حين تلبسه لأيام خلت كابوس بفعل مرارات الأحلام المزعجة وجموح الوهم المضلل، الذى أنتج تهويمات طيف مرئى مسموع، مارس عليه الشحن بالإيحاء اعتباطًا، فخلخل لديه كل الموثوقات العقلية بادعائه أنه خرج من هذا الصندوق، والذى يبدو للرائى -على صغر حجمه- أنه يبدد كل تلك الاعتباطات والتهويمات، إذ من غير الممكن عقليًا أو المحتمل أن كان فيه أو خرج منه أحد، وبذلك تكون قد اكتملت للرجل

كل تسويغات إزاحة وهم **"الهم"** الذى نازعه نوعية حياته، وعاود الرجل الصدح بقهقهاته العالية، التى كان تأثيرها فى **"الهم"** كوقع الصاعقة، حتى إنه لم يستطع كظم غيظه، فأراد محاصرة الرجل لتطاوله، والزعم بإزاحته، فعقب عليه مؤكداً أن الأمر ليس وهمًا، وأن المسألة لا يحكمها منطق الصندوق الأصغر أو الأكبر، ومن ثمة فإن **"الهم"** أعلن التحدى للرجل وهو -كما يدَّعى- فى قمة انتباهه، وصفاء عقله، وخلاصه من الوهم، بأن يثبت له بالمدى الأقصى ما لا يتصوره ممكنًا، ويؤكد له ما ينفى خروجه من الدائرة التى يطوقه بها، وعلى الفور اختزل **"الهم"** جسده الممتد، فانكمش وتكور، وألقى بنفسه فى الصندوق، وما أسرع ما أغلق الرجل عليه غطاءه وجلس فوقه، وراح ينادى صديقه الذى كان ينتظره فى الغرفة المجاورة، فاقتحم الصديق الغرفة يحمل لفائف من الأسلاك المعدنية، وراحا -معًا- يحكمان غلق الصندوق، ثم حملاه وذهبا به إلى أفسح الأمكنة بالقرية، وطلبا إلى الناس التطوع، وجمع أكوام الأخشاب والحطب، وتناسلت أعداد المتطوعين وتكاثرت، حتى

تكاثف وتعالى ما جمعوه وصار كالجبل، عندئذ أوقدا فيه النار، وعندما نشطت واكتسحت النيران وتسيدت، ألقيا بالصندوق فى أتونها، وفى لحظات أصبح الصندوق رماداً، وفجأة اندفع صاحب الصندوق يجمع الرماد المتبقى من الصندوق المحترق، وحمله وصعد به أعلى نخلة فى القرية، والناس يجتمعون يتابعون ما يفعله، وعندما بلغ قمة النخلة راح ينثر الرماد فى الهواء بكل اتجاه خوفًا من أن يعود **"الهم"** مرة ثانية، ولم يكن يدرى أنه بممارسة فعله قد وزع **"الهم"** على البلدة كلها، إذ انتشر الرماد فى الهواء، حيث هبطت ذرات رماد **"الهم"** على رءوس الناس واحداً واحداً، ومنذ ذلك اليوم لم يعرف أهل البلدة هناء العيش قط.

هذه حكاية شعبية من مخزون الثقافة المصرية، والذى يطرح تجارب مفتوحة هى خبرات كثيفة تربط الناس فيما بينهم، وتستهدف تغيير إدراكهم للعالم، وتغيير البنية النفسية لهم، فالحكاية المطروحة تشير فى سياقها تساؤلات عن مواقف متعددة، وينتج معنى التساؤلات من مقتضى بنائها، لكن هذا

المعنى من التساؤلات لا يختزل فى أنه حكم بالإدانة؛ بل هو محض استدراك للإخفاقات، وكشف يدفع الناس إلى التفكير، وتعديل المواقف والمقاصد تصحيحًا للأخطاء، سواء فى علاقة الإنسان بذاته، أو فى علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه، باعتبار أنها العلاقة المحورية التى تنتج الممارسات اليومية المتداولة. صحيح أن الحكاية تمارس فعالية نقدية لسلوك المخاتلة والتفخيخ من جانب بائع الصندوق المغلق بإقدامه على بيعه للناس، سواء بالقصد الواعى أو من دونه، إلا أن الحكاية لم ترتد إليه، وغيبت حضوره بعد فعله على مجاز أنه حدث خارجى، أو مجهول غامض كقدر مسيطر داهم القرية ثم واصل الترحال، فشكل فى بنائها نقطة هجوم تكشف كيف تدار العقول، وتعرى المنطق الذى يحكم شبكة علاقات أهل القرية، وتمتحن مدى فعالية مساحات التفاهم والتواصل بينهم، بمعنى أن مدار الاهتمام هو الاشتغال على كيفية تعامل الناس مع ما حدث فى إطار علاقاتهم بذواتهم، وأيضًا فى علاقاتهم بالآخرين، وما يعتصمون به فى مواجهة هذا الحدث، فاستنطقت

الحكاية الأحداث الصارخة التي تولدت منذ بدء عملية بيع الصندوق، استنطاق تفحص ومساءلة تنفتح على الأحداث باقتحام المرئى واللامرئى لتجعل القدرة على الرؤية أمراً ممكنًا، إذ كشف هذا الاستنطاق عن غياب اليّقظة، وقصور فعل قبول الناس للدخول فى المزايدة والمزاحمة لشراء غير المعلوم والمجهول من دون الإدراك لمدى لا معقولية ما يطرحه بائع الصندوق بأن يمارس الناس شراء ما لا يعرفون، ومن دون أن تتوحد مصالحهم الجمعية بالمشاركة والنقاش وفحص ما عرضه عليهم بائع الصندوق، إذ سيطرت عليهم الأهواء والأغراض الفردية كمصالح متصارعة، جسدتها محاولات كل منهم الحصول - وحده- على الصندوق المغلق طمعًا فى ذلك المجهول، وانخراطهم فى مزايدة استهدفت احتياز وهم صنعه تصور كل منهم لما بداخله، حيث تراكمت غشاوات منعت الأذهان من عقلنة الحدث، أو محاولة امتلاك معارف ومعلومات، لمواجهة التفخيخ والتمويه، إذ دفعت هذه الغشاوات الناس إلى الجرى وراء رهان وهم مفتوح على الخسارات، والتى جسدتها المفارقة

الساخرة فى نهاية الحكاية، عندما أصابهم جميعًا ذلك **"الهم"** الذى جاء معاكسًا لكل تصوراتهم عما يمنحه الصندوق من ثروة أو سلطان. وعندما ينبعث من استنطاق الأحداث التساؤل عن سبب ما أصاب الناس جميعهم بذلك **"الهم"**، على الفور يجيب استرجاع الأحداث أنه حتى فى خوض غمار المجهول، استثنى كل منهم نفسه من بين الآخرين، ولم يمد أحدهم جسر المشاركة، وكأنهم افتقدوا التعامل مع التفكير الذى يعيد ترتيب العلاقة مع الواقع والأشياء، وافتقدوا الانتباه لكيفية ممارسة نشاط المشاركة والنقاش الذى تتوحد من خلاله المصالح الجمعية الأوسع للجميع، وكأنه يسكنهم هوى ممارسة استبداد الأفراد. ويعد الرجل الذى اشترى الصندوق النموذج المجسد لذلك الاستبداد الفردى، إذ مع ما مر به، ما زالت تسيطر عليه فكرة الانكفاء على مصالح ذاته، ويؤكد سياق أفعاله جموده وانغلاقه، فهو -للمرة الثانية- لم يلجأ إلى ممارسة المشاركة بحثًا عن حل لتخوفه المستقبلى من عودة **"الهم"** بعد حرقه، لم ينفتح على الناس الذين تجمعوا تطوعًا عندما ناداهم

للمساعدة، لم يطرح عليهم خطته فى نشر رماد **"الهم"** ليناقشوا معه ما ينبغى، وتأثير نتائج فعلته، مع أنه قد مرت به تجربة المشاركة عندما سعى إليه صديقه، وساعده فى محنته، وأنتج فعل المشاركة حلاً لمأزقه، لكن الواضح أن الرجل لم تتغير أبنية تفكيره بقبول المشاركة، إذ جاءت فعلته الاعتباطية أو الواعية تقويضًا لتأثير تجربة المشاركة الأولى رغم نجاحها.

صحيح أنه قد تتغير وتتنوع من مجتمع إلى آخر، ومن عصر إلى عصر آليات المشاركة وهياكلها، لكن تبقى شرعية وظيفتها دائمة، بأنها تقصى العجز عن استباق ما قد يقع، وتفعل مفهوم المسئولية والسيادة، وتعزز الثقة فى صنع القرار القائم والمستند إلى مشاركة المجتمع، وتغير مفهوم المواطنة وممارساتها، فتنقلها من التهليل والاستحسان والمصادقة الدائمة، إلى المناقشة وطرح المخاطر والتحسبات والاعتراضات والحلول والتصحيحات، فتتحول الرؤى والمصالح العامة إلى سياسات فاعلة فى المجالات المؤسسية للمجتمع، فتحمى بذلك استقرار المجتمع من الاختراق والتعدى على مقدراته، وتضمن استمرار مباشرة الحاضر ومشكلاته،

واستشراف المستقبل، وصياغة سياساته بمناصرة المصالح المجتمعية التى تجسد الرؤية للإرادة المشتركة للمجتمع، والتى تتقاطع مع أية ولاءات ضيقة، مثل صاحب الصندوق فى حكايتنا هذه، الذى أعماه ولاؤه الضيق لمصالحه عن أن يرى مصالح كل أفراد المجتمع فأصابهم **"بالهم"** جميعًا كى ينقذ ذاته، سواء أكان ذلك اعتباطًا أم بالقصد الواعى، لكنه بالتأكيد كان واهمًا بأنه قد احتكر السلامة فقط لنفسه، إذ وفق المثل الشعبى الذى تستند إليه الحكاية **"يطحن الهم وينخله"**، وهو ما يعنى أنه سوف يأكل **"الهم"** مع الآخرين أفراد مجتمعه الذين وزعه عليهم، ولا نجاة له من فعله!

فك ارتباط أم شراكة؟!

كانا يقولان إنه "**مهما كانت الدكتاتورية مريعة فإنها تختفى باختفاء الدكتاتور، وهكذا يستطيع الناس أن يستمروا ولديهم أمل. على العكس من الشيوعية المدعومة بالحضارة الروسية الهائلة التى هى بالنسبة إلى بلد مثل بولندا والمجر نفق لا نهاية له، الدكتاتوريون فانون، روسيا خالدة، مصيبة البلدان التى جئنا منها تقوم على الانعدام الكامل للأمل**". هكذا كانت "**إرنا**" وزوجها "**مارتين**"، المهاجران الهاربان عام ١٩٦٩ من تشيكوسلوفاكيا إلى فرنسا، يفسران لأصدقائهما الجدد فى "**باريس**" كارثة بلدهما فى ظل الاجتياح الروسى الشيوعى وانتهاكاته التى هربا منها، ومعهما ابنتهما فى المهد، والابنة القادمة التى تحملها "**إرنا**" فى بطنها، فشكل دفاعهما، وجسد

هروبهما معنى الوعى والاختيار الاضطرارى المتسم بالعجز والقصور فى مواجهة اختراقات ممارسات منظومة مغلقة تتعالى على الواقع، وتطرح أطيافًا خادعة. مات "**مارتين**" بعد فترة من هجرتهما، وواجهت "**إرنا**" قدرها وحيدة منزوعة القوى، فمارست أعمالا متعددة حتى استقر بها المقام كمترجمة، وعاشت حياتها وارتبطت بعلاقة عاطفية خارج إطار الزواج مع "**جوستاف**" السويدى الجنسية، الذى يعيش فى "**باريس**"، والمتزوج وله ابنتان، والهارب دومًا من زوجته. ولكى يتمكن من أن يباشر مع "**إرنا**" حياة متواصلة معزولة عن أولويات "**إرنا**" الواجبة الضاغطة كأم، استطاع أن يؤمن لابنتيها حياة مستقلة بعيدة عن بيتها، مغيراً بذلك شروط حياتها. وبعد عشرين عامًا تلاحقت أحداث دولية تضمنت الانهيار الصاعق لمنظومة أسرة الدول الشيوعية المدعومة من روسيا عام ١٩٨٩، وعندئذ انتفت أسباب انعدام الأمل لتلك المجتمعات، وفقد المهاجرون مصداقية ومشروعية وجودهم خارج أوطانهم، إذ أضحى دفاعهم سحراً ضاعت وصفته، وهو ما دفع "**سيلفى**"

الصديقة الفرنسية النجية "**لإرنا**" أن تطرح عليها تساؤلاتها فى ظل التحولات التاريخية عن استئناف النهوض مجدداً بعد خلاص وطنها، وطالبتها بالرحيل فوراً للمشاركة فيما يجرى فى بلدها لتفوز بذاتها. وتحت دهشتها من منطق دفاع "**إرنا**" عن عدم رغبتها في الرحيل بدعوى أنها عاشت من حياتها عشرين عاما فى "**باريس**"، التى تعتبرها بلدها، بدا بقاء "**إرنا**"، وعدم رحيلها ينسف "**لسيلفى**" كل توقعاتها، ويعاكس قناعاتها، لكنها امتلكت القوة على إقناعها، إذ أيقظت "**سيلفى**" لدى "**إرنا**" سحر العودة، وأولته سلطان الغلبة حين خصبت مشاعرها، فاستعادت صوراً قديمة من ذاكرتها كانت تعتادها فى أول رحلتها عندما هاجرت ثم اختفت، فانبثقت ثانية، وتمكنت منها، وسيطرت لتقودها إلى مسقط رأسها. وفى مطار "**باريس**"، وهى فى بداية رحلة العودة إلى "**براغ**"، بدأت أولى المفارقات بمحض المصادفة، حيث رأت على مقعد قبالتها رجلا تشيكيًا تعرفه، جاذبته الحديث، فإذ به مهاجر مثلها، ويعيش بالدنمارك، وأيضًا مثلها يشاركها رحلة العودة غير النهائية، كزيارة استطلاع للأحوال والأهل. تعرفت "**إرنا**" فيه قصة

حبها القديمة المبتورة التى بدأت فى "براغ"، وبقيت مثل جرح لم يندمل قط. ترى هل قدر لذلك الذى انقطع أن يتهيأ ويشرق وصاله كى يكمل -ولو متأخراً- مسيرته، فيصبح الممتنع ممكنًا؟ أما "جوزيف" فإنه لم يعرفها لأنه -ببساطة- على يقين أنه لا يعرفها أصلاً، فكشفت المفارقة -إذن- أن الشىء المشترك بينهما قد تخلخل وانقطع، فذاكرته لا تتشابه مع ذاكرتها، فهل يا ترى يشكل هذا الافتراق فى أساس علاقتهما مانعًا للاتفاق؟على أية حال، لم ينأ "جوزيف" عنها، ربما اعتبرها مغامرة مجهولة مغرية، وربما لما أظهرته من ود ولطف وجمال الأربعين الذى تبدت به، وافترقا عند وصولهما إلى مطار "براغ" على أمل الاتصال فى أثناء وجوده فى رحلته المؤقتة.

إن عودة "إرنا" و"جوزيف" إلى بلدهما تمثل مشهداً لمواجهة المنفصل والمنقطع فى محاولة الالتحاق بالوطن الغائب المفارق، محاولة استرداده. صحيح أن القطيعة مهما بدت حادة وحازمة ليست قاطعة تمامًا، لكن العودة بعد السنوات الطوال تعنى عملية استبدال يحكمها مدى ثقل وعمق فصل الاحتكاك وقطع

الاتصال. ترى هل يؤثر فى محاولة العودة والالتحاق بالوطن مدى الجهل بما يجرى فيه، وغياب المعرفة به؟ هل هناك **"بكتريا"** تنهش وتزيح وتقضى على المعطى قبلا من تجارب حياتية للكائن البشرى فى سنوات غربته وهجرته؟ لقد كانت **"إرنا"** فى أول أيام هجرتها -ومثلها جميع المهاجرين من بلدها- يعيشون تجربة حميمة لحلم جماعى على امتداد الليل، حلمًا واحداً مع تنويعات لا تحصى، فالنهار يبين الجنة المفقودة، والليل يجسد الجحيم الذى تم الهرب منه. ترى هل تأتى لحظة يتم فيها للمهاجر استغياب الوطن رغم واقعيته، فيقهر ويزيح حضوره عنه ليقضى على توزع مشاعره، فيلغى هواجس الماضى، ويتحرر بذلك منه كى يفوز بوجوده، ويحتضن حاضره، وينخرط فى أفعاله الواقعية اليومية، فيفقد بالنسيان الذاكرة؟ أو أن الكائن البشرى عندما يشيخ والنهاية تقترب، تصبح كل لحظة ثمينة، ولا يعود هناك وقت يضيع ويُنفق على الذكريات؟ إن جوزيف قبل عودته **"كان قد جهز نفسه لمواجهة الأماكن المعروفة، حياته الماضية، وسأل نفسه: هل سأتأثر؟ هل سأكون**

لا مباليًا؟ هل سأفرح؟ هل سأنقبض؟ على الإطلاق، فخلال غيابه كنست مكنسة مشهد شبابه، ماحية كل ما كان مألوفًا، والمواجهة التى كان يتوقعها لم تحدث". لا شك أن **"جوزيف"** عندما عاد لم يكن ممتلئًا بالرغبة، كان ينقصه ذلك الجسر الذى خلاله يعبر إلى الضفة الثانية من حياته، كان مفتقداً الرغبة والحاجة والهدف، أى مفتقداً ما يعيد اتصاله بمصادر حياته من دون ممانعة، **"كانت ذاكرته شريرة ولا تقدم له شيئًا من حياته مرغوبًا فيه ببلده، لقد عبر الحدود بخطوات خفيفة ودون ندم"**، وكأنه قد أنهى ذلك التوتر الحقيقى والجذرى بين ضفتى حياته، لمصلحة حياته المتداولة والمعيشة، دون إكراهات من مساحات ذكريات تحده وتعطله، **"لم يملك فى غربته الوقت للاهتمام بذكرياته المتعلقة ببلده الذى ما عاد يعيش فيه، إنه قانون الذاكرة المازوشية!! مع تتالى سقوط المراحل المختلفة من حياة الكائن البشرى فى النسيان، فإنه يزيح عن كاهله كل ما يحبه، فيشعر بنفسه أكثر رشاقة، وأكثر حرية. كان أكثر ما تجلى عشق "جوزيف" فى الغربة، والعشق تمجيد الحاضر، والتصاقه**

بالحاضر أبعد الذكريات، حماه من تدخلاتها، وما عادت ذاكرته خبيثة، بل أكثر إهمالاً، وفقدت هيمنتها عليه". أما "**إرنا**" فقد مارست التجوال فى ممرات الماضى مسحورة بكل ما تراه فى مدينتها "**براغ**"، وراحت تستعيد كل ذكرياتها، واستسلمت لذلك التيار الداخلى المهيمن الذى هو تاريخها، بل أيضًا زاوجت بين "**هنا**" و"**هناك**"، أى بين "**باريس**" و "**براغ**"، وكأنها فى راهنها متأثرة بكل تأثيرات تاريخها، "**فقد كانت تحمل معها فى فرنسا عطر هذا البلد الذى لا يُنقل جوهره غير المادى**". لكنها فى النهاية أصابها العجز إزاء التناقضات والأوجاع، فبدت جميع محاولاتها فى التجوال مجهضة، لقد أدارت ظهرها وهى تقول لنفسها "**بأنها قامت اليوم بنزهة الوداع التى أخفقت بها آنذاك، تقوم أخيراً بالوداع الكبير من المدينة التى أحبتها أكثر من جميع المدن، وتستعد مرة أخرى للضياع دون ندم كى تستحق حياتها اللائقة**". إن موقف "**جوزيف**" و"**إرنا**" من معاودة الرحيل عن الوطن موقف واحد، وإن اختلف تقبل كل منهما لطاقة الجذب وذخائر الولاء، وهنا يتبدى السؤال

"لِمَ"؟ هل يعنى ذلك **"أن واقعًا كان لا يبقى كما كان، واسترداده محال؟"** أو أن أفق الانتظار المتعلق بالمستقبل يعنى سلسلة من الرجاء والخوف والأمل والإرادة والقلق والحسابات والفضول، فيصبح الحاضر أزمة، إذ من المحتمل أن ما يحدث قد يكون غير مأمول من الانتظار، لذلك لا بد من مقاومة إغراء الانتظار، وإغلاق الماضى خوفًا من ألا يأتى المستقبل بالتطلعات المرغوبة، أو يا ترى إن العودة تعنى عملية بتر لعشرين عامًا من الحياة، وهى المقولة التى اختزلت بها **"إرنا"** فكرة العودة إلى الوطن، إذ إنها -وفق تعبيرها- أحست بنفسها، وشعرت أنها مقتضبة متقلصة مثل قزمة لو قبلت العودة. وحتمًا إن ذلك نتيجة فعل **"بكتريا"** نهشت حسها الذى يصلها بنفسها وذاتها، ففك ارتباطها بماضيها وتاريخها ووطنها، فتغيرت خارطة وجودها. ولا شك أن هذه **"البكتريا"** الصغيرة تمارس -بلا انقطاع- نهش الذاكرة، وتحاول محوها لدى الكائن البشرى، وتدفعه إلى الانفكاك من ارتباطه بالتجارب الناظمة لشخصيته، وتستزرع النسيان، لتبطل نضال الذاكرة، فينصرف عن ماضيه برغبة لا عقلانية ليجعل من نفسه نَسْيًا منسيًا، مقطوعًا عن

التماس مع ما حصله من خبرات شعورية سابقة، بل غير قادر على استحضارها مثلما كانت الحال مع **"جوزيف"**، أو إن استحضرها -مثل **"إرنا"**- فإنها تكون غير فاعلة، وسرعان ما تنطفئ، والوضع الكارثة أن الإنسان قد يكون فى البداية واعيًا بهذا الخطر، لكنه فى أعماقه لا يوليه انتباهًا، فينمو حتى يصبح طوفانًا هائلاً.

هذه الحيرة من التساؤلات تنهال على القارئ عندما يتأمل الرواية الرائعة **"الجهل"** للكاتب التشيكى البارع **"ميلان كونديرا"**، لكن هذا الالتباس فى العلاقة بالوطن ينمّى معه **"كونديرا"** مجموعة من الحكايا الموازية يؤسس عليها تضافراً فنيا يشكل شبكة من الترابطات الدرامية المجدولة الحاملة والغنية بالإيحاءات، كصدى يتكامل ليحدد ويرسم إطاراً يعين ويتيح للقارئ أن ينفتح على بؤرة روايته الرائعة، إذ تكشف الرواية أن **"جوزيف"** و**"إرنا"** وغيرهما من المهاجرين هربوا بعجزهم عن مواجهة انتهاكات النظام المسيطر فى بلدهم، وكان هروبهم لوعيهم بما عليه حال الوطن من امتهان، لكنهم خلال حياتهم بعيداً عن الوطن جهلوا ما يجرى فيه، ولم يمارسوا طاقة استمرار تشغيل الانهمام به، وتصوروا أن الوطن يبقى محفوظًا فى الذاكرة، وتركوا

الذاكرة فريسة للخطر اليومى الذى لم ينتبهوا له، والمتمثل فى "البكتريا" الصغيرة المستدقة التى تتغذى يوميًا -وطوال السنوات- على نهش جسور ارتباطهم بوطنهم، لذا فإنه عندما أصبح المجال أمامهم مفتوحًا للاضطلاع بمسئوليتهم تجاهه، بعد السقوط المدوى للدكتاتورية المهيمنة التى انتهكت مقدراتهم، اختاروا مرة أخرى الرحيل عن الوطن وتركوه، إذ أصبح فك ارتباطهم به واقعًا، والعودة إليه أصبحت بلا غطاء، ففضلوا الاندماج فى تجربتهم الجديدة، وممارسة ما اكتسبوه خلالها.

تطرح هذه الرواية قضية مبدأ حرية فك الارتباط بالوطن، وفى تصورنا أنه إذا كان فك الارتباط بالوطن يعد تخليًا عن المواطنة المسئولة، لا سيما إذا كان الإدراك والوعى بأوضاع الوطن حاضراً وفاعلاً، فإنه -على الجانب الآخر- لا يعنى الارتباط بالوطن أن يتم القطع عن العالم، وفك الارتباط به، فذلك أيضًا يعد تخليًا عن المواطنة المسئولة المدركة للتحولات العالمية المتغيرة، فالساحة الدولية فى عصرنا تموج بقدر متلاحق من المستجدات والمتغيرات لا يجدى معها الانكفاء على الذات، أو ممارسة نظام حكم المدن المغلقة، دون الانفتاح على العالم، فالشأن الاقتصادى الدولى تصدر واجهة القوة والعوامل

الكبرى التى تتحكم فى مصائر المجتمعات، وشراكة التضامن الفعال بين الإرادات الإنسانية، التى تتجسد فى تنظيمات ومؤسسات دولية مؤثرة، هى الحل الوحيد المتاح أمامنا، لقد كان الرهان سابقًا على شراكة جنوب-جنوب، فتبين أنها لا تحقق النقلات المعرفية المأمولة للنهوض المتواتر، وأيضًا تحف بها صعوبات متجذرة فى آليات تحقيقها، وتهافت إيقاع إنجازها. لقد أصبح اليوم الرهان الاستراتيجى المهم يتأسس على ممارسة تعزيز الشراكة المصرية الأوروبية، وهو التوجه الذى يمكن أن يمثل عبوراً للفجوة الاقتصادية والمعرفية التى تحولت إلى هوة ثقافية بيننا وبين الغرب، فغذت إعادة إنتاج العنصرية والتعصب، ودفعت إلى استمرار المواجهات. لا شك أن هذه الشراكة ستشحذ طاقة الانتباه لمؤسساتنا فى إطار سياسة التنمية التى تستجيب لطموحات مشروعنا الوطنى للنهوض المرتقب، وتفتح آفاقًا تجنبنا العزلة والتباعد والانقطاع، مما يؤدى إلى فك الارتباط مع كيان يملك كثيراً من المقومات المؤثرة، ويصعب على من يرتبطون بمصير هذا الوطن الإقرار بحرمان التجربة المصرية الوطنية من أية إضاءات تسهم فى نجاحها، إذ علينا ألا نفعل مثل **"جوزيف"** و**"إرنا"** بأن نفك ارتباطنا بحقيقتنا وواقعنا الحضارى المصرى والعربى؛ بل علينا أن نخصب تجربة النهوض الوطنى بشراكة الانفتاح على العالم.

مبارك والمسئولية الثقافية

فى مصر الفرعونية، وفى عصر الأسرة التاسعة عشرة نحو عام ١٣٠٠ قبل الميلاد ، كتب أحد الكتاب مديحًا عن مهنته، مهنة الكتابة، فقال:

كن كـــاتبـــا. احـــفـــر هذا فى قلبك.

كى يبـقى اسـمك خـالدًا مـثل أسـمـائهم.

اللفــيــفــة أفـضل من الحـجـر المنحـوت.

رجل توفى: جـثــتــه أصــبــحت رمــادًا.

وأهـلــه رحـلـوا عــن الـبــــــــــلاد.

كـــــتــــاب يحــــفـظ ذكــــراه

عـلـى لـســـــان الـذى يقــــــرؤه.

لا شك أن المتأمل المتيقظ لهذه الكلمات يكتشف أن الرهان الذى يطرحه صاحبها، هو رهان علاقة الكاتب بالناس، بالرأى العام، وليس بأى سلطان آخر، إذ هذا السلطان الاجتماعى هو الذى يضخ الحياة فيما هو مكتوب، ويمنحه -بالتداول والقراءة- فعل الحضور، فلا يلبث المكتوب أن يعاود الولادة كأفكار لحظة اشتباكه مع خارطة وجود الناس، فبدون الناس يتخثر المكتوب، ويقبع منفصلاً فى المخزونات إن لم يصبح متدخلاً فى حياتهم وشئونهم. صحيح -كما يقول صاحب الكلمات- أن الكائن البشرى يفنى ويموت وقد يفقد ذكراه، لكن المكتوب يبقى من بعده ليستدخل له حياة مضافة تبطل فعل الفناء، فالإنسان لا يعيش بالمفرد؛ ولكن بمجموع الناس حتى بعد الممات، إذ تصبح الكتابة سلطانًا بفعل سلطان الرأى العام. أما اللفائف التى فضلها صاحب هذه الكلمات على الحجر المنحوت، فإنما تعكس خوفه من آفة الفقدان، وقد حوت مكتبة الإسكندرية، التى تأسست فى مصر خلال عصر البطالمة، ما يقرب من نصف مليون لفيفة، إلى جانب أربعين ألف لفيفة فى معبد **"سرابيس"** فى حى **"راكوتس"** المصرى القديم، حيث

كان على جميع السفن المتجهة إلى الإسكندرية -تنفيذاً لمرسوم من السلطة العامة- تسليم جميع الكتب التي تقلها، لتستنسخ وترسل النسخة إلى المكتبة، ويعاد الأصل إلى صاحبه، فالشعار الذي كانت تحمله مكتبة الإسكندرية هو "**احتواء مجموع المعارف**". وفي مصر أيضًا أسس الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي "**دار العلم**" التي زودها بمجموعة نفيسة من المخطوطات والنصوص، وكان يدعو كثيراً من الفلكيين وعلماء الرياضيات المشهورين، ويطالب الشعب بأن "**يأتي كل واحد من أجل أن يقرأ، وأن يستنسخ، وأن يتعلم**". ولا جدال في أن كل مجتمع يحتاج إذا ما سعى إلى تعجيل نموه الثقافي، أن تتولى سلطاته العامة الاهتمام بالمكتبات والكتاب، فتقيم لهما الكيانات باعتبارهما بوابات المعرفة والانفتاح على ثمرات منجزات التقدم الإنساني، وبهما يتخلق مناخ الحوار الخصيب والاستقصاء والكشف والفتح والإبداع، وذلك من منطلق أن السلطة العامة هي الإرادة الباحثة عن المصلحة العامة، والدافعة للعقل الفردي والجماعي إلى إبداع وصياغة ثقافته التي يتحدد كيان المجتمع على صورتها ومثالها، لكن -بالتأكيد- يسقط

من الحسبان أن من وظيفة السلطة العامة أن تشكل نموذجًا استباقيًا يحدد مضمون ثقافة تفرض على المواطنين، فلا تستطيع السلطة العامة أن تنوب عن جموع القدرات الخلاقة من المثقفين والمفكرين فتصبح منتجة للثقافة، وهو ما أوضحه الرئيس مبارك فى خطابه خلال لقائه المثقفين والمفكرين بمناسبة افتتاح معرض القاهرة الدولى للكتاب، حيث أكد أن ذلك **"لا يمكن أن يتحقق بجهد حكومى، ولكن من خلال دور ثقافى كبير يقوم به المثقفون وحملة الأقلام وأصحاب الرؤى"**. فالرؤى بطبيعتها تدفعنا إلى إعادة فحص افتراضاتنا، كما تتطلب قدرة على تجاوز الخبرة الحالية، وتغيير أنماط التفكير، وهى أيضًا حامل الأمل؛ لذلك فهى منوطة بالمثقفين باعتبارهم حملة مسئولية إنتاج المجتمع نفسه، ورعاة تطوير وعيه إيجابيًا بالعالم من حوله، وحراس إعادة فحص واقعه وتثمين مستقبله، والمهمومين بممارسة الاشتغال الدائم على صفة العلاقات المتبادلة بين الفرد والمجتمع، سواء فى درجة استقلاليته، أو فى اتصاله بالآخرين، والمشاركة الفضلى بالمجتمع، مع الاحتفاظ بقدرته

على التحرر منه، عندما تتنافر أوهام الأجوبة المغلوطة المستدعاة من أكفانها إلى غير أزمانها، لتواجه أسئلة الإدراك الراهن الواعي بمستجدات العالم، أى الإدراك الذى يعتمد على تجاوز عقلية الماضى، ومرجعية الشعارات، وإلهاب المشاعر، ويعيد تأسيس التعامل مع العالم فى ضوء متغيراته، وينشط فعاليات الفكر، ويجدد أدواته المعرفية، ويقبل التثاقف خياراً مشروعًا، معالجًا الراهن الاجتماعى والاقتصادى والسياسى فى إطار أزمانها، من حيث كونها تجليات الاهتمام الأكبر بقضايا المصير العام، وهو الأمر الذى جاء مسكونًا بكلمات الرئيس مبارك "**بأن قضايا التنمية والتحديث والتطوير لها أبعاد ثقافية، وأحسب أنه قد حان الوقت لأن يتأكد مفهومنا للعمل الثقافى، بأنه عمل تنموى يهدف للنهوض بالمجتمع ليس فقط فكريًا، وإنما أيضًا سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا**". فالمجتمع المصرى ليس مكانًا فحسب، بل ممارسات لهوية جمعية، لا تتقدم فيه السياسة على الثقافة بميزة أو العكس، وإنما هى مجموعة ممارسات متداخلة على الأصعدة كافة، تستهدف تحقيق

الغـايات المرتبطة بمصـالحـه الكليـة. وفى هذا السـيـاق فـإن مستجدات التطور على الساحة الدولية، أبرزت وظيفة مركزية من وظائف السلطة العامة، تتحدد فى التفعيل المتسع لثقافة المجتمع المدنى، وتعزيز مشاركته، وهو أمر مرهون بمدى القدرة على امتلاك وقبول التصورات المختلفة لتطوير المجتمع وإعادة هيكلته، وتحمل مسئولية تأصيل الأفكار والآليات التى تمكنه من التنظيم والتحقق والفعالية والشرعية، للمشاركة فى إدارة المصالح المجتمعية، وهو المطلب الذى دعى إليه الرئيس مبارك؛ بأن هذا الفكر يجب **"أن يمتد للعمل الأهلى الذى يجب أن نسعى لتأصيل ثقافته بدعوة الشباب والمرأة لمزيد من المشاركة فيه، وتوعيتهم بأهمية دور المؤسسات الأهلية والمنظمات غير الحكومية فى دعم مسيرة التنمية وتحقيق النهضة الشاملة التى ننشدها لأمتنا"**. إن دعوة الرئيس مبارك إلى تفعيل دور منظمات المجتمع المدنى على الساحة العامة للمجتمع، إنما هى -فى الأساس- دعوة إلى مجتمع تعددى يحترم الحريات، تتحمل فئة منظمات المجتمع المدنى مسئولياتها كفاعل

اجتماعى، وشريك فى التنمية والبناء، تنفتح أمامه ممارسات العمل المنتج فى الحقول والقطاعات كافة.

لا شك أن أهمية دور الثقافة والمثقفين والمفكرين وأصحاب الرؤى، تكمن فى فاعلية تطوير الوعى الذاتى بالدور والموقع والإمكانية، كما أن رهانهم المؤكد لا بد أن يكون على التعامل مع الرأى العام فى شئونه وقضاياه ومعاملاته كافة، والذى يعد حقل الاشتغال الحقيقى، بتوافر الممارسة النقدية لمعطيات علاقاته سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، والدفع إلى تجديد آليات تفكيره وطرائق معاملاته، وفحص وكشف ثوابته ومسلماته، وتأكيد صلة التلازم بين الثقافة والديمقراطية، وتعميق حق الاجتهاد والإبداع والاختلاف، فى إطار ما تحقق **"من إصلاح سياسى خلق مجتمعًا ديمقراطيًا يتمتع بكل الحريات، ويتيح أفضل فرص الإبداع، فالإصلاح السياسى وتعميق وتطوير مسيرة الديمقراطية والعمل الحزبى، يحقق طموح المجتمع فى حياة سياسية تتيح له فرصة المشاركة فى مناخ ديمقراطى يسوده احترام حرية الفرد والمجتمع"**. وانطلاقًا

من ذلك فإن الممارسة الثقافية المسئولة، لا بد أن تتم على ساحة المعيش، وتتعامل مع منطق الأحداث والمستجدات، وما طرأ من متغيرات في شبكة الوجود الاجتماعي، وتأثيراتها في الداخل، من دون التمترس وراء تصورات مطلقة في غير ما مساءلة لهذه التصورات عما تطرحه من إيجابيات واستحقاق في شئون الواقع الاجتماعي ومستقبل الناس وحاضرهم، ورفض الاشتغال على صياغة المقاربات لفك التعارضات، بتنمية الفكر وتحريره، وإعادة تشكيله؛ لذا فإن الرئيس مبارك -إيمانًا بالدور الثقافي الفعال والمسئول- يعلن: **"إننا بحاجة إلى أن يكون للحركة الثقافية دورها التنموي المؤثر في شكل الحياة الاجتماعية، والقادر على التفاعل مع قضايانا الداخلية، خاصة في ضوء ما حققناه من تقدم ملموس في مجالات الإصلاح المختلفة، سواء على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي"**، فقد أصبح محسوبًا معرفيًا، وسائدًا كفكرة مركزية في عالمنا المعاصر، بل يؤخذ بقدر عالٍ من الأهمية، ما يسمى بـ **"طاقة فعل الثقافة التغييري"** في شتى مستويات المجال الاجتماعي،

إذ من الممكن القول إن كل ما في حياتنا الاجتماعية المعيشة قد غدا ثقافيًا، وبهذا المعنى شكلت الثقافة القوة الاجتماعية الجديدة المسيطرة، ومن هنا كان سؤال الرئيس مبارك: **"هل تقوم الحركة الثقافية بدورها المؤثر في الحياة الاجتماعية بالقدر الذى ننشده فى سبيل تنمية المجتمع الشاملة؟..وهل تحظى القضايا الداخلية سواء أكانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية بنفس القدر من البحث والتأمل الذى تحظى به القضايا العالمية والدولية؟"**. ويعاود الرئيس ليجيب: **"إننا ما زلنا نتطلع للدور الذى يقوم به المثقفون فى تشجيع فئات المجتمع على المشاركة فى الحياة السياسية بشكل فاعل ومسئول، لكى يقبل المجتمع على ممارسة حقوقه عن وعى كامل بأهمية أن تعبر الحياة السياسية عن مشاركة حقيقية لكل فئات وأفراد المجتمع"**. لا بديل -إذن- عن أن تضطلع الحركة الثقافية بتغيير شبكة المفاهيم القديمة فى مستويات المجال الاجتماعى التى تقود وتؤثر فى ارتياد المسالك انعزالاً، أو اختزالاً، أو تعصبًا وغلواً، أو تهويمًا، والعمل على تجاوزها، والتحرر من أطرها لخلق إمكانات للتفاعل والانخراط

في ممارسة الحرية المسئولة، وتنمية القدرات، واستثمار المواهب في دعم المشاركة الفعالة للكافة لمباشرة علاقاتهم بوجودهم استحقاقًا وجدارة.

لكن الصحيح أيضًا أنه لا يستقيم أي دور اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي للحركة الثقافية، إن لم تكن السلطة العامة ضامنة للثقافة، بمعنى أن تلعب دور الوسيط الطبيعي بين إبداع الثقافة واستيعابها لدى الناس، وذلك باضطلاعها على إنشاء السياق المؤسسي الذي يتبنى السياسات الثقافية والتشريعات، بحيث يستطيع هذا السياق المؤسسي -كما أكد الرئيس مبارك- أن **"يحافظ على المكاسب التي تحققت، بل يضيف إليها الكثير، سواء من خلال المجالس القومية، أو المؤسسات والتشريعات التي كان لها تأثيرها البالغ على تحقيق النضج الفكري لمجتمعنا"**. هذا بالإضافة إلى قيام السلطة العامة بتشييد البنيات والمؤسسات الثقافية، ووسائل النشر والإشهار والاتصال التي تتمتع بالشرعية لدى الرأي العام، وأيضًا -على حد تعبير الرئيس مبارك- **"إقامة المشروعات الثقافية العملاقة التي تحشد لها كل طاقات الإنجاز"**، كجسور

اتصــال، ومنارات للفكر، وبوابات عــبـور للحـضـارات، تنفى العــزلة، وتفند دعــائم الـشك والتــزييـف، وتسـتــولد التــداول والاتصال وقبول التثاقف خياراً، إذ علينا -كما أوضح الرئيس مبارك- "**مسئولية كبرى على الصعيد الدولى تتطلب منا أن نتفتح على العالم، وأن نفتح كل سبل وآفاق الحوار الذى يؤهلنا لطرح معطيات ثقافتنا على الآخرين بوجهها الصحيح، وعلينا أن نخاطب العالم بالمنهج الحضاري الذى لا يتحيز إلا لقيم الحق والخير، ويستمد قوته من التسامح والإيمان، ولكنه أيضًا يستند إلى موروثه الحضارى الزاخر المتراكم عبر السنين**"، دون أن نمارس، أو نقبل ممارسة الآخر الإقصاء أو التعالى أو التفضيل لثقافة على أخرى ارتكازاً على حكم قيمة لتفوقها، فإن فى ذلك انتهاكًا لمعنى الهوية، حيث لا خلاف فى أن القضايا الثقافية والمادية تدفع البشر إلى النزول إلى الشوارع، أكثر مما تدفعهم إلى ذلك القضايا السياسية المحضة، لذلك كان رهان كاتب العصر الفرعونى القديم مداره علاقته بالناس، بالرأى العام، بالسلطان الاجتماعى.

عري العالم وعاره!!

تعرضت الزوجة لكل صنوف المهانة فى حياتها لفقدانها زوجها فى الحرب التوسعية، التى يقودها **"القيصر"** الصينى. ومع يقينها أن زوجها قد مات فى تلك الحرب، إلا أنها رفضت ثبات هذه العلاقة بينها وبين المهانة، فراحت تحت تأثير انهيار عالمها، وبمراس وإدراك ذاتيين، تبحث عن التحرر من ثبات علاقتها بنوعية حياة لا تتوافر فيها المتطلبات الحيوية الإنسانية، إلا بتخليها عن شرفها وقيمها، حيث تغدو سلعة للمساومة والتداول بين الرجال، مخذولة أمام نفسها، تدفع إلى السقوط دفع الغصب وتعدى الحدود، تحت ضغوط سيادة سلطان المهانة التى تغطى مساحة حياتها لغياب عائلها الوحيد، وقصور تحكمها، وقصور تصرفها. لكنها أمام

مسئوليتها تجاه نفسها، تلك المسئولية المقترنة بالخوف من السقوط، رفضت أن تتورط فى إقامة علاقة انتظار مع الحياة المهينة، أملاً فيما قد يأتى أو تلقاه يومًا، فيحررها من تلك المهانة، إذ أدركت أنها إن فعلت ذلك، فساعتها ستكون قد فتحت الباب أمام فعل الانتظار ليعتقلها فى دائرة المهانة الأبدية، وترغم عندئذ على الاستسلام، ويصبح الاتجار بجسدها هو بضاعتها ورأس مالها كى تعيش، ومن دون خيار، وذلك لثبات مسلسل الأسباب المتناسلة فى شكل دائرة، يحرك مركزها ذلك **"القيصر"** الذى يدفع الرجال إلى الموت بلا سبب سوى إرضاء الذات، ثم تتواثب من بعد ذلك المحن بجموح، فتتفكك حياة الناس وتنهار؛ لذلك اختارت الزوجة عندما انهار عالمها، أن تخرج لتواجه ذلك **"القيصر"**، مَنْ كان سببًا فى مهانتها حين أضاع فى الحرب زوجها وعائلها الوحيد ثمنًا لمجده الذى يتنفسه وحده، بما ينعم به من مباهج الحياة، متربعًا فوق السور الضخم فى ظل حراسه، حفظة بقاء ذلك السور الرهيب، الذى يعنى وجوده -على الحقيقة- ترسانة القوه

المتعالية على قدرات أهل البلاد ، كما يعنى وجوده -على المجاز- استمرار فعل الانتهاك للحياة، واستطراد وثبات محن العيش للناس، لكن المدهش فى أمر تلك الزوجة أنها عند مواجهتها للسور الرهيب، الذى يتربع فوقه **"القيصر"**، طلبت المحال المتمثل فى استعادة زوجها الذى غاب، برغم يقينها أنه مات، وأيضًا برغم تاريخها معه الذى ذاقت فيه كل المرارات. ربما يكون طلبها للمحال تجسيداً لإرادة لا تلين تسعى إلى استرداد حقها فى حياة ارتضتها، وتراها كافية وفقًا لمعاييرها، إذ لم يتسع بعد وعيها لجدل المقارنات واستيعاب معنى جدارة الاستحقاق، فمعنى الحياة لديها قد اختزل فى ذلك النموذج الذى خبرته وارتضته. ولأن إدراكها ذو طابع ثبوتى؛ فإنه لم يستطع أن يغذيها بأحلام وتصورات وتطلعات تتجاوز ما عاشته، إذ يقال إن الإنسان لو لازمه فى حياته -بشكل دائم- الإحساس بالحاجة، فإنه يصاحب ذلك الإحساس فعل تقييم للذات، يرسخ اعتبارها مرصودة للافتقار والحاجة طيلة الحياة، وينفى عنها معنى جدارة الاستحقاق لما هو أفضل، مهما كانت

حدة ما فى وجوده من نقصان، والأخطر أنه لا يسعى إلى تجاوز هذا النقصان، ويعزز لديه الرضا الطوعى لتقبل هذا النقصان، مدى قدرة هذه الحياة المنقوصة على الحفاظ على الحد الأدنى من العيش بلا إضرار أو انكسار أو انهيار لمنظومة القيم التى يعتنقها، وتلك هى حال هذه الزوجة، فحياتها المنقوصة مع ذلك الزوج الخائن الكسول كانت -بالأساس- تحقق لها حماية نفسها وقيمها، بما يوفره لها من الحقوق الدنيا، بل كان وسيلتها الناجعة، وعندما انفلت عنها بغيابه كشف غطاء حمايتها، وتركها فريسة لمن يطلبون اللقاءات العابرة ويدفعون ثمنها، فنراها تصرخ فى وجه الحراس "**سوف أخونه، أنا امرأة تعرف فضائل الأسرة وواجبات الزوجة، ولكن إذا لم يرجع إلىّ فسوف أخونه**". مأزقها -إذن- لن يحله إلا استعادة زوجها، فهى لم تبح للحراس بموته، وعندما حاولوا إنهاء تنازعها معهم بقولهم إنه ربما يكون قد سقط فى المعركة، على الفور صدرت إليهم اليقين بعدم موته استناداً إلى قوته ووفرة صحته، إذ أدركت أنها سوف تخسر قضيتها أمامهم، وتنهزم حال أن تقتنع بموته،

فأنهت معهم بمنطقها كل حسابات الاحتمالات بموته، وعندما حاول الحراس مناداته باسمه الذى أسمته به لهم، أيقنت أن ذلك سينسف رهانها، ويعرى السر المحتجب، فأعلنت -على الفور- عن اقتدارها هى نفسها على التعرف إلى زوجها بدون التباس، أيًا ما كان موقعه، وذلك كان فخها الذى نصبته حتى لا ينغلق طريقها، ولا يحذف من أمامها المستقبل، ولا تتقوض قيمها لتعبر مرحلة المهانة حين تتمكن من أن تستبدل بالأصل آخر، فأبلغها الحراس أن "القيصر" قد مَنَّ عليها بشرط خلاصها؛ إنْ استطاعت، وهى أسفل السور، التعرف إلى زوجها من بين الوجوه المحتجبة بالخوذات للجنود الذين يسيرون أعلى السور الرهيب، فلحظتها سيرجع معها زوجها بلا حظر أو منع. واستهوى الأمر الحراس، فصنعوا من مأساتها فرجة ولعبة تسلية، قاموا بالمشاركة فيها بالمراوغة والتمثيل والسخرية بها كى يستمتع قيصرهم بالمشاهدة، لكن الزوجة عرفت كيف تستدير وترفع النظر، ولم تقصها التحذيرات المتوالية من الحراس عن الإبحار فى موج مغامراتها، ولا جتبى شرط التحدى

الذى أعلنوه، من أن **"القيصر"** يطل عليهم من عليائه، مطالبًا بضرورة أن تتوافر قرائن الإقناع والدلالات على أنها والجندى الذى ستتعرف إليه، هما -على الحقيقة- الزوجان الشرعيان، وإذا ما تبينت لهم شبهة زيف أو خديعة، فعلى الفور سيقتل الجندى، وستطارد هى. لم تأبه الزوجة، وأقحمت نفسها فى المجهول، فالذى يحركها ضميرها يدفعها إلى مغالبة التهديدات كلها لتصون وتحمى نفسها من المهانة المؤكدة. ولأنها ليست الوحيدة فى هذا العالم التى تحاول سد فراغ المعنى لحياتها، تداخلت وانعطفت على مسارها محاولة أخرى مشابهة لها، محاولة لجندى يسعى إلى الخلاص من بشاعة عمله فوق السور الرهيب، فما أن أشارت إليه ودعته بزوجها حتى أعلن لها على الملأ أنه قادم إليها هابطًا من أعلى السور، فالتقت الإرادتان معًا، للخلاص من وطأة القهر بممارسة فعل المغامرة الخطرة عبر منطق تركيب معقد لتجربتين إنسانيتين، يتم تماسهما واحتكاكهما تحت المراقبة المسلحة، ويحكم كلاً منهما وعى فردى، تثقله ممارسات اجتماعية وفردية وسلوكيات وأفكار

وخبرات وانفصالات والتواءات متعددة المصادر والمقاصد، لا يمكن أيًا منهما الإحاطة بها أو استيعابها في لحظات. صحيح أن المطرقة التي انهالت على حياتهما فاعلها واحد؛ هو قهر "**القيصر**"، وصحيح أيضًا أن مقصدهما الخلاص من القهر والمهانة، لكن خطر التبسيط للموقف أمر غير واقعي، فكل منهما سيعاني لحظات التأرجح بين شخصيته ورؤيته للعالم، وبين تلك الوقائع المفاجئة والطارئة. لقد أقدم كل منهما على المغامرة بريبة وشك من التواءات التواصل، وخوف من سلطة المراقبة أن تتبين مساحة وحقيقة المباعدة المزدوجة بينهما، فالزوجة ناجت نفسها "**كم أخاف على نفسي من الرماح ومن القيصر، فأنا لا أعرف هذا الرجل الذي يهبط إليّ من السور ولم أره، لكن ما دام زوجي الشرعي لم يظهر إلى الآن فلن يرجع مطلقًا، ولهذا صممت أن أخذ هذا الرجل، وما دام قد جاء إليّ بإرادته، فعليّ أن أتشجع وأخاطر بأداء هذه اللعبة الخطرة. لقد أخذ القيصر مني رجلاً، ولا بد أن يعيد إليّ رجلاً آخر**". أما الجندي المتمرد الذي انخرط فجأة في دائرة الزوجة، فهو المرشح

للانكماش، أى مرشح للملاءمة لينفى المباعدة، والملاءمة تعنى أن يصير ما كان غريبًا عنه، خاصًا به، فهو المنادى من الزوجة، وهو أيضًا الشخص المزدوج، وعليه أن يستدرج أجوبة لا يتوقعها، لذا فقد ناجى نفسه "**أنا خائف على نفسى، لأنى لا أعرف المرأة التى تقف هناك. سوف يقتلوننى إذا لاحظوا أننى لا أنتمى إليها ولا هى تنتمى إلىّ. إن بشاعة الخدمة فوق السور هى التى تشجعنى على المغامرة باللعبة الخطرة**". كلاهما يدرك -إذن- خطورة المغامرة، وجواب مأزقهما هو الملائمة. وبالفعل بدأت لعبة التمثيل بين الزوجة والجندى، تحت سلطة مراقبة الضابطين المسلحين لهما، كى يستوثقا من أنهما الزوجان الشرعيان. ولأن الزوجة تمتلك تاريخًا مع الزوج جاهزاً، هو حصيلة حياتهما معًا، على الفور أخذت -بحتمية تذكارية- تستعرض وتستعيد وتفكك علاقتهما معًا، عندئذ واجه الجندى صفات وملامح وخصائص تلتصق به تنفى هويته الحقيقية، وترسم له هوية أخرى مخالفة ومغايرة، فهو خائن، وكسول، وخامل، وجملة من الصفات شكلت لذاته تغييراً لحالتها

وتشويهًا لها، واستتبع ذلك مستوى آخر من المباعدة ارتبط بشخصية الزوجة وتكوينها، فحياتها المشحونة بالعزلة في كوخها، وعدم تخالطها وانفتاحها مع البشر، حرمتها فرص الاكتساب والتحصيل والخبرة، واتساع مداركها وخيالها، وإحساسها بنشوة الوجود والمعرفة، فأصبح عالمها أضيق من أن يتسع لطموحات وأحلام، سوى إشباع احتياجات المأكل والملبس والسكن كأسيرة لعالم العزلة والثبات والجمود، ورتيبة المسافة والحد، وهي بذلك لا تنتمي إلى عالم الجندي الذي يخالط البشر من عمال وحرفيين وسماسرة وصرافين وعلماء وفقراء، ويسعى إلى أن يكون ذكيًا حتى لا يتلقى اللطمات على أذنه، ومن هنا كان التناقض الذي يبقى متعذر الحل، لأنه محكوم بالتوتر الذي يحاول أن يستأصل من عالمه معناه، إذ هي تتصوره ينتمي إلى تجربتها، فطول الوقت تمارس غزوه واختراقه وتستأصل وجوده، فدمرت كل إمكانية للملاءمة، فصاح فيها "**أنت لا تحسين بشيء، تعيشين طول اليوم في كوخك ولا تشعرين بما يجري في العالم .. أما أنا .. أما أنا .. ألا تفهمين ما أقول؟ في**

الكوخ! فى الكوخ، ليس لديك إلا فى الكوخ، أربع خطوات للأمام، وأربع خطوات للوراء، والنافذة مغلقة على الدوام، تبًا لك أنت وكوخك". إزاء هذا التناقض المتجذر بين مشروعين للحياة يقصى كل منهما الآخر، أدرك الجندى أن الملاءمة هى الشرط المتعذر عبوره لإتمام مشروع هروبه، إذ تستنزل قطيعة تامة ومطلقة مع صلاحيته الحقيقية فى علاقته بوجوده، وأن الشفيع الأكبر له ليس سوى الكشف عن أنه ليس هو ذلك الزوج الذى ادعته، ومن ثم كان اعترافه أمام الضابطين المسلحين **"لست زوجك..إننى لا أعرفك.. لم أعرفك قط"**. وعلى الفور تمت مواجهته بتهمة الادعاء بأنه الزوج الشرعى للتهرب من الخدمة، غير أن الزوجة ظلت تؤكد على ادعاءها بأنه زوجها، مع أن الضابطين أخبراها أن زوجها الشرعى قد مات، وسلماها دليل موته، تلك التميمة التى أهدتها إليه يوم زفافها وكان يحملها فى رقبته، لكنها أيضًا ما زالت تصر على استعادة الجندى الذى يعد الزوج المزيف، وذلك تحت يقينها أنه زوجها، ولا بد أن تستكمل معه تمثيل حياتهما معًا أمام **"القيصر"**، وبعدها

يذهبان معًا إلى كوخهما. وبالفعل يعاود الضابطان التمثيل معها حتى يختفي الجندي، ويفر منها فجأة من دون أن تدري، وتبقى من بعد وحيدة وحولها الضابطان، ومن فوق السور كل الجنود يضحكون ضحكات عالية، فقد كان الأمر محض فرجة ولعبة تسلية، استمتع بها القيصر وانصرف. ثم ينهي الكاتب المسرحي الألماني المعاصر **"تانكريد دورست"** مسرحيته الرائعة **"خطبة الإدانة الطويلة عند سور المدينة"** بمشهد تلك الزوجة وحيدة بعد أن عرفت أن **"القيصر"** قد انصرف، فتصرخ بخطبتها الطويلة فى مواجهة السور الرهيب، والتى منها: **"إن كنت فشلت فى حياتى، فمن المسئول؟ ماذا فعلت إذن؟ تعبت وشقيت لأكون امرأة صالحة وخيرة، فلم تكن النتيجة إلا الشر والفساد. أردت أن أعيش مع زوجى فى أمان، تعب وشقى بقدر طاقته، أين ذهب الرجل إذن؟ لن يأتى زوجى.. لن يأتى، لقد مات، وأنت أيضًا ذهبت أيها الجبان، اذهب إلى القتلة، فما أنت إلا واحد منهم...لم لا تفسرون لى السبب فى انتشار العفن الفظيع فى العالم كله، وأنت أيها السور السميك العظيم القديم الغبى، سأظل ألطمك برأسى حتى تتهدم...ما الذى**

يمنع أن أعيش مع الرجل أيها السور؟ لماذا أصبح الأمل كله عدمًا، والحنان عدمًا، والذكاء عدمًا، والحب عدمًا..عدمًا.. أجبني عن سؤالي".

ترى هل تجدى خطبة الإدانة الطويلة فى مواجهة سيادة التصرف، وسلطان السطوة، وسلطان البأس، وسلطان البطش، وهل يا ترى سيستجيب **"القيصر"**، أو أن الأمر -كما أكد **"دورست"** في مسرحيته- لا يكفى أن تكون شريفًا؛ بل لا بد أيضًا أن تكون كُفئًا طموحًا يقظًا قويًا ذكيًا مدركًا فاعلاً نداً حتى لا تصبح تسلية وتتلقى اللطمات، ومن دون ذلك يكون الأمر كما قال الجندى للزوجة بعد انتهائها من صراخها بخطبة الإدانة الطويلة، بأنه لن يسمعك أحد. ترى، أليس ذلك هو عرى العالم وعاره؟!

لن تقع الحرب لو..!!

اختطف "**باريس**"، أحد أمراء طروادة، الأميرة الجميلة "**هيلانة**"، زوجة ملك إسبرطة "**مينلاوس**"، واحتفظ بها في طروادة لتعيش معه بعد أن توثقت علاقته بهما حين استقبلاه في إسبرطة ضيفًا عليهما، واحتفيا به، فأصبح فعل الاختطاف هو مؤشر اتجاه مستقبل العلاقة التي أمست محمولة على مسار معالجة "**المأزق**" والإمكانات التوليدية التي تتيحها هذه المعالجة، فمستقبل العلاقة لم يعد بين "**مينلاوس**" و "**باريس**" كموقف بينَ شخصين، ولا بين إسبرطة وطروادة كبلدين فحسب، بل بين كل بلاد اليونان مجتمعة وبين طروادة، إذ التحريض الذي مارسه "**مينلاوس**" للانتقام وفك الاستحواذ عن "**هيلانة**"، أنتج حملة من الآليات تسابقت إلى إنتاج تأثير عام

بضرورة زحف كل بلاد اليونان وأبطالها إلى طروادة، باعتبار أن الحق فى إعلان الحرب أصبح معقوداً لجانب تحالف ممالك اليونان فى ضوء فعل الاختطاف والاستحواذ من جانب طروادة. فلا شك أن المسكوت عنه فى فعل الاختطاف، واستمرار الاستحواذ على **"هيلانة"** وفقًا للقراءة القرائنية قد يعنى إشهار الطعن من جانب طروادة فى قدرة قوة إسبرطة على ممارسة الرد العسكرى على فعل الاختطاف، بل ثقة طروادة فى عدم استطاعة إسبرطة استعادة **"هيلانة"**، وتحديها ودعوتها إلى المواجهة. ولعل ما كان متواريًا وضاغطًا على المشهد السياسى العام، أن فعل الاختطاف والإصرار على الاستحواذ قد أثار بقية ممالك اليونان ضد طروادة، بل حصن حذر بلاد اليونان وشكها فى معقبات هذا الفعل ضد أية تبريرات تنفى عن طروادة الاسترصاد بالآخرين، وأسهم كذلك فى أن يظهر الاختطاف كتحد عار يكشف بداية سجل تاريخ تعدى طروادة واختراقها جيرانها، ويعلن عن بدء ظهور طروادة كمسيطر محتمل على ساحة الممالك المجاورة لها، أو كمسيطر كامن

سوف يخلخل النظام وتوازنه، ولا بد من ردعه أو احتوائه. وفى ضوء ذلك تنتفى إمكانية طرح السؤال: ترى هل شن الحرب يعد ملاذاً أخيراً ؟ وهل ما سينجم عنها أكبر مما ستجلبه من كوارث؟ ألا يمكن أن ينفتح المجال أمام الاجتهاد السياسى للخروج من المأزق؟ ومعيار الخيار بين المسارين يكون فى أيهما سينطوى على الحد الأدنى من المعاناة الإنسانية، أم أن معيار الخيار سيكون لغلبة الاستراتيجية المعتمدة من أصحاب القوة والقرار فى سيادة خيارهم الجاهز لمنظومتهم الفكرية المتعالية التى تحكمها أهدافهم ومصالحهم، حيث لا سلطة إلا لسلطتهم، فى إطار ممارستهم لعلاقات القوة الرأسية التى تتطلب الولاء والقبول بقرار شن الحرب الذى أقره تحالف بلاد اليونان بدلاً من التحاور معه، وكذلك الإذعان والقبول بقفزهم فوق إمكانات ممارسة الجهد السياسى للوصول إلى الصحيح أو النافع، من دون تفكيك لتيارات التواصل، أو تصلب وانهيار مشاركة التفهم، حتى لا يتعرض شرط استمرار الحياة للبشر الأبرياء لأخطار وكوارث؟ لكن ما لبث خيار الحرب لدى تحالف ممالك اليونان أن

ساد في النهاية، واحتشدت قواتهم، وبدأت سفنهم تزحف إلى طروادة، وأقاموا معسكراً وحاصروها. ولا شك أن الحرب المعلنة محكمة المقاصد؛ فمن جهة تعد جولة إسبرطة ضد طروادة رداً على العدوان باختطاف **"هيلانة"**، ومن جهة أخرى فإن جولة تحالف ممالك اليونان في مواجهة طروادة تستهدف ردعها كمسيطر كامن ومحتمل، يخلخل الأوضاع بتهديداته المنظورة وغير المنظورة. وكانت المواجهة العسكرية مشروطة بتحالف لاستعراض القوة يكسر تصورات ومفاهيم السلطة الحاكمة في طروادة وينسف تأثير فعل الاختطاف والاستحواذ على **"هيلانة"**.

وعلى الجبهة المواجهة في طروادة كان لا بد من معاودة طرح السؤال: هل التورط عسكريا أمر حتمي؟ أليس هناك من ضرورة لإعادة تقدير للموقف والدور التحولي الذى انطلقت منه ممالك اليونان في تحالفها مجتمعة بما يشكله هذا التحالف من اعتراض وإدانة أمام العالم لفعل الاختطاف والاستحواذ؟ ألا يتطلب الموقف عملية إنهاض عقلاني بإعمال فهم المقاصد

والمحفزات، كمحاولة لتحريك القدرة على تجنب الحرب والانفلات من الإكراهات عليها باستخدام الدبلوماسية الحاذقة، درءاً لأفجع الكوارث التى ستنزل بأهل طروادة، نتيجة الهوس الدائم بالحرب من دون إدراك للحد والظرف التاريخى، ومن دون إدراك أن القرار السياسى لا يلقى مشروعيته إلا بانفتاحه على الغاية الشاملة، ومسافة المعنى وآفاقه بالنسبة إلى الناس، أى ما يحقق لهم صلتهم بذواتهم وإنسانيتهم، وهو -تحديداً- ما يعنى مفهوم المصلحة العامة للناس، التى فى ظلها تزدهر حياتهم حاضراً ومستقبلاً. لكن يبدو أنه فى طروادة تسرى حفنة من الأفكار تدفع نخبتها إلى ارتكاب أفظع الحماقات فى حق الذات والغير، فإذا كان اختطاف "**باريس**" لزوجة ملك إسبرطة "**هيلانة**" يعد فعلاً طائشاً يجسد الاختراق والغزو والتعدى على حرمات بلد مجاور، فإن اللامبالاة لدى النخبة الحاكمة فى طروادة تجاه تداعيات الموقف كمحرك طاغ لردود أفعال من الاستنهاض والتصدى، بل إغلاقها للموقف من دون حسابات الحذر والارتقاب واتقاء المخاطر، وتخطيها منطق فعل التعدى

من دون الوعى بكامل حقوقه، إنما يدفع إلى مزيد من التورط، ويؤكد أن النخبة الحاكمة، بدءاً من **"بريام"** ملك طروادة، وشيوخ حاشيته، والمثقفين، والشعراء، والعلماء، بلا مبالاتهم واستخفافهم، قد أعفوا أنفسهم -بصورة عامة- من أعباء مسئولية التفكير الجاد فى مصير طروادة، وأن موقفهم إنما يؤسس لسيادة اجتياح الآخر وامتلاكه، ومن ثمة يؤسس لفوضى العالم. والعالم لا يمكن أن يستمر أمنه وسلامه بالتواطؤ مع الجريمة، وإلا أصبحت بلدان عديدة رهينة السبى السياسى.

وقد أكد الدفع نحو مزيد من التورط ممارسة النخبة الحاكمة لتكرار وترويج وإشاعة خطاب الإصرار على عدم إعادة **"هيلانة"**، ونفى أى تأثيم لفعل الاختطاف، والأدهى زهو النخبة الحاكمة بالمأزق الذى يحاصر شأن طروادة السياسى، دون النظر إلى مردود الاستفزاز ونتائجه فى ظل مستجدات ظرفية، وحقل أحداث يؤثر بعضها فى بعضها الآخر، فعلى خلفية تشكيل ممالك اليونان لتحالفها المناهض لطروادة، أعلن **"باريس"** المختطف الطائش: **"أنا لن أنفصل أبداً عن هيلانة لأنى أشعر**

معها بالانفصال عن كل النساء الأخريات، وبامتلاك ألف حرية وألف نبل بدلاً من حرية واحدة ونبل واحد". ولا شك أن انهمام **"باريس"** بذاته، وإصراره على عدم مبارحته لملذاته باستبقاء **"هيلانة"** كاستحقاق يخصه وحده، ويجسد سعادته القصوى، قد عطل ذلك إدراكه بأن ملذاته التي ليست لديها حاجة ما إلا أن تكون نفسها، إنما تنقل مركزية فعله من دائرته كفرد إلى دائرة تاريخ ومستقبل وطنه بأسره، إذ يداهمه -كرد فعل للاختطاف- تحالف ممالك اليونان. لكن تأزيم المأزق تمدد حين تضامن **"بريام"** ملك طروادة الأب مع ابنه **"باريس"** في استبقاء **"هيلانة"**، فشكل بذلك واقعًا يسكنه هوى ذاته، والإنسان المسئول لا شك ملزم بالتعامل مع الأحداث الخارجة عنه، والتي تتقاطع مع ذاته، ورهان مسئوليته في اقتداره على اكتشاف مسافات المعنى لكل أفعاله على خريطة ما يجري من أحداث الراهن. وقد ساير هوى الملك كل شيوخ الحاشية وشعرائها وعلمائها، وراحوا يرتلون كلامًا واحداً، ويضخون تهويمات وشقشقات لفظية تطمس الحقائق، فتلغي تشخيص الراهن،

وتغلق المستقبل، وتدفع إلى المجهول، وتعطل العلاقة المنتجة مع الحاضر وكأن **"هيلانة"** قد خلبت ألبابهم، واستزرعت فيهم هوسًا، إذ تمحورت نقاشاتهم لتبرير استبقاء **"هيلانة"** فى طروادة كنموذج للجمال، فى حين يمثل رحيلها خللاً يهدد هذا الإحساس فى حياتهم، إذ أصبحت **"هيلانة"** من مشمولات وجودهم. غير أن **"هكتور"** الأخ الأكبر لـ **"باريس"** تصدى لهذا اللغو الذى يشترى اللذة بالحرب بخطابه المعاكس لاستبقاء **"هيلانة"** باعتباره رجلاً خبر الحرب، ويدرك أن الحروب تخاض لكسب المعركة لا لخسارتها، فطالب **"هكتور"** الملك الأب **"بريام"** وحاشيته بضرورة الإسراع فى سد أبواب الحرب وإغلاقها، بل إحكام غلقها بإعادة **"هيلانة"** إلى زوجها **"مينلاوس"**، قائلاً للنخبة الحاكمة: **"لقد أعدنا السلام إلى ديارنا ليستقر فيها إلى الأبد"**، ثم طرح **"هكتور"** بداية عتبة الفهم بتحديد سؤاله المركزى: أى شىء جلبته **"هيلانة"** لنا يستحق النزاع والحرب مع ممالك اليونان؟ لكن على ما يبدو فإن النخبة الحاكمة لطروادة قد راقها استسلامها لرغباتها ولهوى اشتهاءاتها، ووقعت فى فخ الأفكار الزائفة عن البطولة والمجد

من دون فـهم يقـاوم العـمـا ء للإجـابة عن السـؤال المركـزي: مـا القيمة التى من أجلها تتحتم الحرب؟ ومات السؤال أمام طغيان الكم الهـائل من الأوهام والتحريض والدفـع إلى الحرب، إذ بدأ الانشغـال بالبـحث عـن نشيـد للحـرب، والأوسـمـة، والإشـاعـات الكاذبة، والنعوت، والشتائم. ومع ذلك لم ينهزم يقين **"هكتور"** بإمكانيـة منع الحرب، فكان التفاوض هو الجسر الذى يمكن أن يؤسس لمنطق جديد للتـفاهم لاجتياز هوة الدمار الطافح المهاجم، واختـراق الحـصـار القـائم، وبالفـعل بدأت جـولة التـفـاوض بين **"هكتور"** و **"أوليس"**:

هكتور: هذا هو الكلام الصريح..إن اليونان قـد اختارت فينا فريستها، فلماذا إعلان الحرب إذن؟

أوليس: ثمـة نوع من الموافقة على الحرب يمنحه الجو السائد وحده، هذا الجو مبعثـه مزاج العالم، وكل مـا يسمع ويذاع، وإنه لمن الجنون أن يخـوض المرء حـربًا دون الحـصـول عـلى هذه الموافـقـة. أمـا نحن فلم تكن نملكها.

هكتور: وتملكونها الآن؟!

أوليس: أظن أننا نملكها.

هكتور: من الذى منحكم إياها ضدنا؟

أوليس: إنكم -لا ريب- قد أسأتم بخطف هيلانة.

هكتور: سنعيد إليكم هيلانة.

أوليس: إن الإهانة لا تتلاءم مع الإعادة.

هكتور: لم الجدل إذن؟! إنى أستشف الحقيقة من ثنايا كلامك. أنتم تطمعون فى ثرواتنا، وعليك أن تعترف بذلك، لقد ساعدتم فى اختطاف **"هيلانة"** ليكون لكم مبرر شريف للحرب.

وبقدر ما تبدو حدة التفاوض، إلا أن الكاتب المسرحى الفرنسى **"جان جيرودو"**، فى مسرحيته **"لن تقع حرب طروادة"**، استطاع أن يغذى مسيرة التفاوض بسيولة عقلانية فتحت أفق التفاوض على مصلحة المجموع الإنسانى، ليتخطى ويتجاوز الصراع الحدى الذى يكلف البشر المسالم أهوال حرب محسومة

الخسائر والكوارث، وهنا تبرز المهمة المستحيلة للتفاوض الذى يعد وسيلة إنقاذ الوعى من حالات الاستعصاء التى تواجه إمكانية التواصل، ففى النهاية تغلبت مصالح الشعوب على الفناء البادئ والنامى، إذ قبل المفاوض "**أوليس**" استعادة "**هيلانة**" ليحبط مسعى الحرب المقدرة، لكن بينما يتجه مسار التفاوض نحو بداية المستقبل الآمن، اقتحم مسار خطة السلام المحتمل، الشاعر الطروادى "**ديموكوس**" بالقصد الواعى، ليضخ شحنًا للمشاعر، تعزيزاً لفخ الحرب، برفضه رحيل "**هيلانة**"، وصاح فى وجه "**هكتور**" : "**ما هذا الجبن؟ أتعيد هيلانة؟ إلى السلاح أيها الطرواديون.. إنهم يخونوننا.. تجمعوا.. ونشيد حربكم جاهز، أصغوا إلى نشيد حربكم**". وكان أمام "**هكتور**" خيار واحد لكى ينقذ السلام القادم من التراجع، فصاح "**لن تقع حرب طروادة**"، لكن فجأة هوى قتيلاً الشاعر الطروادى وهو يردد أن من قتله هو "**أوياكس**" أحد قادة اليونان، وضجت جموع طروادة تنادى وتستنفر كل استجابة بقتل القائد اليونانى، عندئذ صاح "**هكتور**" يكذب ادعاءه، بل يعترف أنه هو الذى طعنه، لكن الشاعر وهو يلفظ أنفاسه راح يؤكد أن قاتله هو "**أوياكس**"، القائد اليونانى، ويستدرج الناس صوب التحدى، ويطالب

بموت **"أوياكس"** القاتل، وبالفعل أمسكوا به وقتلوه، ومن ثم وقعت حرب طروادة التى استمرت لعشر سنوات من الكوارث.

ترى هل تطغى على الجانبين موجة الدفع إلى الحرب فى أزمة العراق والولايات المتحدة، فيصاب السلام بالتلاشي وضمير العالم غافل، تاركًا المستقبل لخديعة المزايدين؟ هل يمكن الإفلات من قبضة صناع الحرب على الجانبين؟ هل يستطيع كل من يعارضون الحرب من أصحاب المكانة الدولية أن يشيدوا مائدة للتفاهم لحل اللغز الذى أشارت إليه مجلة السياسة الدولية الأمريكية فى الدراسة الضافية التى وضعها **"جون جيه ميرشهايمو"**، و**"ستيفان والت"** بعنوان **"حرب غير ضرورية"**، حيث أشارت الدراسة أنه **"لسوء حظ الذين يؤيدون الحرب الآن، فإنه من الصعوبة بمكان التوفيق بين هذه الحجة وتأييد الولايات المتحدة السابق للعراق.. لقد دعمت الولايات المتحدة العراق في الثمانينيات..كما سهلت إدارة ريجان أيضًا جهود العراق لتطوير أسلحة بيولوجية.. ولم يكن الشخص الرئيسى فى جهود التودد للعراق سوى وزير الدفاع الحالى "دونالد رامسفيلد" ، الذى كان حينها مبعوث الرئيس ريجان الخاص إلى الشرق الأوسط. وقد زار "رامسفيلد" بغداد عام ١٩٨٣ بهدف صريح، هو تطوير علاقات أفضل بين الولايات**

المتحدة والعراق. وفى أكتوبر عام ١٩٨٩ وقع الرئيس بوش الأب توجيهًا رسميًا إلى مجلس الأمن القومى يعلن أن "علاقات طبيعية بين الولايات المتحدة والعراق ستخدم مصالحنا بعيدة الأمد، وتعزز الاستقرار فى كل من الخليج والشرق الأوسط". ثم تتساءل الدراسة عن أن اللغز الحقيقى هو: لماذا يعتقدون أنه من المحال ردعه اليوم؟ ولماذا عجزت الولايات المتحدة عن إدراك ذلك فى الثمانينيات؟

لا شك أن **"اللغز"** لن يحله إلا الانطلاق من كسر المحظورات السائدة حاليًا فى سياق الخلاف الأمريكى العراقى، أى كسر القطيعة بينهما، والتى استجدت على طبيعة الروابط الأمريكية العراقية المتضافرة، وذلك بجلوسهما معًا حول مائدة تفاهم حتى يمكنهما فيما بينهما تصفية حساباتهما المعلقة، وتسوية شأنهما الراهن فى ضوء علاقتهما الخاصة المتبادلة وأسرارهما المشتركة، والمسكوت عنها من جانبيهما فى العلن، فيجنبا بذلك شعبيهما مزالق محنة الحرب، بدلاً من أن يتركوا الشعوب العربية -بل العالم كله- يتابع مشدوداً فصول مسرحيتهما التى لا يعرف منها المتوارى والمحتجب، عندئذ لن تقع الحرب، لأنهما -معًا- سيتوليان أمر الشاعر الذى أعد نشيد الحرب!

قوانين مهمة أمام الرئيس!

وقف الضابط الذى هو نفسه القاضى، وأيضًا المنفذ لأحكامه التى يصدرها من دون تحقيق، إذ يكفيه أن تصله الإفادة بالاتهام، ومن فوره يرفق بها حكمه الذى لا يرد ، وأيضًا لا يعلم به المتهم، الذى يحرم من أن يقف أمام قاضيه، ثم يقوم هو أيضًا بنفسه بالتنفيذ. وكان أمامه يتكوم واقفًا السجين المتهم، مقيداً بالأغلال فى كاحليه ورسغيه ورقبته، لا يعرف من أمره شيئًا، ولا يدرى ما ينتظره من مصير. راح الضابط القاضى الجلاد -بإعجاب حميم- يشرح لزائر **"مستوطنة العقاب"** كيفية عمل الآلة التى اخترعها رئيسه السابق لتنفيذ الأحكام، والتى تتكون من ثلاثة أجزاء: الجزء الأسفل، ويسمى **"المرقد"**، وهو مغطى بطبقة من الصوف والقطن، حيث يرقد السجين عليه،

ووجهه إلى أسفل عاريًا تمامًا، فتُقيد منه بإحكام اليدان والقدمان والعنق بالأطواق الحديدية، ثم يُملأ فمه باللباد. أما الجزء العلوى من الآلة فيسمى **"المصمم"**، وهو الذى يتحكم فى حركة الجزء الأوسط، باعتباره المنفذ الفعلى لعملية التعذيب، ويسمى **"المشط"**، وهو مصنوع من الزجاج، ومثبت به مجموعة من الإبر الطويلة والقصيرة، ويتطابق فى هيئته مع شكل الجسد البشرى كله ويغطيه. ويبدأ **"مشط الأبر"** عمله بأن يتدلى فوق السجين حتى يمسك جلده بالكاد، وبفعل الذبذبة التى تصدر عن **"المصمم"** يتحرك **"المرقد"** و**"المشط"**، فتنقش الإبر أولاً جريمة السجين على ظهره، ثم تخترق الإبر الجسد كله وتمشطه، حيث تستغرق هذه العملية اثنتى عشرة ساعة متواصلة، يظل السجين طوال الساعات الست الأولى منها نابضًا بالحياة، وإن كان يعانى الألم. وبعد ساعتين يُنزع اللباد من فمه، حيث يكون قد فقد القدرة على الصراخ، لحظتها يمكنه -ويسمح له- أن يلعق -بقدر ما يستطيع لسانه- قدراً من الأرز المطهو اللين، الذى يُصب من حوض يقع عند رأس **"المرقد"**. وفى

الساعة السادسة يفقد السجين كل رغبة فى الطعام، وفى ذلك الحين يكون **"مشط الإبر"** قد اخترقه تمامًا، فتلقيه الآلة فى الحفرة ليسقط وسط الدماء والماء. عندئذ أدرك الزائر أن فعل الآلة تعذيبًا يؤدى إلى القتل الصريح، المتوارى والمحتجب عن العيون.

ومع أن قصة **"مستوطنة العقاب"** للكاتب التشيكى **"فرانز كافكا"** تحفل بتفاصيل مأساوية عن محاولات عقلنة التعذيب وتقنياته، لتدين المنطق الاجتماعى والمنطق الثقافى اللذين سمحا بانحطاط وتصدع قيمة الإنسان، وتهاوى حقوقه، بإقرارهما مشقة ممارسات التعذيب على الجسد الإنسانى الذى أصبح يتلقى كل عبء خيبة أمل غياب قيمة حقوقه، إلا أن القصة، بكل ما ترصده وتكشفه من اختلال فى منظومة قيم حقوق الإنسان، لن تطول أو تماثل تأثير كثافة وحشية التعذيب الذى يغتال الضمير الإنسانى، ويفضح المخيلة المفخخة والمنتجة لتقنيات التعذيب المتحدى لكل معتقداتنا، والمتبدى فى المشهد الحقيقى والواقعى -والذى فى تصورى أن **"فرانز كافكا"** قد

استوحاه في قصته- ذلك المشهد الذي جرى في ميدان **"جريف"** أمام الجماهير بباريس عام ١٧٥٧ للسجين الفرنسي **"روبرت فرانسوا داميان"**، فقد أحرقت يداه بنار الكبريت، وانتزع لحم صدره وذراعيه وساقيه وكاحليه بكماشة فولاذية محماة على النار، طولها يقارب قدمًا ونصفًا، صنعت خصيصًا لهذا الغرض. وقد واجه منفذ التعذيب كثيراً من العناء في اقتلاع قطع اللحم التي كان يأخذها بالكماشة مرتين أو ثلاث مرات من الجانب ذاته وهو يفتل، ثم بعد ذلك يسكب مكانها الزيت المغلي، والرصاص المذاب، ومزيجًا حارقًا من القار الصمغي المغلي والشمع والكبريت. ومثلما كان يسمح للسجين في قصة **"مستوطنة العقاب"** بأن يلعق بلسانه الأرز المطهو اللين، وهو في حصار التمشيط بالإبر الغائرة في لحم جسده تتذبذب ذهابًا وإيابًا، كانت الصيغة البديلة في واقعة تعذيب **"داميان"** هي أنهم سمحوا لرجال الدين أن يقتربوا منه عدة مرات خلال فترات التعذيب ليكلموه طويلاً مواساة وترحمًا، حتى في أثناء الفصل الأخير من مرحلة التعذيب، حين ربطت أربعة خيول بكل طرف

إلى يديه وساقيه على طول الركب والأفخاذ والأذرع، ثم أطلقت الخيول فى أربعة اتجاهات مختلفة. وبعد عدة معاودات تغير اتجاه الخيول عند الشد، مما أدى إلى كسر الذراعين عند المفاصل، واستلزم الأمر الاستعانة بحصانين جديدين إضافيين، وتم التمكن من خلع الساق اليسرى بعد ساعة ونصف الساعة، وتكررت هذه المحاولة عدة مرات بلا جدوى، لذا قام منفذو التعذيب -تلاشيًا للإخفاق فى المهمة- باستخدام السكين، فقطعوا الفخدين من دون جذع الجسم، وأيضًا الذراعين، وفى موضع الكتفين والإبطين، إذ قطع اللحم حتى العظم. لذا، فعندما انطلقت الخيول تشد بقوتها القصوى، على الفور سحبت وراءها الذراع اليسرى، ثم اليمنى والفخذين. وعقب اجتزاء الجسد إلى أقسام، عاد رجال الدين فى محاولة للحديث مع **"داميان"**، فأخبرهم الجلاد أنه مات، وعلى الفور رفع المنفذون للتعذيب جذع الجسم، ورموه فوق النار المتأججة، وغطوه بالحطب فاشتعلت فيه النار، وظلت قطع اللحم والجذع ما يقرب من أربع ساعات تحترق أمام الجماهير.

وإذا كـانت هناك ثمـة عـلاقـة بين هذا المشـهـد العلنى الفضيحة، وبين قـصة "**مستوطنة العقاب**"، فهى أن الكاتب "**فرانز كافكا**" لا ينفك يعارض كل أنواع الحرمان من الحقوق للسجين، الذى حُرِمَ حقه فى الاستجواب وإجراء التحقيق، حيث من خلاله، وبالمعاينة والفحص والاستيثاق، تتحدد وتتعين متغيرات الظرف، ومتغيرات القصد. وحُرِمَ المثول بين يدى قاضيه الذى يزن ويميز خصوصية السجين كفرد ويوصفه، ويشخص ويقيس ويقوّم جريمته، ويؤمن ضمان الوصول النوعى والكمى إلى العقوبة التى تستوجبها حالته. وحُرِمَ كذلك حقه فى الدفاع عن نفسه ومواجهة الاتهام، وهو تخطٍ جائر لحق السجين فى طرح الاستيضاحات وكشف الالتباسات، وكذلك حرم أن يبلغ بالحكم الصادر ضده، ثم كادت أن تكتمل دائرة التردى فى سلب الحقوق، بانتهاك سلامة الجسد، بتلقى السجين للتعذيب المتواصل حتى وإن أدى إلى الموت الصريح، وهو ذات ما حدث للسجين "**داميان**" على الحقيقة. إن المعارضة الساخرة "**لكافكا**" لكل هذه الممارسات، ولسياسة العقاب بالتعذيب

الشاق والوحشي لجسد الإنسان، والتحريض ضد عدم اتزان العدالة، وتلطخها بجريمة تتجاوز الحدود، تتبدى فى استخدامه أسلوبًا انتهاكيًا تجسد فى صياغة الموقف المقلوب رأسًا على عقب، والمضاد للتراتبية، وأيضًا لمنطق العلاقة الظرفية التى يخضع لها السجين بالضابط الذى ينفذ التعذيب، وذلك عبر المشهد الأخير من قصته؛ فبدلاً من أن يتم فعل التعذيب بالسجين، إذ بالضابط يشرع فى فك أزرار ردائه الرسمى، ويقف عاريًا -بدلاً من السجين- أمام الزائر والسجين والجندى، ثم يلتفت إلى آلة التعذيب ويديرها، ويتمدد على **"المرقد"**، ويلتقم اللباد المندفع إلى فمه، لكن فجأة يرتفع غطاء **"المصمم"**، ويسقط أحد أجزائه، ويتبعه آخر، ويتكرر سقوط الأجزاء. وبينما الزائر والسجين والجندى يتابعون التساقطات التى تتوالى، كان **"مشط الإبر"** يواصل طعن جسد الضابط، فى حين أن **"المرقد"** يحمله فى مواجهة **"الإبر"**، فإذ **"بمشط الإبر"** يرتفع وقد التصق به جثمان الضابط والدماء تتدفق منه وقد فارق الحياة، من دون أن يستغرق ذلك التوقيت المحدد فى

توصيف عمل الآلة، أي الاثنتي عشرة بساعة. فقد تزحزح الزمن، وخالف المحتوم. ولا شك أن **"كافكا"** في تركيب موقفه المقلوب قد ارتكز على أن العالم دومًا مفتوح على الاحتمالات والمفاجآت، وكثيراً ما تنقلب فيه الأدوار، حيث لا حتميات مقفلة، وهو بذلك يهزأ من اقتناع الضابط الذى ترسخ طوال القصة، بأنه سيعرض على **"الزائر"** عمليًا مشهد تعذيب السجين، بل اكتمال الموقف بخلع السجين لملابسه استعداداً للمشهد المنشود، فإذ بالمشهد ينفتح على الوضع المعكوس.

إن مشهد **"داميان"** الفضيحة -مع ما يشاكله وما يسبقه وما يتبعه من مشاهد التعذيب التى تتسم بالقسوة المفرطة- ظل مؤشراً ضاغطًا مزحزحًا المنطق الاجتماعى، والمنطق الثقافى، والمنطق الأخلاقى للوصول إلى الإنصاف على مدى قرن من الزمان أو ما يزيد، فولد مناقشات لحيثيات ومعايير أخلاقية وسياسية لحدود حق العقاب من دون تعذيب، بمعنى احتجاز الجسد لا معاقبته بالتعذيب، ومنع المساس به بصورة مباشرة. ونتيجة لانتشار خطاب الاحتجاج، وممارسته لفعاليته المجتمعية ضد التعذيب بأشكاله المتعددة، بدعم فقهاء

القانون ورجاله والفلاسفة والمفكرين وأعضاء البرلمانات، تحقق الانتصار له، بدءاً من أواخر القرن الثامن عشر حتى أوائل النصف الأول من القرن التاسع عشر، بإلغاء عقوبة الأشغال الشاقة، التى كانت تطبقها النمسا، وسويسرا، وفرنسا، وبعض الولايات الأمريكية، انطلاقًا من ضرورة أن العقوبة يجب أن تتسم بالإنسانية كمقياس، وزال بالفعل التعذيب الجسدى بأنواعه ومشاقاته عن السجناء، وانتقلت العقوبة من نظام ممارسة الإيذاء الجسدى فى سياق العنف الدموى، إلى نظام اقتصاد للحقوق المعلقة للسجناء فى سياق تغييرهم وتحويلهم وإصلاحهم، وترسخت علانية المحاكمات والمداولات، وعلانية الأحكام. واستمرت مسيرة إعادة النظر فى نظام المعاقبة حتى صدر الإعلان العالمى لحقوق الإنسان عام ١٩٤٨، وفى مادته الخامسة حظر التعذيب والمعاملة أو العقوبات الوحشية اللا إنسانية أو المهينة كحد حقوقى للسجين فى مواجهة سلطة العقاب.

وتحت وقع الأخذ بأسباب التحديث الإنسانى والأخلاقى والدستورى، جاءت منظومة مشروعات القرارات الثلاثة للجنة السياسات، التى أقرتها تنظيمات الحزب الوطنى، ورفعتها إلى

الرئيس مبارك، حيث يقضى مشروع القرار الأول بإلغاء عقوبة الأشغال الشاقة، أى إلغاء اعتبار الجسد الإنسانى موضوعًا للعقاب، وإسقاط اعتباره نقطة ارتكاز العقوبة، ورفض التعذيب، والتنكيل، والجور، والمشاقات التى تمارس عليه. وبهذا المعنى فإن مشروع القرار يصدر عن رؤية لنوع من الإصلاح الجزائى، والتصحيح الجديد المنتج لتحولات السجناء وتغييرهم، وتأهيلهم نفسيًا واجتماعيًا ومهنيًا، فى إطار أشكال من إكراهات سلطة المؤسسة العقابية -من دون التعذيب الجسدى- والتى تعتبر العزل والحرمان من الحرية فى علاقة السجين بالعالم تجليًا حقيقيًا للعقاب، فتفرض الالتزام بنشاطات إيجابية منتظمة وفق نظمها الانضباطية، تديرها، وتراقبها، وتمارس فعاليتها، مستهدفة القيمة الإصلاحية، أى تغيير السجناء كى يسترد المجتمع ما خسره من أفراد بالإصلاح وليس بالانتقام. كما يقضى مشروع القرار الثانى بإلغاء محاكم أمن الدولة، وهو ما يعنى فتح القصد على الإنصاف والحماية للمتهم، بمساندته فى أن يقف أمام قاضيه الطبيعى والأصيل، وتمكينه من حق الدفاع بحفظ حقه بالادعاء المدنى، حتى لا يكون عاجزاً أعزل يحد من قدرته على دفع الأضرار، التقييد

والتضييق عليه، بمنعه من ممارسة حقه فى دفع ما تعرض له من ضروب الأذى الشخصى. ولا شك أن مشروع القرار الجديد يصدر عن منظور يوسع مجالات ممارسة الحقوق، وينفى التقييد، ويقر بالمرجعيات المدنية الحديثة، ويؤكد أن حق الاحتكام إلى القانون حق للجميع يجب أن يحترمه الجميع، إذ لا تتحقق سيادة القانون إلا عندما يحدد القانون سلطات الحكومة، وعندما تلتزم الحكومة بمساندة حقوق المواطنين، وتكفل لها الضمانات ضد أية انتهاكات لهذه الحقوق. وتكتمل مشروعات القوانين الثلاثة بوصفها مكونات نظام متكامل لمنظومة حقوقية، بالمشروع الثالث الذى يقضى بإنشاء المجلس القومى لحقوق الإنسان، كمظلة تعزز خلق الشروط الجديدة لمتابعة ورقابة وحماية القيمة الجوهرية لجدارة كل كائن بشرى، وهو ما ترتكز عليه الرؤية الدولية لحقوق الإنسان، باعتبارها اللغة المشتركة للإنسانية، التى تدعونا إلى إعادة فحص افتراضاتنا فى ضوء الحقوق والمسئوليات، وتغيير أنماط التفكير، وتجاوز خبرات الماضى. ولا شك أن المجلس القومى لحقوق الإنسان يعد انطلاقة قوية تجمع الناشطين الراغبين فى التغيير، وهو ما لا يمكن أن يتم من دون القوى والإرادة السياسية

اللازمة لإتمام هذا الإنجاز، فحقوق الإنسان بطبيعتها لا يمكن فصلها عن السياسة، إذ إن العوامل السياسية هى التى تشكل أية صياغة للحقوق والالتزامات المفروضة، وأيضًا إجراءات التنفيذ، وكذلك الوسائل العملية للتطبيق. ووجود المجلس القومى لحقوق الإنسان سوف يوسع أنشطة تعزيز هذه الحقوق ويتابعها، ويمارس الإجراءات والآليات التى تكفل حمايتها فى إطار إمكانية مفتوحة على مساحة التداول والتواصل التى تساند وتسهم في تطور هذه الحقوق.

قتلى الحرب يرفضون الدفن!!

صاح الفتى:

<< قل له يا أيها السلطان لا ترسل الجيش لكى يفتح سوق السند للتجار/ قل له يا أيها السلطان ما الحرب سوى ساحات دم/ ليس فيها منتصر أو منهزم/ كل شىء يتساوى بعدما تنتهى الحرب بخير أم بشر/ الضحايا والخرائب والندم/ قل له لا تضع السكين فى أيد أعدت للفئوس/ إن سيفًا واحداً يشحذ للحرب الضروس/ ربما خلف آلاف المحاريث بحد منثلم>>.

كانت تلك صرخة ضد الحرب أطلقها كاتبنا الراحل عبد الرحمن الشرقاوى، فى مسرحيته **"الفتى مهران"**، والتى كتبها عام ١٩٦٦، منطلقًا من رفض للتبذير بأرواح البشر، والدمار

المتبادل، والنزف المزدوج، والعدوانية الجماعية. فتراكمات الصور المختزنة للحرب لا تحتمل اللبس، وإيضاحات الخسارات جلية تشهد بظلمات الروح، وانهيار الضمير الإنسانى. فعندما استولى الجيش اليابانى عام ١٩٣٧ على مدينة **"نانكنج"** فى وسط الصين، إذ بالقوة الغاشمة للجنود اليابانيين تبيد الصينيين فى جماعات، ثم كوموا ما يربو على عشرين ألف جثة، وسكبوا عليها النفط، وأضرموا فيها النيران. بعد ذلك اغتصبوا ما يزيد على عشرين ألف أنثى تراوحت أعمارهن بين الحادية عشرة والثمانين، ثم انتزعوا أحشاء كثيرات منهن. وتواصلاً لتسلسل وقائع شراسة العنف، أمسك الجنود اليابانيون بالصبية والصبايا من هم فى سن الدراسة، وعلقوهم من أيديهم لأيام، واتخذوهم أهدافًا حية فى التدريب على القتل بسناكى البنادق. وقد أفرزت وحشية العنف والمواجهة العارية من أية قيمة إنسانية على مدى شهرين خمسين ألف قتيل صينى فى **"نانكنج"** وحدها، ونحو مائتى ألف قتيل فى المقاطعات المحيطة بها، وإن كان الجانب الصينى قد قدر قتلاه بثلاثمائة وأربعين ألف مواطن.

لا شك أن خياراً خاطئًا سبق اتخاذه أدى إلى التحارب والتقاتل، فكشفت الحرب عن هذا الصدع الإنسانى، وفضحت مدى شر الشر، لكن التجربة تظل غامضة وخرساء، فنحن لم نعرف هل توقع البشر الفاعلون والمتألمون، القتلة والضحايا، إمكانية الوصول إلى هذا المدى من الشر؟ لقد أقصى الموت عنهم كل اتصال بالعالم، وأقام بينهم وبين البشر الأحياء حد المباعدة، لكن ترى لو قدر للقتلى من الجنود أن يعودوا إلى الحياة، وإلى العالم الذى فقدوه، ماذا سيقولون لنا؟ لقد اخترق حد المباعدة ستة من الجنود الموتى الأمريكيين فى إحدى الحروب الأمريكية، ورفضوا أن يدفنوا، بعد أن قتلوا وتركوا فى العراء ليومين كاملين. وفى أثناء ممارسة رجال الدين لشعائر الدفن، إذ بالموتى الستة يخرجون من قبورهم ليعلنوا رفضهم أن يدفنوا، فاختل عندئذ الراهن المرئى والفعلى للجنود الستة الموتى الذين يرفضون موتهم ودفنهم، وتناقض مع خصائص مفهوم الجنود المكلفين بالدفن، وأيضًا قوادهم، هذا المفهوم الذى تشكلت صيغته الكاملة وتماسكت على مدى تاريخ البشر، بأن من يموت لا يعود ثانية، وبقطيعة مع العالم تامة ومطلقة.

ولأن ذلك المفهوم غير قابل للجدل، فإن الجنود المكلفين بالدفن وقوادهم لم يستوعبوا الحدث الاستثنائى الذى يجرى أمامهم، وأصبح الحسم فى الموقف مؤجلاً ومرتهنًا برأى أهل الاختصاص؛ لذا أحضروا الطبيب ليمارس الفحص التجريبى للجنود الستة، لإصدار تقريره عما إذا كانوا أحياء أم أمواتًا. وفى نهاية فحص الطبيب لإصابات الجنود الست الواقفين فى قبورهم، أوضح ما ينسف واقعهم؛ ذلك أنهم جميعًا ماتوا بإصابات قاتلة متنوعة أودت بحياتهم، وقد مر على موتهم يومان كاملان. لقد انشغل الطبيب فى تشخيصه بمسببات الموت كأحكام معرفية قاطعة، فأصبح أسير أحكامه المعرفية المسبقة، وهو ما يهدد العلاقة بين الراهن والمعارف المسبقة. لقد أغلق الطبيب الراهن الواقع أمامه بما يحمله هذا الراهن من إقناع مخالف لأحكامه المعرفية المسبقة، ورفض الاعتراف بأن الجنود أحياء؛ رغم الإثبات البادى بدلالة أفعالهم الحاملة لمعنى أنهم أحياء. صحيح أن الإصابات حقيقية، لكنها فى حالة هؤلاء الجنود لم تصبح عائقًا فى وضعهم الإنسانى المبهم والاستثنائى، والذى يستوجب إدراكًا ذاتيًا بمباشرة الجنود أنفسهم، وتجلياتهم

الراهنة، وإجراء المقاربة على الوضع الاستثنائى المغاير لمعارف الطبيب. وعندما وقع الطبيب تقريره بإغلاق الحدث الراهن، أصبح لدى قواد المنطقة شهادات معتمدة بأن هؤلاء الجنود أموات، وأمسى الأمر واقعًا، وإن كان ذلك يناقض الراهن الماثل أمامهم، إلا أن هذه المعلومات الموثقة تعنى ضرورة دفن الموتى، لكن المأزق هو رفض الموتى أن يدفنوا. ولأن إغـــلاق الواقع مطلب الجنرالات لاستمرار خوض حربهم مهما كان الثمن، فقد توصلوا إلى فكرة دعوة أعلى القواد إلى الحضور لإقناعهم. وبالفعل تتابعت لقاءات القواد بالجنود، والتى اتسمت جميعها بممارسة الإكراه بالتهديدات، وكأنهم يواجهون جنوداً عاديين يحكمهم نظام مواضعات مقررة يلزمهم بالطاعة إكراهًا بأن يدفنوا. لقد أغلق القواد إحساسهم بالمسئولية الإنسانية تجاه جنودهم، بإغلاقهم الوضع الراهن لهم، ودفنهم أحياءً، وبأى ثمن، إذ لم ينفتح خطاب القواد على محاولة فهم الوضع انطلاقًا من الرغبة فى العثور على المعنى، أو القيم، أو الأسباب التى أدت إلى رفضهم الموت والدفن، لذلك استجلبوا لهم نساءهم لإقناعهم، وحملوهن -ابتزازاً وتسخيراً- عبء

النصر، وحاصروهن بآليات الحقن بجموح بلاغة الإنشاء، ومصفوفات الشعارات التى تتحكم في عواطفهن، ومع ذلك كله فشلن فى إقناع الجنود الست مَنْ خبروا الحرب والموت، ويطالبون بالحق الإنسانى فى العيش، ويرفضون استثمارهم كالسلع، وبيعهم تحت غطاءات الكذب. فالجنود الست على استعداد للموت وهم سعداء، ويدفنون وهم راضون حينما يموتون فى سبيل أنفسهم، أو فى سبيل وطنهم حقًا، أو لسبب يهمهم ولا يهم فرعون أو قيصر أو روما. وعلى الجانب الآخر استمرت محاولات إسكات هذا الصوت، بدفع من أصحاب المصالح في استمرار الحرب، من رجال المال، والتجار، وأصحاب البنوك، فبعثوا إليهم من يسوغون لهم قبول الدفن، لكن كل المحاولات باءت بالفشل؛ لأن كل من يأتى إليهم يحاول إغلاق راهنهم، واختزال قضيتهم فى قبول الدفن، لا أحد يحاول أن يدرك مغزى ذلك الفعل الإنسانى الاستثنائي، الذى يواجه أكوام الكذب والاتجار فى البشر بتلك الحرب المضرمة عن قصد. وفى النهاية نفذ الجنرالات أمر إطلاق النار عليهم كى تستمر الحرب،

وعندئذ خرج الجنود الستة بحالتهم الاستثنائية تلك، يرافقهم زملاؤهم الذين لم يموتوا بعد. لقد خرجوا لوقف الحرب، خرجوا إلى الشوارع ليبلغوا الناس رسالتهم **"لأولئك الذين يديرون الآلات الضخمة، ويفلحون الأرض، أولئك الذين يموت أطفالهم من نقص الغذاء وتورم الأطراف، الذين يتركون حياتهم خلفهم ليحملوا البنادق ويقاتلون أناسًا آخرين"** فى حرب مدبرة -عن قصد- من حفنة أصحاب المصالح والمهرة في الكذب، الذين يحولون البشر إلى دمى يفكرون وفقًا لما أعد لهم، ويدفعونهم خارج إطار الوعى ليقتلوا، ثم يكسبوا هم تجارة، أو دعمًا سياسيًا، أو تألقًا ذاتيًا لهاماتهم. هذه الصرخة أطلقها الكاتب الأمريكى **"أورين شو"** فى مسرحيته **"ادفنوا الموتى"** التي كتبها عام ١٩٣٦ فى محاولة لإعلان الحرب ضد الحرب التى يشعلها دعاتها، فيخربون مجتمعاتهم بالسياسات الفاشلة، وإغلاق الوعى دون الإحساس بالمسئولية تجاه البشر. ترى، هل يئس **"أروين شو"** من الأحياء فى قدرتهم على إيقاف الحرب؟!!

مـن المسـئول إذن ؟!

أصدر القائد -بلا أى اعتبار لوزن الوقائع وموازين القوى- أمراً إلى الضابط وفصيلته، كانت نتيجته أن قتل الضابط وأبيدت فصيلته كلها، بعد أن حاولوا الاحتفاظ بمراكزهم ستة أيام. ولأن القائد كان من صناع الكوارث والخسارات، لم يقبل أن يستمع إلى تقرير الضابط فى تقديره للموقف قبل التنفيذ عن الاقتران الوثيق بين تنفيذ الأمر والخسارة الكاملة. لم يسع القائد إلى معرفة أكثر عمقًا، وأكثر دقة، وأصر على تنفيذ أمره تحت وقع سيطرة الأوهام والتصلب والعناد والصلف، وتسيد أحكام الانغلاق عن الواقع، فعطلت كل تلك الأسباب لديه قدرة تلقى الإدراكات، وراح يتهم الضابط بالجبن، فأقصاه بذلك الاتهام عن الاعتراض، بل عن الحفاظ على حياة أفراد

الفصيلة من الهلاك. ولأن الضابط والقائد وجهان لعملة واحدة من حيث بنية تفكيرهما، لذا فإن الضابط بدلاً من أن يواصل الحفاظ على فصيلته من الهلاك، تلقى الاتهام بالجبن خارج إطار مسئوليته عن أرواح الجنود، فأراد أن يثبت للقائد أن استراتيجية الأمر الذى أصدره مغلوطة وفق المعطيات المعارضة، فاستسلم للهلاك مع فصيلته، ولعله نسى أن فعله محسوب عليه، ليس بمسئوليته عن نفسه؛ بل عن أرواح جنوده، وأيضًا عن صون وطنه وحمايته. إن موت الضابط لم يكن من أجل وطنه، وإنما كان أشبه برهان فى جولة شطرنج -وهى اللعبة المسيطرة على الضابط، ويمارسها مع نفسه- استبدل فيها الضابط قائده بنفسه، واعتبر أنه على المجاز قد لعب **"النقلة"** الخطأ، والتى هى على الحقيقة أمر القائد، وذلك ليدفع عن نفسه الاتهام بالجبن بقبوله الموت، وليثبت للقائد خطأ تقديره، فأصبح فى غمرة انهمامه بذاته مسئولاً عن الموت المجانى لفصيلته، إذ لا شك أن يقينه بخطأ أمر القائد ثم تنفيذه له، يعد تفعيلاً للهزيمة؛ ذلك أن معيار الحكم على معارك الحروب

يكمن فى مدى تفعيل المأمول، وهو النصر، وليس تفعيل المرفوض، أى الهزيمة. وتفعيل المأمول هو الذى يحقق التوافق والرضا الطوعى بين المقاتل ولحظة الفناء والموت، إذ يحمل هذا التوافق قيمة التضحية بالحياة من أجل الوطن كقيمة. وفى رأينا أن الفارق الفاصل حاسم بين الموت فى سبيل الانتصار للوطن والموت فى سبيل إثبات خطأ أمر القائد، والذى راح من جرائه فصيلة بأسرها، وهو ما يؤكد خسارة الوطن لأبنائه من حراسه نتيجة عدم إدراك الضابط للتناقض الفادح بين انتصاره الخاص فى إثبات جدارة آرائه، وبين خسارة الوطن لحراسه، ثم إخفاقه كذلك فى ضبط العلاقة بين مسئوليته عن الوطن وجنوده، ومسئوليته عن الدفاع عن جدارته، واستخدامه مستقبل الوطن آلية لإثبات ذاته. لكن وقائع هذه الحقيقة انتقلت عبر مؤسسات الترويج التى تتبع القيادة، فتحولت إلى صيغة جديدة موهومة، لتؤكد مضمونًا إخباريًا لا يعبر عن الحقيقة، وإنما يوظف ليتوافق مع مصلحة استمرار القيادة. وتعد هذه "**الحقيقة المتحولة**" إحدى الأدوات الهدامة للمجتمعات،

بوصفها تجميلاً للأخطاء يغلق ويلغي ويكتم أنفاس الحقيقة، ويعفى من المساءلة، وينفى الإنصاف، ويفرض على الناس قبول الحقيقة المكذوبة والمصنوعة زيفًا، بأن الضابط كان بطلاً. وبالطبع تم صك **"الحقيقة المتحولة"** وتوزيعها على عائلات قائمة أفراد الفصيلة كافة، الذين قتلوا وراحوا ضحايا جولة الرهان الخاسر من قبل الضابط، والذى ترك بعد رحيله زوجته أمًا لأربعة أولاد وابن خامس على وشك الولادة. وعاشت الأم مهمومة بأمومتها فى رعايتها لأبنائها الخمسة، حيث عاشوا تحت سحر **"الحقيقة المتحولة"** التى روجتها مؤسسات القيادة، وظلت الأسرة تتغذى عليها سبعة عشر عامًا، إذ أسهمت الأم فى تسويق صورة الأب البطل لدى أولادها، فغطت تلك الصورة أوسع مساحة من حياتهم، وتنامت معهم، وتماهوا فيها، كما احتكرت غرفة الأب بالبيت بجميع أشيائه عالمهم كله، بما فيها رقعة الشطرنج الخاصة به، باعتبارها لاعبًا رئيسيًا فى تفعيل معنى إحراز البطولة والسبق. لكن بعد أن كبر الأولاد تعمق لدى الأم خوف بالسلب من تأثير سحر صورة الأب، أن تستدرجهم كى يبحث كل منهم

لنفسه عن امتداد يحقق فيه بطولته، فتخسرهم كما خسرت الزوج فى الحرب. واعتصمت الأم بخوفها فى مواجهة الإبحار فى المجهول، حيث الدنيا فى رأيها قد تغيرت، والحرب لم تعد وحدها مجال البطولة والموت؛ إذ اكتشفت الأم أن هناك مبادئ وقيمًا أخرى موازية يموت الناس من أجلها كأبطال، تمامًا كما مات ابنها الطبيب "**أندرو**" الذى غادرها إلى المناطق الحارة بحثًا عن علاج ومكافحة الحمى الصفراء للسكان هناك فأصيب بها، ثم جاءتها برقية تخبرها أن ابنها مات بطلاً فى سبيل قضية العلم. وأيضًا لأن التغيير لحق بالمناخ السياسى، وأصبح التصادم بين الأفكار يمثل عنصراً مهمًا، وبوابة للبطولة والموت. تملك الأم الخوف على ولديها "**بيتر**" و"**كرستوفر**" اللذين انتميا إلى تيارين سياسيين متناقضين متضادين متصارعين، ونفى خلافهما الفكرى أخوتهما، واستحال التجسير بينهما؛ فكل منهما نذر نفسه فى سبيل ما يعتقده من مبادئ وأفكار، فقسموا الوطن، ومزقوا أوصاله تحاربًا دمويًا بين أهله.

أصبح عنف الوجود بالنسبة إلى الأم طافحًا ومهاجمًا، يحاصرها ويبدد جدوى حياتها، فلم تجد أمامها سوى أن تزحزح

عالمها الراهن بالعودة إلى سبعة عشر عامًا مضت من حياتها، فوقفت فى غرفة الأب الراحل تحدث صورته، وتلقى عليه باللوم لاستدراجه للأولاد إلى عالم البطولة، وكأنه يأخذهم منها إليه، فتشكل على الفور عالم صوفى موازٍ لعالمها يسعى أن يصير العالم الحقيقى، إذ انسل فى ظلام الغرفة الأب، والتقاها بعد غياب سبعة عشر عامًا، وراح يحادثها ويناقشها ويعايش مشكلاتها. واشتبكت لحظة وجودهما معًا بتوالى تغير مصائر الأبناء، إذ حدث ما كانت تخشاه؛ فقد مات منهم أربعة، كل منهم ضحى بحياته فى سبيل قضيته، سواء كان فى سبيل العلم، أو الحرية والمساواة، أو من أجل تحقيق رقم قياسى فى الطيران، أو من أجل حفظ النظام، وانسلوا واحداً تلو الآخر إلى الغرفة وقد انزلق عنهم الزمن، وانزلقوا هم عن الأمكنة، واجتمعوا جميعهم لينسجوا حضوراً يتسم بالوصل والفصل بين الأمكنة والأزمنة. صحيح أنهم يختفون ويظهرون فى الغرفة، وتعيش الأم معهم، لكن الإنسان ملزم بالتعامل مع واقعه، أى مع مسافة الحياة التى تهدد الإنسان دائمًا بالانفتاح عليه.

وكان الابن الأصغر هو الوحيد من أبنائها الخمسة الذى تبقى لها حيًا، والذى تمتلك معه الصلة المباشرة ككائن حى فى حياتها، ويشكل بالنسبة إليها احتياجًا قاهراً إلى الانطواء عليه، لكن أيضًا انفتحت عليها الحياة والعالم الأبعد عنها كعوز وجودى لا تملك الفرار منه. فعندما أدارت جهاز الراديو، سمعت خبراً عن غزو الوطن، ثم دوى صوت المذيع يعلن: **"لقد اجتاز حدود بلادنا جيش أجنبى، وأخذت المدافع والطائرات تضرب عاصمتنا ومدننا. إنها جريمة لا تقرها العدالة. لقد داسوا جميع الاتفاقات بأقدامهم. لقد اغتنم العدو فرصة الظرف الدقيق الخطير الذى تمر به الأمة لسوء الحظ، فانتهك حرمة الوطن بدعوى الرغبة فى إعادة النظام، فمن الذى منحه هذا الحق؟ وعلى أى أساس يتدخل فى شئوننا ؟"**. ظلت الأم لمرات عدة تفتح جهاز الراديو وتغلقه وكأنها تتنصل من سماعها للنبأ، معلقة فى كل مرة بالرفض لما يقال، بل معلنة بغضب أنها لن ترسل إلى الحرب ولدها الوحيد المتبقى لها. ولعل الكاتب المسرحى التشيكى **"كارل تشابك"** فى مسرحيته الرائعة

"**الأم**"، التى نشرت عام ١٩٣٩، يكرس هذا الموقف لاستشعار معنى التحدى فى المواجهة المضادة للمشاعر الإنسانية الدفينة للأم التى فقدت أبناءها وزوجها، ليكشف عن مأزقها ومحنتها. فصياغة الموقف تحفز على تداعى وحضور المشاعر التى رافقت تجربتها، بدءاً من تأثير البعد الذى كان مقصيًا عنها فيما يخص ملابسات موت زوجها وفصيلته فى الحرب نتيجة أمر خاطئ أصدره قائده، وفقا لما اعترف به الزوج لها، وعلى عكس ما أخبروها به من أنه مات بطلا فى سبيل الوطن، فمن -إذن- المسئول عن توريطه وموته وكل فصيلته؟ لذا فهى -بلا شك- لم تعد تثق ببيانات "**الحقيقة المتحولة**" وبتبريراتها. ثم من الذى أحال الوطن إلى فصائل للاحتراب والعنف والشطط، وشكل المجتمع العصبوى المنغلق حتى قتل الأخ أخاه، وفقدت الأم ولديها معًا بنتيجة الاحتراب بينهما؟ ومن الذى جعل الوطن مطمعًا، وأشعل هذه الحرب التى تدفع الأمهات أولادها ثمنًا لها؟ كل هذه التساؤلات والتحيرات المستعصية على التخطى تجسد معضلة الأم، فالتاريخ يسبق

ويتقدم قرارها، لذا فالسؤال الدرامى العام الذى يطرحه **"كارل تشابك"** هو: أتراها سوف ترسل إلى الحرب ولدها المتبقي لها؟ وتنتهى المسرحية بأنها صحيح قد خضعت لإلحاح الموتى الذين يعيشون فى البيت، الأب وأولادها والجد الأكبر، الذى أخيراً استحضر نفسه ليشارك فى إقناعها بضرورة إرسال ابنها إلى الحرب، لكن تبقى كل التساؤلات المطروحة بلا إجابات شافية!!

صانع الكوارث والخسارات!!

كان الطاغية لا يفرق بين السيطرة والسلطة والعنف، فهو ينشد الطاعة العمياء والخضوع التام والتسليم، لذا فقد بث جواسيسه وعيونه من المتنصتين فى أرجاء البلاد ، وأيضًا لم يفارقه منظاره المكبر المكون من ثلاثة أجزاء ليكشف له البعيد، وتداهم عساكره البيوت، وتمارس كل صنوف التعذيب والتدمير بالمواطنين، فالقاعدة التى يلقنها دائمًا لكل معاونيه **"لا تخشَ تجاوز الحدود"** ، فهو يطلب جلد قائد الجيش ومعاقبته على أنه فاسق، ويمتد تجاوزه للحدود إلى أقرب الولاءات، فيقترح أن يوضع أحد أصدقائه من معاونيه فوق حصان ويجلد بالسوط كنوع من التخويف. ولكى يمنع تأثير لحظة الاستعصاء على معاونيه من المنفذين، يكشف لهم أن هذه المهمة المستحيلة

ليست اشتغالاً عبثيًا؛ بل هى محض احتيال مقصود. صحيح أن صديقه وأقرب معاونيه رجل طيب، وهو يحبه -كما الجميع- ويجله ويحترمه، لكن ضربه بالسوط سوف يهيجه، ويثير سخطه عليه، وبذلك يمكن وضعه فى سلة واحدة مع الثوار، أو معاقبته وتركه حراً حاقداً عليه، وعندئذ يمكن تجديد صورة الحاكم وتفعيلها أمام الجماهير حكيمًا واسع الصدر، والثمن قدر من فرط تجاوز الحدود بالسيطرة والعنف، وهو ما يستتبع الخضوع والتسليم من الجميع. وبكل تبجح الطغاة أعلن الطاغية، أنه سيكون من الحكمة إلقاء القبض على صديقه الأحمق فى المساء، لكن الكولونيل صديق الطاغية ومعاونه المقرب، شعر بالخطر فهرب، فقطع عليه هروبه طريق العبور والدخول فى اللعبة المصوغة حسب تفكير الطاغية، وأفلت من الهوان، بل منحه الهروب فرصة الوجود على ضفة الانطلاق للتعامل مع أشباح ذاكرته الماضية وتوقعات أحواله الآتية، فلجأ إلى صديق له قديم، مزارع إقطاعى يرعى الثوار ضد الطاغية الذى يحكم بالإرهاب والتعسف وانتهاك حقوق الناس.

وفى اللقاء كشف الكولونيل الهارب من مطاردة الطاغية لصديقه عما تغير فيه من مشاعر وأفكار، بعد هروبه من الأفق المغلق المخزى الذى كان يعيش فيه، فعاتبه الصديق قائلاً "**إنك تستحق ما حدث لك. إن الوصمة التى تتحدث عنها استمرت خمسة عشر عامًا. ماذا كنت تفعل طوال هذه السنين؟ لم تتذكر الوطن عندما كنت غارقًا فى نعيم الطاغية، ومن المحتمل أن تكون قد أتيت لتعرف مدى إخلاصى للطاغية. إنه جعل منا جميعًا جواسيس**". ولأن البشر يتبادلون فيما بينهم فاعلية التربية وانتقال المعارف، ولأن أى تنام للمعرفة يفتح بوابة تنامى الوعى الذى يؤدى إلى تصحيح أنفسنا والمعافاة من الأوهام، ولأن الكولونيل مر بتجربة حية أذهلته، وأنارت له فهم علاقة مسار حياته بالطاغية، لذا فإن لقاءه الطويل بصديقه، وبما تخلله من عتاب ونقاش، أفسح له الإحساس بمسافات أخرى من الوجود غيبها عنه الالتصاق المباشر بالطاغية، والذى سجنه وحدد توطينه فى مساحة علاقته الضيقة بالطاغية وبما يحققه هذا الالتصاق من منافع بحتة، فضاعت منه إمكانية

التطلع إلى المواطنة كمفهوم أعم وأكبر يفرض الانتماء إلى الوطن، وفى ضوئه يتحدد معنى الولاء. فالوطن هو ما يجب أن يتمتع بحماية كل الأفراد، والوطن -من هذا المنظور- لا يُستبدل به شخص، ولا يختزل في شعار. ومعيار الحماية للوطن هو صيانة مصيره العام من الأخطار. والولاء لا يعقد لسارق الوطن بالطغيان، مَنْ يدمر عدالة العيش المشترك، ويمنع بالاضطهاد استحقاقات الناس، ويرسخ الاستبداد والاحتكار والإقصاء والتمييز، ويمارس إدمان عسف السلطة المطلقة، وتكميم أفواه الناس، ويزيف الواقع بالشعارات الجوفاء، لذا انتهى لقاؤهما معا إلى موقف من المصالحة والوفاق تأسست فى ثناياه علاقة مصاحبة وارتفاق، أخذت شكل الالتزام بتغذية الواقع بالممكنات، واستخدام الحق المشروع فى مواجهة الطغيان، فانضم الكولونيل إلى حقل الثوار لإعادة بناء الوطن لمواطنين من الأحرار، بخلاصه من الطاغية، وتحرير البلاد.

وعلى الجانب الآخر، وبعد أن هرب الكولونيل وانضم إلى الثوار، راح الطاغية يمارس ألاعيب التسويغ، فأعلن عن أساه

على صديقه الهارب: "**إنه ليحزننى حقًا أن يخرج الكولونيل عن القانون، أشعر حقيقة بفقدان الصديق، لأنه هدم ذلك برعونته. كنت أود الصفح عنه، لكن عناده حال دون ذلك**".
صحيح أن الكولونيل ليس أول أو آخر أقرب معاونيه الذين يدفع بهم إلى السجون والموت، فهناك كثير غيره، وصحيح أيضًا أن الطاغية ما زال يلاحقه فى كل مكان، ويلقى القبض على كل من له صلة به، بغية الانقضاض عليه، لكن لا بد من التوقف قليلا عند الأهمية القصوى التى يعيرها الطاغية لهروب الكولونيل، ذلك أنه الوحيد الذى أفلت من الخضوع التام لعسف السلطة المطلقة، فأفسد بذلك على الطاغية الإحساس بمضاء سيطرته وسلطته، وأصبح خارج ساحة اضطهاده، بل إنه بهروبه أعلن عن تحديه، وكشف عجز الطاغية عن إعاقته، كما أن انفلاته يتسم بأنه مصحوب بالاشتغال المبرر الواعى والدافع والمحرض على المقاومة الجماعية المنظمة ضد الطاغية بقيادته العسكرية للثوار، واستثارة يقظة الضمير الوطنى العام، عندئذ أضحى هروب الكولونيل يرجح فى ميزان التأثير فعالية سجن "**سانتا مونيكا**" الرهيب المقام على ساحل

البحر، والذى بقائمة ضحاياه من مئات آلاف المواطنين، يشهد على جنون تجاوز الحدود، ومن دون استفاقة للغافلين، إذ يجرى فيه كل يوم مسلسل إعدام المتهمين من المواطنين الثوار والخصوم والأبرياء، وتلقى جثثهم على أسلاك السور حتى تنتفخ أحشاؤهم، وتصبح جلودهم زرقاء بلون الرصاص، وتظل فى انتظار أن تنهشها أسماك القرش تحت مرأى بقية السجناء الذين لم يحن دورهم بعد لملاقاة الموت، فيشاهدون التهام الولائم من الثمن البشرى الذى تدفعه البلاد مقابل استمرار حكم الطاغية، وكأن الوطن غنيمة استولى عليها الطاغية باغتصابه سلطة الحكم، فتصور أنه لا يحاسب على التفريط فى مقدرات الوطن بشراً وثروة، باعتبارهما غنيمة استحلها بالحكم، وبلا مساءلة، وراح بهذا التفريط يرمم العورات المكشوفة لنظام حكمه المأزوم نتيجة الغياب الكلى للمساعى التى تستهدف الإنصاف حتى للحقوق الدنيا للناس.

إن مراسم الإذلال والرعب، وجموح العنف والانتهاك الصارخ لأرواح الناس، والإرهاب المفضوح، والإجحاف بالحقوق، وتجاوز كل الحدود، أصبحت المراسم المؤسسة لحياة الناس على محور

الدوام، وهو ما دفع سفراء الدول إلى الاجتماع تحت رئاسة عميد السلك الدبلوماسى سفير إنجلترا فى البلاد، لمناقشة أوضاع الإخلال والانتهاك الصريح لحقوق الإنسان، ولكل المبادئ والاتفاقات المبرمة بين الشعوب المتحضرة، فيما له صلة بإعدام المسجونين، وعدم الالتزام بالأعراف والقوانين الدولية التى تنادى باحترام المسجونين، ثم انتهوا إلى تشخيص مفاده أن الدولة تعانى اضطرابات ثورية، والضغط فى مثل هذه الأمور يكون فعالاً، ومن المحتمل أن يكون هذا مبرراً للتدخل فى الشئون الداخلية، ولو على سبيل النصح. وأيضًا أقروا أن الحكومة مسئولة مسئولية كاملة وواضحة للعيان، لذلك يجب الحث على ضرورة الشدة. لكن كان السؤال الذى طرح وينتظر جوابًا: هل من الممكن أن يجدى نصح السلك الدبلوماسى فى مثل تلك الظروف؟ وبالطبع السؤال المسكوت عنه هو: إذ لم يكن النصح الدبلوماسى مجديًا، فما البديل إذن؟ وفى نهاية الاجتماع، وبعد النقاش الطويل، أصدروا بيانًا صدقت عليه سبع وعشرون دولة نشرته صحف العالم الكبرى. ولأن إنتاج الوهم

هو صناعة الطاغية؛ لذا كان فى مواجهته للتقرير الذى أصدره الكيان الدبلوماسى لسفراء الدول، منطلقًا من فكرة مستحيلة تغذيها آفة الإخلال بشروط الصدق فى الاعتقاد، وفى التعامل مع مواطنيه، إذْ صور له الوهم ضرورة المقاومة بالاشتغال بالمقلوب، فاستهدف تغيير الصورة المنعكسة لدى الكيان الدبلوماسى عن سياسته وممارساته، من دون أنْ يحاول تغيير سياسته ذاتها وأفعاله تجاه مواطنيه، فسعى إلى تدجين الثوار عبر أساليب الترغيب والترهيب، متطلعًا إلى مشاركة الثوار له فى مواجهته للكيان الدبلوماسى، فاستحضر أحد رموز الثورة بعد أن أطلق سراحه من سجنه، ليطرح عليه رؤيته من "أن **استقلال البلاد فى خطر، ونحن معرضون لخطر التدخل فى شئون البلاد من الجشعين الأجانب الطامعين فى خيراتنا. إن رجال السلك الدبلوماسى المحترمين مجرد حثالة، يعملون لمصالح المستعمرات، ويقفون بجانب الثوار ويؤيدونهم لتشويه سمعة الدولة. إنهم ضدنا حيث لدينا المطاط والمناجم والبترول. كل ذلك يثير شهية أمريكا وأوروبا ويزيد أطماعها. أتوقع وقتًا عصيبًا**

قادمًا لكل نفس وطنية مخلصة، فمن المحتمل أن يهددونا بالتدخل العسكرى، لذلك أقترح عليك هدنة حتى يحل النزاع الدولى..باختصار يجب أن تعمل على إخماد الثورة، وعندها سأكون أول من يحترم إرادة الشعب". ولأن السياسة رهانها العملى هو الممارسات، ولا تأخذ بالنيات، فإن موقف الطاغية يعد منزعًا تكتيكيًا اضطراريًا، ليس ناتجًا من مراجعة أصيلة لأسباب معضلته مع مواطنيه التى أنتجت حركة الثوار. فى السياسة أيضًا فإنه لا بد لكل نسق للسلطة من توافر مشروعية عبرها ينتقل المجتمع من حالة التحارب إلى حالة السلام المدنى، أى ميلاد سلطة تولد الحرية، وتسمح للناس بالحصول على استحقاقاتها لحقوقهم كافة، لذلك لم تجد محاولات الطاغية، فأراد أن يلقن المدينة درسًا فى العقاب الدموى، غير أنه على الجبهة المضادة كان الثوار يتقدمون حتى أحاطوا بمقره من كل الجهات، بل إن قائده انضم أيضًا إلى الثوار، وعندئذ صرخ الطاغية يعلن الخونة والجبناء، ويأمر بشنق خمسة عشر من جنوده، محاولاً إرهاب الآخرين الذين يحاولون الفرار من

المعركة، وتصور الطاغية -وفق أوهامه- أنه يستطيع الصمود، ثم يفر هربًا تحت جنح الظلام، لكن حصار الثوار لمقره اشتد وتزايد، وفجأة لم يجد في صحبته غير الخادم، وعلى الفور صعد إلى غرفة ابنته، وتناول خنجره وطعنها خمس عشرة طعنة، ومن خلال النافذة انهال عليه وابل من الطلقات فصل رأسه عن جسده، مع أن الطاغية كان قد أعلن وادعى وأشاع أنه محصن من الرصاص. وانتهت بذلك رواية **"بانديراس الطاغية"**، التي كتبها الروائي الإسباني الشهير **"باي إنكلان"**، ونشرت عام ١٩٢٦، لتؤكد لنا أن إدارة العالم وشئون الناس ليست بالأوهام، وليست من دون العقلنة الواعية للأدوات والغايات، وليست أيضًا بتجاوز الحدود، فالرواية تطرح على الطاغية **"بانديراس"** تساؤلات عدة: ترى لو كنت نجحت في هروبك تحت جنح الظلام كما تمنيت، ماذا كنت تراك ستفعل بحياتك من دون طغيان؟ وما جدوى -إذن- كل ما فعلته بشعبك ووطنك؟ ولأن الرواية تكاد تماثل وتتقارب مع خط مجرى الأحداث الراهنة، فإن ذات التساؤلات نطرحها على صانع الكوارث والخسارات،

الموهوم صدام حسين: لو كنت هربت، أم فديت نفسك، أم هكذا سريعًا هزمت ومت، فما جدوى -إذن- كل ما فعلت؟ ماذا فعلت بالعراق؟ كيف لم تجعل مغول العصر -كما ادعيت- ينتحرون على أسوار بغداد؟ كيف استزرعتهم فى كل بساتين العراق؟ أية جدوى لكل ما فعلت بأمة بأسرها؟! هل يأتى اليوم الذى يظفر فيه السؤال بالجواب؟!!

الخوف من المصير !!

قامت الحرب منذ خمسين عاما بين دولة "**شيميا**" ودولة "**لوريا**"، وانتصرت "**شيميا**"، وانتزعت ثمنًا للسلام قطعة أرض غنية بالثروات الطبيعية من أرض "**لوريا**"، وضمتها إلى حدودها وفق معاهدة صدقت عليها كل الدول الكبرى الأوروبية، وكانت ضامنة لها. وبعد الحرب على الفور بدأ تكوين اتحاد تعمير "**شيميا**" باستغلال آبار نفطها ومناجمها من قبل مجموعة من رجال المال البريطانيين وشركاتهم، والذين راحوا يخططون لسيناريو المستقبل وفقًا لتحالف المتفوقين، رغبة فى مزيد من استثمار أموالهم فى "**لوريا**" أيضا، وذلك بالعمل على تحقيق عمليات متصلة تسمح لمشروعاتهم أن تتحرك قدما، امتداداً للسيطرة على ثروات "**لوريا**" كنوع من التأمين ضد أى

هجوم محتمل مستقبلا منها على **"شيميا"**، وهو الأمر الذى يهددهم بفقدان أموالهم المستغلة فيها، إذ تمتلك **"لوريا"** كميات لا حصر لها من النفط والنحاس، لكنها -من وجهة نظر رجال المال البريطانيين- دولة ليست مشغولة بممارسة تعظيم ثرواتها واستغلالها، لكنها مشغولة بالإعداد للهجوم على **"شيميا"**، كما أنها تمنع أى رأس مال من استغلاله فى أرضها. ولا يتضح هل موقف دولة **"لوريا"** هذا يرجع إلى غياب القوى التى تنشد التغيير، أو إلى غياب قوى الجذب للتغيير فى سياق واقع حياة الناس لتحسين معيشتهم، لكن على ما يبدو أن هاجس خوف رجال المال من الهجوم المحتمل من **"لوريا"** سيطر على وعيهم الحاد بمصالحهم وأموالهم دون غيرها، فخرق هذا الخوف توازنات المصالح باعتبار أن هذا الخوف إنما يجسد سلطة مالية فوق مصالح الدول توظف الكلى لمصلحة الفردى، تعاطيًا مع إغراءات تنامى الثروة بالارتداد إلى أضيق الولاءات، فجاءت صورة أهل **"لوريا"** بأنهم برابرة متوحشون يهددون دائمًا بالهجوم. لذا كان سيناريو الخارطة الإجرائية لمجموعة أصحاب

الأموال البريطانيين، هو إطلاق شائعة مؤداها أن شعب **"لوريا"** سيقوم بالهجوم الحقيقى على **"شيميا"** فى موعد محدد؛ الأمر الذى سيثير الرعب فى نفوس أهل **"شيميا"**، ويهز حكومتها، إذ وفق تصور مجموعة رجال المال أن الواقع المعطى هو ما ينبغى المرور منه إلى واقع آخر مرغوب. فواقع وجود **"لوريا"** كدولة على حدود التماس، وافتراض وجودها كمتحد عدوانى مجاور، بواقع علاقتها التاريخية قبل خمسين عاما بدولة **"شيميا"**، لن يجعل أهل **"شيميا"** وحكومتها فى موقف المتفرج لمواجهة العدوان، وذلك لتأثيره بالخسارات فى دوائر المال، وما يحصلون عليه من عائدات استثمارات مشروعات رجال المال البريطانيين، فى صورة ضرائب تصاعدية، وضرائب استيراد، وإعانات بطالة، وغير ذلك مما يشكل حاجات حيوية لأهل **"شيميا"** وحكومتها فى سياق ظروفهم المادية والاجتماعية والتاريخية، والتى هى -بالتأكيد- المحرك للمقبل من الأحداث. ولأن رجال المال البريطانيين لهم إصبع في كل شيء وكل امتداد، فقد عينوا أدوات فقه تشكيل الواقع المرغوب،

انطلاقًا من مبدأ الاشتغال على إدارة العلاقة مع القوة لتغييب العلاقة مع الحقيقة، وذلك بتسويغ الحدث المرغوب وتبريره واستباقه تسويغًا منظمًا مولداً للإقناع، ويبدو -فى ضوء هذا الطرح- وكأن هذا السيناريو جاء إجابة عن سؤال: لماذا لا نشعل حربًا أخرى لانتزاع مزيد من أراضى "**لوريا**" الغنية بالثروات، وضمها إلى حدود "**شيميا**"، لاستثمارها بمعرفة رجال المال البريطانيين؟ وفقا لهذا السياق، وبما أن الحرب تتيح لصناع السلاح وتجاره البريطانيين فرص المبيعات والأرباح؛ مارست مجموعة رجال المال إدارة العلاقة مع القوة فى صورها المتعددة وعلى التوازى لنشر شائعة هجوم "**لوريا**" المزعوم على "**شيميا**"، وأولى صور هذه القوة هى الحكومات، فأوعزوا إلى حكومتهم البريطانية بنبأ الهجوم، بل أقنعوها بحدوثه، فحركت الحكومة فى البداية من أدواتها الكيان الدبلوماسى لينسق مع تجار السلاح حركة ضبط مسيرة أدوات الهجوم، بتغيير اتجاهات توريد الأسلحة، بحيث تصب بالرجحان فى جانب "**شيميا**". والصورة الثانية من صور القوة هى الرأى العام،

والذى بوابته الصحافة بوصفها الصورة الثالثة من صور القوة التى يجب الاشتغال عليها لتنشئ شبكات من الإثارة والتأثير الفورى يولد رأيا عامًا يأخذ شائعة الهجوم كأمر واقع يخترق ويتجاوز العلاقة الحقيقية بين **"لوريا"** و**"شيميا"**، باعتبار أن هذا السيناريو بأدواته قادر على استبدال الحقيقة حين يدخل فى صراع معها وتشابك، فيبنى بوقائعه ما يفوق الحقيقة نفسها بالوجود الفعلى الحاكم لهذه الوقائع، غير أن ممثل دولة **"شيميا"** يرفض الضغط التلفيقى الإكراهى لهذا السيناريو، والممهور بطابع التسلط السياسى الذى يمارسه الملحق الدبلوماسى البريطانى، ومعه مندوب الاتحاد الإمبراطورى للأسلحة، لقبول اقتناع مغاير للحقيقة بهجوم **"لوريا"** وتدميرها لبلده، وهو ما يلزمه -تجنبا للخطر والاستعداد له- ضرورة اقتناء مزيد من الأسلحة. ودخل الجدال بينهم شبكة التنافر والتعارض، إذ أعلن الرجل أن سياسة بلده تتجوهر فى المحافظة على السلام بوسائل معقولة، وتفادى الصدام وأسبابه، وأصبح طور المناقشة اللسانى غير مجد، خاصة عندما كشف

الرجل فهمه للمقاصد والمحفزات الهاربة والمسكوت عنها فى حديثهما، فانقطع الكلام بينهم وانغلق الفهم. لكن هل يستطيع ممثل دولة "شيميا" -رغم فهمه- أن يدفع بعيداً عن بلاده أنظمة الإكراه التى يجرى تفعيلها بمنطق القوة والسيطرة الذى يقود مختلف فعاليات الأفراد والجماعات لتحقيق السيناريو المعد الذى يطوع الحقيقة للإرادات السياسية؟ لقد أصدرت المفوضية البريطانية منشوراً بترحيل رعاياها خارج "شيميا" تأهبا للهجوم، واتخذت الشركات البريطانية تدابيرها كما لو كان الحصار يقترب حول "شيميا"، وأقدمت كل المصانع التى يملكها الإنجليز، وخاصة فى صناعة النفط، على التخلص من مخزونها بالبيع السريع، أو النقل بالبحر إلى خارج البلاد. وعلى التوازى أقامت المصانع التحصينات حول مبانيها، واقترن بذلك امتداد متنامٍ من قبل الشركات الوطنية بالمحاكاة لكل هذه التدابير، وبدأ التلاعب فى المؤسسات المالية بالمضاربات والمناورات المالية، وساد الذعر كل الأسواق وارتبكت أحوال الناس. ولا شك أن كل هذه التدابير الاحترازية

أحالت البلاد إلى حقل مزروع بالألغام، وأصبح المتداول من صوت الحقيقة صوتًا هاربًا أمام مجمل هذه الوقائع، وبالطبع فإن الناس من أهل "**شيميا**" لا يتساءلون -وسط هذه الألغام- عما عساه يمكن أن يكون من مسافات بين هذه التدابير وبين الحقيقة، إذ تتطابق هذه التدابير في وعيهم مع سابق حربهم مع "**لوريا**"، كما أجج مشاعرهم غلاة الخطباء بإعادة إنتاج صور الماضي من مجازر الحرب، والتي ألقوها على الناس كحمم حارقة، وأصبح المشهد المعادي يفرض حضوره من خلال وجوهه وأصواته ووقائعه. أما أهل "**لوريا**"، من يعيشون في جزء من وطنهم، والذي أصبح منذ خمسين عاما، نتيجة للحرب، يخضع في ترسيم حدوده لسيادة "**شيميا**"، فإنهم ينفون صدق شائعة هجوم "**لوريا**"، ويؤكدون أن من اخترعها هم أهل "**شيميا**"، مجددين بذلك ما حدث في الحرب السابقة، بل أعلنوا أن لديهم معلومات عما تجمعه "**شيميا**" من عتاد ضخم لأسلحة الحرب، وتعبأت مشاعرهم أيضًا من قبل زعمائهم لكبح تمدد نفوذ "**شيميا**"، والتصدي لها ولتوسعاتها. وأصبحت أرض "**شيميا**"

ميدان معركة قبل المعركة بين أهل **"شيميا"** وأهل **"لوريا"**، وسادت وتعددت حوادث الشغب والقتل، وطال الموت مواطنة بريطانية. وسواء أكان الحادث على فرضية القتل المدبر أم دونه، فإنه أصبح مورداً خصبًا للصحافة البريطانية نفذت منه إلى مشاعر الرأى العام الإنجليزى، فحركت مؤسساته، وتقاطرت المقالات فى التجيش السياسى للدفاع عن كرامة الشعب الإنجليزى، والوقوف إلى جانب **"شيميا"** المتحضرة المحبة للسلام فى مواجهة **"لوريا"** المتخلفة التى لا تعرف سوى تجارة الترانزيت، وتعيش على السلب والنهب. أما المسكوت عنه والمحجوب عن الإعلام، فهو إرغام الدبلوماسية البريطانية **"لشيميا"** على التقدم بطلبات للحصول على مزيد من الأسلحة، ثم قيام الدبلوماسية البريطانية بإبلاغ هذا السر إلى **"لوريا"**، كاشفة لها عما يعد ضدها من عتاد الحرب، لتنمى بذلك شروط المواجهة بتحويل الظن إلى يقين، وتسقط من الحساب أى مجال للوساطة بينهما، فصناعة الواقع المرغوب تقتضى ألا تتحطم **"شيميا"**، بل أن تتسع رقعتها على حساب **"لوريا"**، محروسة بسلطان القوة والسيناريو المعد، وليس بسلطان الحقيقة، وبعد

البوح المستثمر من قبل بريطانيا لحكومة **"لوريا"** تنفيذاً للسيناريو المعد، عما طلبته **"شيميا"** من أسلحة، على الفور اجتاحت قوات **"لوريا"** أرض **"شيميا"**، واحتلت فيها موقعا استراتيجيا، وتوالى تقدم القوات الغازية، فأعلنت مؤسسات المجتمع المدنى فى بريطانيا بنقاباته وأحزابه وجمعياته رفضها ومقاومتها لأى شكل من أشكال التدخل العسكرى فى الحرب، وواجه رئيس الوزراء البريطاني حملة معارضات حزبية حادة ومتنوعة، كشفت عن أنياب الرأسمالية المتوحشة وخططها التى تدفع إلى الحرب، حماية لمتلكاتها فى **"شيميا"**، وطموحها فى الاستيلاء على موارد البشر توسيعًا لثرواتها، متدرعة بالدفاع عن كرامة بريطانيا انتقامًا لحادث قتل المواطنة الإنجليزية، لكن كل تلك الأصوات المعارضة أخفقت أمام إحكام سيطرة رجال المال على صناع القرار، وهيمنتهم على الصحافة التى أصبحت لسانهم، وتشكل تحالف أوروبى من بريطانيا وفرنسا، خرجت بموجبه جيوشهما معًا إلى المعركة التى انتهت بانتصار **"شيميا"**.

وبعد انتهاء الحرب اجتمع مؤتمر التحالف من ممثلى بريطانيا وفرنسا وشيميا، وأمامهم خريطة كبيرة "**لشيميا**" و"**لوريا**" تمثل الحدود الجديدة للخريطة المقترحة، التى تجعل "**لوريا**" دولة هزيلة ممزقة الأوصال، حيث انتهى تقرير "**لجنة الحدود**" إلى حتمية أن تنتقل كل المناطق التابعة إلى "**لوريا**"، ذات المستقبل وفرص النهوض، إلى دولة "**شيميا**"، فى حين تبقى المناطق التى تفتقد هذه الصفات تابعة لشعب "**لوريا**"، بل أيضًا تنتقل إليها كذلك كل المناطق التابعة "**لشيميا**" التى لا قيمة لها، كما يتم التجاوز عن المناطق الجبلية التى تتبع "**لوريا**"، وتتمتع بإمكانية الاستثمار، شريطة أن يجرى استغلالها تحت إدارة أجنبية. أما لجنة التعويضات فقد أقرت إعفاء دولة "**شيميا**" من أية تعويضات. ولأن شعب "**لوريا**" لا يتوقع منه مدفوعات مباشرة، لأنه شعب متخلف، فإن عليه أن يقوم ببناء ما حطمه أفراده بأيديهم لإعادة الإعمار، وبالطبع حاول ممثل دولة "**شيميا**" الاعتراض، لكنه أخفق -كما أخفق فى جولة منع الحرب- إذ ميزان القوى لا يسمح له بدفع الإكراه!

لقد مر على كتابة مسرحية "**الشائعة**" ثمانون عامًا، حيث صدرت عام ١٩٢٣ لمؤلفها الإنجليزى "**تشارلز كركباترك**

ماكملان" والذى نشرها تحت اسم مستعار هو **"تشارلز مونرو"**، وخطابها العام -منذ وقت صدورها- يؤكد أن البشرية أقدمت على أعنف انقـــلاب فى تاريخـــهـــا للارتداد إلى الوراء، باضطهادها الحقيقة كمرجعية، وتجاوزها وإقصائها، وفرض الوقائع المغايرة بالقوة والتسلط والإيهام، وممارستها انتهاك أوضاع الناس بإجبارهم على التنازل عن أراضيهم والتخلى الصريح عنها، وفك ارتباطهم بأوطانهم، وتجاهل التاريخ الفعلى لعلاقاتهم بالاشتغال الدائم على سيادة علاقة القوة والاستبداد بتغير الجغرافيا والتاريخ ورسم خرائط جديدة للعالم، وفرض الوصاية على ثروات الناس الطبيعية بالتجاوز لكل الحدود والأعراف، وفرز البشر بمعيار التفرقة العنصرية، واستعباد الناس وتحويلهم إلى عبيد للعمل بلا مقابل. ويظل ممثل دولة **"شيميا"** يشكل نموذجًا لخطاب الخوف من المصير، فلم يعد يمتلك هامشا لثمة خيار فى مواجهة أنظمة القمع والإكراه، أو ينازع كل العقبات التى تعترضه فى سياق الاستبداد المفرط، الذى ينتزع منه ذاكرته ووطنه وثرواته وأمنه وسلامه، انطلاقا

من مبدأ إدارة العلاقة مع القوة الفائقة القدرة لتغيير العلاقة مع الحقيقة، باعتبار أن القوة وحدها هى القادرة على التغييرات والانقلابات. ترى هل ثمة وقاية سياسية من ذلك المصير؟ أليس الأمر يستوجب التفكير بعيداً عن التهويم؟!

متى يعلن موت صدام ؟!

حكم الملك "**أوزوالد**" مدينته لما يزيد على ثلاثين عاما بسلطة ديكتاتورية مستبدة ومفرطة، حيث شكل العنف بكل أنواعه، المعلن منها والمستتر، وجهًا من العملة الرائجة فى مواجهته لشعبه، كما شكل التزييف الوجه الآخر من هذه العملة، حتى غدا تلازم العنف والتزييف تقنية سياسية تهيمن على هيكل سلطة الدولة ونظام اشتغالها السياسى فى تحقيق كل ما يراد تعميمه وتسويقه، نفيًا لحرية الناس بالتسلط والعنف والخداع، والمناورة والتضليل والقمع. ومع ذلك فقد واجه الملك "**أوزوالد**" كثيراً من الثورات التى كانت تقاوم جبروت نظامه بعنفه وزيفه، والذى أفقد المجتمع حيويته وتنوعه، إذ خلال السنوات العشر الأخيرة فقط من حكمه،

والتى انشغل فيها الملك **"أوزوالد"** بالحرب، قامت ضد نظامه سبع ثورات، لكنها جميعًا -كسابقتها- انهارت أمام بربرية سلطانه المطلق بكل وسائله، العارى من أية عقلانية تدرك الحرج الأعظم لنظامه المأزوم واقعيًا وعلى المستوى الإنسانى، فالتزييف يحجب الحقيقى ولا يكشف عنه؛ بل يسقط العالم الحقيقى ويجتاحه، ويراكم فوقه خدعه وألاعيبه حتى يلغيه ويحل محله، لذا عاش الناس على كل مستويات حياتهم فى عالم التضليل والأوهام مقطوعى الرءوس مستعبدين، حيث طال التزييف كل مجالات حياة المجتمع، فالفرد لا ينمو ولا يزدهر وفق مواهبه، وإنما يتم تجريده منها عند ولادته، إذ يقرر النظام سلفا ومقدما تحديد مستقبله. فعندما ولد فى المدينة اثنا عشر طفلا، صدرت عن النظام أوامر الحسم والظلم والعنت، التى حددت مشروع حياتهم، بأن أربعة منهم تحدد أن يكونوا أطباء، واثنين من بينهم سيكونان سجينين محكومًا عليهما بالأشغال الشاقة المؤبدة، وواحدا منهم سيكون قاتلاً، أما الخمسة الباقون فسيكونون من صغار الساسة. ولأن نظام الملك

"أوزوالد" يرسخ ويؤسس لتثبيت التعجيز عن انبثاق الحرية، فإنه حتى فى الفن لا يعترف إلا بالفنانين الذين حصلوا منه على الجوائز، أى الذين يصنعون تماثيل للملك. أما الباقون من الفنانين ممن لم يحصلوا على الجوائز، لأنهم يصنعون تماثيل كثيرة ليس من بينها تمثال واحد للملك، فهؤلاء مشبوهون ويودعون السجون، وتصادر حرياتهم وفقا لمنطق القوة المهيمنة الذى يبرمج ويقولب الإنسان، ويفقده ذاتيته، ويتحكم فى طريقة فهمه لذاته وللعالم المحيط به. ولأن الوجود الوهمى للناس هو ثمرة الاستبداد بحصاراته الشاملة، لذا فلا ممارسة حقيقية لإرادتهم العامة، حيث تتجلى فى المشاركة والمسئولية الفعلية التى تفترضها عضويتهم فى المجتمع، فالآلية الحاكمة هى آلية المقاومة للحضور الحقيقى للناس، والتى لا تقبل المعارضة أو المساءلة، حيث لا طاقة لهذا النظام بأعباء الحرية، ومن ثمة يخنق التفكير ويتصدى له، ويلغى أدوات نشره وفقا لمعايير تصوراته الزائفة، إذ يصادر صحيفة المعارضة مزيفا تبريراً مفاده أنه ليس هناك من أموال بالميزانية تكفى لها، فى

حين أنه يُصدر ثلاث صحف أخرى جديدة، تتحدد مهامها فى البحث الأشمل والأكثر تفصيلا لمشكلات صناعة ماء الكولونيا والعطور للمدينة، ثم يُصدر كذلك صحيفتين أدبيتين، والهدف المصرح به أنهما من أجل نشر إنتاج الأدباء الذين لم يحصلوا على جوائز. أما المسكوت عنه فهو فعل مرصود كمطية متدرجة مزيفة، لتأكيد دونية هؤلاء الأدباء، وعدم استحقاقهم للجدارة الأدبية، ومن ثم حجبهم ونسيانهم، إذ خلال خمسة عشر يوما يتم إلغاء الصحيفتين باعتبارهما تافهتين وعديمتى الفائدة، وذلك كى يثبت للرأى العام فى المدينة أن الأدباء الحقيقيين والجيدين ليسوا إلا الأدباء الذين حصلوا من النظام على جوائز.

وعلى خلفية هذا التزييف الذى يطرد الحقائق ويطاردها، يجرى تسيير كل شئ فى المدينة، فقد تم منذ خمسة وثلاثين عاما تشكيل المجلس الملكي المنوط به إصدار القوانين التى تحكم المدينة، والذى يضم فى تكوين أعضائه فيلسوفًا يجسد المفارقة الهازلة، ويكشف علاقة الاستتباع والمهانة، فهو فى الاجتماعات، وعندما يطلب الإذن بالكلام للإدلاء برأيه، ويؤذن

له، فيقف صامتا، لا يمارس الكلام البتة، لا كشفا ولا معاينة، ولا اكتشافًا لطريق، أو خوضًا فى غمار المجهول، ولا طرحًا لسؤال أو استدراجًا لجواب، فهو خارج كل الأسئلة والأجوبة، إذ أبلغوه عند تعيينه ألا يجهد نفسه، حرصًا على قيمة حياته وأهميتها الثمينة، وهو أيضًا ما يستوجب ألا ينشر شيئًا مطلقًا، ومهمته التى يتقاضى عنها راتبه المجزى، أن يعطى تصريحات للصحافة بأن جميع قرارات الملك تقوم على أساس فلسفى، وعلى بعد نظر عميق، أى أن يكتفى من المعرفة بالتبرير، ومن السياسة بالولاء، فأغلقوا فعاليته عن كل أدواره، كما يضم المجلس أيضًا شاعراً كفيفًا أبكم أصم، لا يكتب الشعر، ومع ذلك حصل على أرفع الجوائز من "**الملك**".
هذا الكائن الصامت صناعة مزيفة اخترعها وقام بتسويقها "**الملك**"، وضخها ليسد بها الطريق أمام شاعر يدعى "**فالينتيون**"، يردد المواطنون قصائده، وتنشر المجلات أشعاره، ويتسابق أصحاب دور النشر إلى طبعها، إذ يصدر له كل عام ديوانان، فتضخمت شعبيته، واضطر الملك إلى أن يدعوه إلى

حفلاته، وأصبح الحديث عنه وعن قصائده أكثر من الحديث عن "**الملك**"، وعندئذ قيل إنه لم يولِ "**الملك**" الاحترام الواجب، فأصدر "**الملك**" قراراً بإنشاء شاعر جديد أسماه "**أنتيفا ليتيون**". بالطبع هو شاعر افتراضى خيالي مزيف، يريده "**الملك**" أن يصير حقيقيًا، ويدخل الزمن الواقعى، وعلى الفور نشرت الصحف دراسة نقدية ضافية عن ديوانه الجديد، وأردفت أن الديوان تم طبعه فى مائتى ألف نسخة نفدت كلها، لذلك منحه "**الملك**" جائزة، ثم نشرت صورته وهو يتسلم منه الجائزة. ولأن الناس فى السوق الاجتماعية تحركهم المعلومات المتداولة، إذ التداول يحرك، ويجرف، ويقحم الناس فى نوع من العماء يمنع التفكير، وينأى بهم عن الحقيقة، لذا فقد واصلت الصحف أسبوعيًا تداول أخبار الشاعر الجديد ودواوينه التى يصدرها كل أسبوع، ويحصل مقابلها كل أسبوع أيضًا على جائزة، حتى تكون لدى الناس اعتقاد معلوماتى -من فرط المعلومات المتداولة- بكل شيء عن الشاعر الجديد من دون قراءة دواوينه، التى لم تكن موجودة أصلاً فى أية مكتبة لأنها -كما يتداول- تنفد فور صدورها.

انتحر الشاعر الحقيقى فى مواجهة مأزقه، ليس لأن الملك لا يعترف به؛ بل لشعوره بامتلاك القدرة، وعجزه عن امتلاك حريته فى ممارسة هذه القدرة وتنفيذها، وهو ما يتجسد تحديداً فى بناء علاقته بالعالم من حوله، والتى تعطل تحقيقها عقبات الاستحالة والتزييف والوهم، إذ أصبح من الاستحالة نشر دواوينه، فلا رغبة من أحد من الناشرين فى طبعها، وإن كانوا يقبلون منه ما يقدمه من أشعار ويعدونه بالوهم، بأنه سيتم طبعها بمجرد الانتهاء من نشر الأعمال الكاملة على أفخر ورق للشاعر الجديد المضاد له، وهو الشاعر المزيف والذى بلا شعر. عندئذ أدرك الشاعر الحقيقى أن **"العنف المرن"** يعبث به وبقدرته، ولم يكن أمامه من مهرب ولا فرار، فإما قبول **"العنف المرن"**، أى العبث به، وإهانة قدراته واستجابته بالعدو وراء الوهم، وإما مواجهة **"العنف الفتاك"**، أى الوجه الآخر للعملة المتداولة لنظام الملك **"أوزوالد"**، وفى كليهما تغيب الحرية، ويغيب معنى الوجود. وأمام هذا الإكراه انتحر، ونشرت الصحف أن سبب انتحاره حبه لإحدى الممثلات المشبوهات والإفراط فى السُكر. وهكذا لم يعد يكفى **"العنف المرن"** ضخ شخصية لا قيمة لها مصنوعة بالزيف وبالكيد المحض وجبروت وعبث حكم

الفرد، وتسويقها على أنها الشاعر الفحل، كى يقهر ويغدر بالشاعر الموهوب، ولم يعد يكفى أيضًا انتحاره، فإذ بترف السيطرة يختم حسابه الجاري مع الشاعر الموهوب بتزييف تاريخه حتى الموت.

هكذا كان الملك "**أوزوالد**" يمارس "**العنف المرن**"، لكنه كان لا يطيق أن يغيب عنه العنف الهائج، والمجابهة الدموية، والقتل الجماعى. وإن غاب عنه هذا "**العنف الفتاك**"، يصاب بالجنون والملل. وإن رويت رغبته تارة تعاوده مره أخرى، فيختلق حربا جديدة، إذ هى حاجة وهدف لذاتها فحسب، ولا شىء يحد من عنف هذه الحاجة أو ينهيها سوى سقوط صاحبها سقطة الموت. وبالفعل، وفور عودته من حرب السنوات العشر، قتل الملك"**أوزوالد**" بتواطؤ زوجته الملكة مع عشيقها، الذى قضت معه سنوات البعاد فى خلوتها سراً بالقصر، انتقامًا من غطرسة زوجها الملك، واستبداده بها، وقسوته عليها، ولا مبالاته بها، وتعبيراً عن حقدها وكرهها الفظيع له، وكانت قد قتلت أحد حراسها حين اقتحم يومًا خلوتها وشاهد شرف الملك

مذبوحًا فى مخدعه، ثم إنها أيضًا اتهمت ابنتها بالجنون لمعرفتها السر، كما هرب ابنها من القصر. لكن ما يثير سؤال الفكر أن من ساند الملكة فى الاجتياز والخروج من مأزق قتل الملك، كان ذات الرجل الأقرب إليه، "**جنراله**" وكاتم أسراره المرافق دومًا له، والمنفذ لكل رغباته، ولسياسات الرعب والاستقواء والانتهاكات والحروب فى الداخل والخارج. وبالتأكيد فإن هذا "**الجنرال**" قد أدرك بذكاء كاشف أن قتل الملكة لزوجها الملك، لا يعنى عصيانًا سياسيًا ضد نظام الحكم؛ بل محض تقلبات مشاعر مقترنة بالحب والكره لعلاقة بين فردين، ولم تنتقل إلى المجال السياسى، لذلك فقد واجه "**الجنرال**" الأمر فى إطار آليات نظام الحكم السائد، وكما لو كان الملك ما زال حيا حاضراً، يشهد على حضوره استمرار استخدام "**الجنرال**" ذات العملة الرائجه فى نظام حكمه بوجهيها، وهما التزييف والعنف، فقد أدار "**الجنرال**" الموقف غير آبهٍ بحادثة قتل الملك، بل بنتائجها تحديداً، فقد كان هدفه ألا يمس أو يتغير دوام ممارسة القدرة المطلقة لسلطة الحكم،

والتى تمتلك إمكانا لزحزحة الحقيقة، أو خرقها، أو تجاوزها، حتى لو كانت حقيقة الموت، إذ على الفور أبلغ الملكة أن الملك "**أوزوالد**" لم يمت، وأنه ما زال حيًا، وطلب إليها أن تكتم خبر موته عن الشعب، وفى الوقت نفسه طلب أيضًا أن يرتدى القاتل عشيقها الحلة الملكية، ويعلق على صدره النياشين والأوسمة، فيصبح بذلك هو الملك، "**أوزوالد**"، فتمتد حياة الملك مستأنفًا ممارسة السلطات المطلقة التى تؤكد سيادته، فالقوة تنجح فى أن تفرض نفسها، وتطرح ما تراه وتقرره، ولن يجرؤ أحد على التطلع فى وجه الملك متفرسًا ليعلن أنه ليس الملك، ومن يفعل يجرِى تخوينه، ويكون عقابه القتل الفورى. وبعد عشرة أيام من نجاح خطة "**الجنرال**" عاد الابن الهارب إلى القصر، وبتشجيع من أخته التى كشفت له أن الملك ليس هو الملك، استطاع الابن أن يغتال عشيق أمه وقاتل أبيه الملك، لكن "**الجنرال**" أوغل فى انحطاطه، واستصدر من المجلس الملكى قرارين متناقضين، أولهما -وهو المعلن للناس- أن الملك "**أوزوالد**" ما زال حيًا، وثانيهما -وغير المعلن للناس- تنفيذ

القتل فى الابنة والابن لاغتيالهما الملك. والمدهش أن الملكة راحت بكل الرضا تدفع بأبنائها إلى الموت، كما لو أنهما مجرد وسيلة لتحقيق هدف ممارستها حكم المدينة، وكأن السياسة لا ترتبط بأى رباط مع الأخلاق، وأن القرارات والحلول السياسية مستقلة عن التسويغات الأخلاقية، وهو ما يعنى إلغاء الإنسان ككائن يميزه مخزون قيمه، ويعنى اختزال تصنيفه فى أنه مجرد كائن حى فحسب، فاقد لمفهومه الإنسانى وتاريخه المتحقق عبر مسيرته، ويصبح بذلك مجرد وسيلة لإنجاز الأهداف. ثم ينهى الكاتب المسرحى اليوغسلافى **"فيليمر لوكيتش"** مسرحيته الصادرة عام ١٩٦٣ بعنوان **"الحياة المديدة للملك أوزوالد"**، بمشهد تقف فيه الملكة مضطربة أمام الكرسى الذى توجد عليه البذلة الملكية بنياشينها وأوسمتها، والطبيب يأخذ كم البذلة ممسكًا بها لفترة طويلة، ويشخص حالة الملك من نبضه بأنه يعانى إرهاقًا من عناء يومه، فتطمئن الملكة، وتحادث البذلة الفارغة، وتعانقها، وتسأل: **"من الآن أقوى من أوزوالد؟ صنع الناس وجهه، وجعلوا حياته مديدة..مديدة"**.

أليس على جموع شعب العراق أن تعلن موت صدام حسين، وأنه لن يحكم العراق ببذلته وبنياشينه وأوسمته، وأنه لن تبقى حياته مديدة؟ ولا شك أن رهان جموع العراقيين هو أن يعيدوا بناء دولتهم الوطنية المستقلة، ويقاوموا انكسار الهوية!!

المحتويات

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

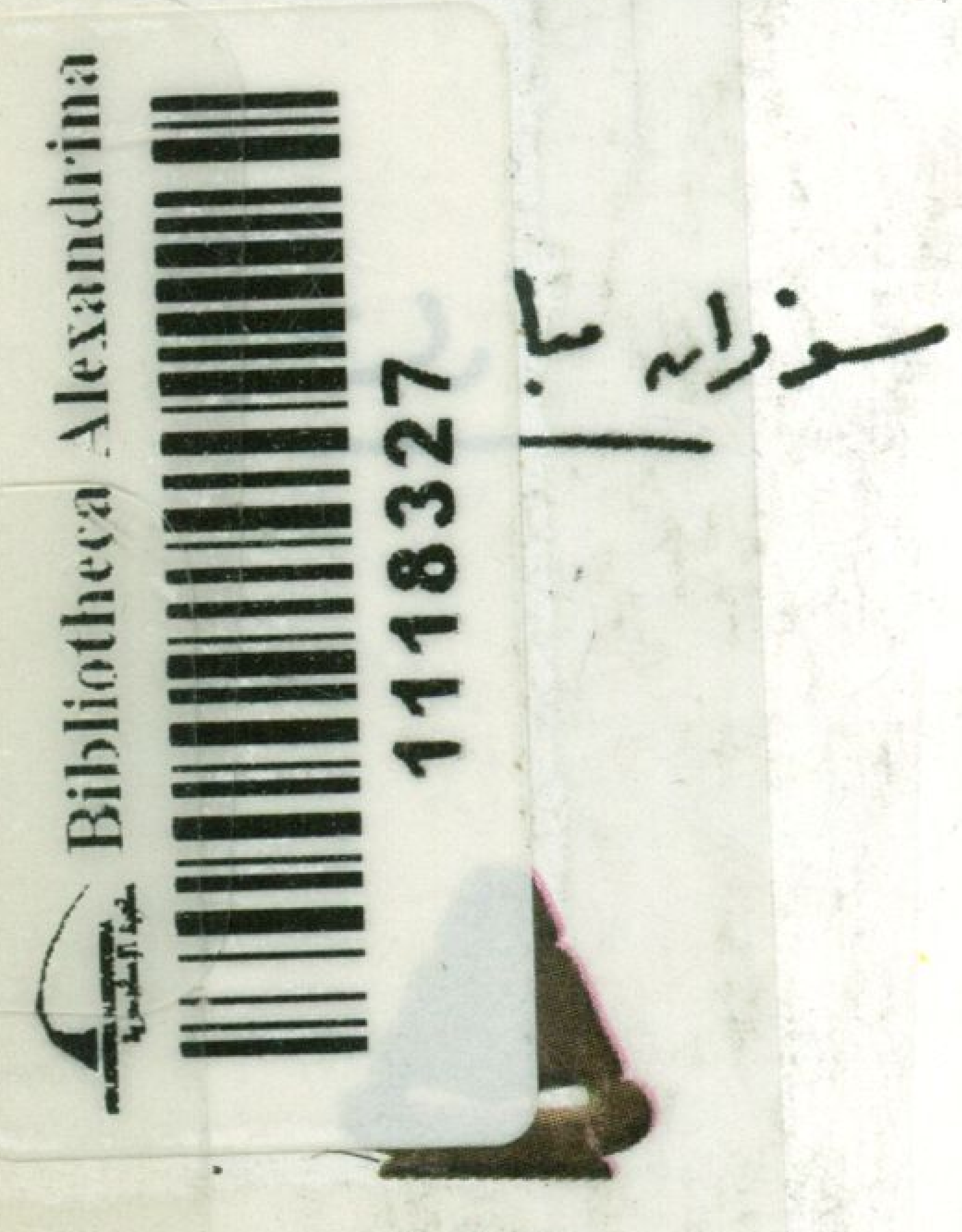
رقم الإيداع بدار الكتب ١٣٥٠٥ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8703 - 8



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد الإبداع والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فارقة فى مسيرتها الحضارية.

سوزان مبارك


Bibliotheca Alexandrina
1118327

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

الثمن ٣٠٠ قرش